

فنون التحرير الصحفي
بين الأصالة والمعاصرة



أبو حنيفة

الأوب

و محمد و أولهم



فنون التحرير الصحفى
بين الأصالة والمعاصرة

١

أدب الجاهل من زاوية صحفية

دكتور محمود أدهم

بسم الله الرحمن الرحيم

« ۰۰۰ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله

ذو الفضل العظيم »

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله وبِعونه تعالى ، نبدأ هذه السلسلة الجديدة وهي الثالثة من سلاسل مؤلفاتنا ، تلك التي رأينا أن تكون تحت عنوان : « فنون التحرير الصحفى » بين الأصالة والمعاصرة » ٠٠ بعد أن أخذت الأولى اسم : « فنون التحرير الصحفى بين النظرية والتطبيق » ٠٠ وأخذت الثانية اسم : « دراسات فى صحافة المجلة » ٠

وهذه السلسلة الجديدة ، تقوم على فكرة تقول : اذا كانت كثرة من مؤرخى الأدب والصحافة ومن المؤلفين عامة فى الميدانين يعودون بهما الى الأصول والجذور الأوربية ، ويفضون الفكر والنظر عن غيرها فى أسوال كثيرة ، فان باستطاعة التراث الفكرى العربى الأصيل والثرى والذى لا ينضب معينه أن يقدم هو الآخر ، ما يثبت أن كثيرا من فنون وأنماط وأطر الحاضر الاتصالى الصحفى كانت لها جذورها ، بل ومقدماتها وطلائعها - الأكثر تقدما فى أحيان كثيرة - تلك التى رصدتها وتابعتها وحررتها وسجلتها ونشرتها منذ مئات السنين ، أقلام عدد غير قليل من رواد الفكر والأدب والثقافة العربية ٠٠ وظهرت بين سطور ابداعهم ٠

اننا - كعرب ومسلمين - أصحاب حضارات عظيمة أخلاقية وأدبية وفنية وعلمية وانشائية كبرى ، فلماذا لا نستلهم هذه الألوان كلها ؟ نعم لماذا لا نستلهم هذا التراث العظيم الزاخر ، مادامنا نحن أصحابه ؟

ومن هنا ، فقد توكلت على الله ورحمت أغوص فى محيط هذا التراث . أنظر هنا وهناك ، وأقرأ وانتقى وأدقق وأقارن وأحلل ، فيزداد يقينى بقيمته من زاوية اتصالية وأدبية معا ، وتأخذ بى كتابات كثيرة اشترت الى بعضها اشارات عديدة ، فى مؤلفات سابقة لى . ترى ٠٠ هل كان باستطاعتى تجاهلها ؟

لكن ٠٠ وحتى قبل هذه بسنوات ، فان اسما من الاسماء لم يشدنى الى ابداعه ، من منظور اعلامى صحفى ، ولم يقطع الطريق على اثناء دراستى

- ٦ -

لفنون التحرير الصحفي ٠٠ كلها ، فتقوم كتاباته بعمل « اختراق » قوى ، لما أفكر فيه ، وما أتناوله من مادة اخبارية ، أو موضوعات أو قصص أو تقارير أو مقالات صحفية ٠٠ مثل هذا الرجل الموسوعي المكون من عدة رجال ، والذي كان وراء الكثير من الجديد المتطور الذي دخل الى لغتنا العربية والى أدبنا العربي فكرا وموضوعا ، مفردات وأسلوبا ، ومن ثم فقد رأيت أن أقف عنده ، بغية تقديم ما يتصل بهذا الجانب ، وأصبح ذلك الاحساس يصاحبني كثيرا ، ويدفعني الى المزيد من التعرف على هذا الرجل ، والتوغل في عالمه الموسوعي ، من أجل الهدف نفسه .

ثم عاد « الطارق الجاحظي » يلح على بعنف ، ويطرق باب فكري بشدة وأنا أقوم بجمع مادة رسالتي للماجستير وكان موضوعها : « فن التحقيق الصحفي المصور » ٠٠ حيث تأكد لي أن بعض كتابات الرجل ، يمكن اعتبارها من بين جنود هذه المادة القياسية ومقدماتها في أدبنا العربي ٠٠ بل أن دراساتي التحريرية التالية لهذه الدراسة والتي تناولت عددا من الفنون الأخرى ٠٠ جميعها راحت تؤكد هذه الرؤية ، بشكل أو بآخر ، وإن اختلفت المسافات بين الكتابات الجاحظية ، وبين هذه الفنون ، فهي حيننا تقف بالقرب الشديد منها ، وفي حين آخر تقترب منها فقط ، وفي حين ثالث تبدو بعيدة عنها ، لكن هذا البعد ليس تاما ، ولا كاملا ، وإنما يمكن أيضا رؤية عدد من وجوه الشبه أو العوامل المشتركة ٠٠ بالعين المجردة ، فضلا عن أن هذا الاختلاف ، هو من طابع الجذور والمقدمات ذاتها ، وذلك بصرف النظر عن عنصر « الطباعة » واستخدام بعض التعبيرات الصحفية الحديثة ، وما يتصل بالعصرين ، عصر الرجل وعصرنا من فروق عديدة ، وما الى ذلك كله ٠٠

ولم يكن لي ، ولا كان باستطاعتي أن أنتظر أكثر من ذلك كله ، لا سيما وأنا أرى بعض ما قدمت من مادة علمية صحفية ومن أفكار جديدة تماما ، أو ما تناولت من أفكار معروفة ، من أكثر من زاوية جديدة ، ومن خلال أكثر من رؤية جديدة - والحمد لله وحده - أرى بعضهم وقد راح يختلسها أو يبتزها ، ويستحلها لنفسه دون إشارة ، أو إشارة باهتة عقيمة الى قلة قليلة مما يأخذ ، أو بثبت نفس مصادري أو بغير ذلك من أساليب ملتوية وغير صحيحة ٠٠ نبهت اليها في كتب سابقة ، ونبه « الجاحظ » اليها منذ أكثر من عشرة قرون !! ٠٠

ومن هنا فقد رأيت أن تخرج هذه الصفحات الى النور ، تلك التي أريد
أن أقول بشأنها :

● أننى أعرف تماما ، وربما أكثر من عديدين ، أن الأدب أدب ،
وأن الصحافة صحافة، لكننى أيضا، ومن خلال دراسات عديدة ولقاءات متصلة
مع أصحاب التجربة الصحفية الحية والثرية ٠٠ أعرف كذلك أن للاعلام
بلاغته ، وأن هناك ما يمكن أن نطلق عليه اليوم ، وما سوف نطلق عليه غدا :
« الأدب الصحفى » ، وهما « بلاغة الاعلام » من جانب ، و « الأدب الصحفى »
من جانب آخر لابد وأن تقوم صلات النسب والقراءة ، بينهما وبين البلاغة
بمعناها الأدبى ، لأنها المعين الأساسى لهما .

● ثم ٠٠ هل هناك ما يمنع - حتى اليوم - من أن يكون بين أعضاء
الأسرة الصحفية ذلك الرجل الواحد الذى يجمع فى شخصه الواحد ، بين
الأديب وبين الصحفى ؟ على الرغم مما فى ذلك من صعوبة يبررها هنا أنه
لا يكون شخصا عاديا ، أو محررا عاديا ، وإنما من هذه القلة ، أو القلة
النادرة من الموهوبين والمبدعين !؟

● أنه لا يمكننى ولا أستطيع ولا أقدر ٠٠ أن أنزع عن الجاحظ
صفته الأدبية ، أو حتى أقوم بالمحاولة ، لأضفى عليه الصفة الصحفية ٠٠
إنما أنا أقول فقط أن أديب العربية الأكبر ، كان له جانب الذى يمكن أن نطلق
عليه أنه « جانب صحفى » ، وكانت له أفكاره وتوجهاته واهتماماته التى يمكن
أن نقول عنها أنها كانت « صحفية » وفق التعبير الحديث ، والتى سبق بها
غيره .

● . أننى أقول ، أن هذه النتيجة التى توصلت إليها ، والتى رحت
أعد مقدماتها وشواهدا خلال صفحات الكتاب ، يمكن أن يتوصل إليها
أيضا كل دارس ومهتم بأدبه ، إذا كان على قدر كاف من المعرفة بالصحافة
عامة ، وفنون التحرير الصحفى وتاريخها وأسسها وقواعدها خاصة ، وبالمثل
يمكن أن يتوصل إليها كل دارس ومهتم بهذه الفنون الأخيرة ، إذا مد بصره
نحو التراث الجاحظى ، وحاول ونجحت محاولته فى الاغتراف من معين فكره
وعلمه .

● لكننى بنفس القدر ، استبعد ان يوافقنى حتى على قليل مما جاء خلال الصفحات القادمة ٠٠ ولا اطمع فى ذلك ، رجل لم يعرف الجاحظ حق المعرفة ، ورجل لم يعرف الصحافة على نفس القدر ٠٠ أو اقل منه قليلا ٠

● ومن هنا فاننى وان كنت أقدم الدعوة الى كليات ومعاهد وأقسام الاعلام وعلوم الاتصال والصحافة بالعالم العربى ، من أجل العناية بدراسة امثال هذه الموضوعات وتدريسها أيضا لربط الماضى بالحاضر ومن أجل استلهاهم تجارب السلف وتتبع آثارهم ووضعها فى مكانها الصحيح ، فاننى أوجه كذلك الدعوة نفسها الى رجال اللغة العربية وأديها ، هؤلاء الذين اطمع فى عونهم واضافاتهم من أجل تأصيل عربى لقنون التحرير الصحفى ، ولاشك أنهم أكثر مئى قدرة على ذلك ، وأصبر عليه ، وأجدر به ٠٠ وكلانا هنا يكمل الآخر ، ولا يعارضه أو يسلبه حقه ٠٠

على أننى أقول أن هذا الكتاب ليس منتهى الأمل بالنسبة للتراث الجاحظى ، فهو ككل كتاب آخر لابد وأن تعتوره جوانب نقص هى من طابع البشر والكمال لله وحده سبحانه وتعالى ، ومن ثم فلنا عودة الى هذا التراث، من أكثر من زاوية أخرى ، بل لنا باذن الله عودة الى آخرين ، ننظر اليهم من نفس الزاوية أيضا ، حتى ان راح البعض يقول أننا جذبنا الأدب من شعره لنجعله صحافة ، ولوينا عنق الصحافة لنجعلها ادبا ٠٠ ول هؤلاء أقول ٠٠ طالعوا أولا ، ابحثوا وادرسوا الأدب والصحافة معا بفكر جديد ، محايد وموضوعى تعرفوا أننا نملك أيضا ادبا صحفيا جديرا بالبحث والدرس ٠٠ والتكريم ٠٠ والله من وراء القصد ٠

المؤلف

د ٠ محمود آدم

الفصل الأول

عن الصحافة
والصحافيين ..
والأدب الصحفي

- ١١ -

ان المدخل الطبيعي الى هذا الموضوع يمكن تحديده من خلال طرح أكثر من سؤال تتصل ببعضها فى مجموعها ، وتتشابك وتعود فتلتقى فى النهاية ، حول الغرض المحدد نفسه ، وهو اثبات أن لنا فى الجاحظ - نحن أرباب مهنة الصحافة بعضا مما لرجال الأدب وأضيف ، ومثل مجموع ما لرجال الدراسات الاسلامية واللغوية ، والفلسفية والعلمية فى تراث هذا الرجل ايضا ٠٠ بل ربما تفوق ما لنا فيه ، على ما لهؤلاء ، حتى ليمكننا أن نقاسمه نحن والأدباء سواء بسواء ٠٠

ذلك كله قبل أن ندل على مثلها ، بالأقوال والأفعال ، لمعاصريه ، أو لمعاصرنا ، أو من خلال مؤلفاته ومؤلفاتهم ، المعروف منها ، وغير المعروف ٠٠

فهل كان ما قدمه الجاحظ للمكتبة العربية هو من جنس مادة الأدب فقط ؟ أو كان أدبا فقط ؟ حتى يقال عنه ، كما عرف دائما ، انه أديب العربية الكبير ، أو الأكبر ، أو أنه يعتبر واحدا من أدبائها الأفاضل ٠٠ وأقول : من أدبائها فقط ؟

أم ان هذه الصفة الأدبية قد طغت عليه طغيانا ، والتصقت به التصاقا ، حتى كادت تذوب معها ، أو تنصهر فى بوتقتها أو تختفى فى ظلالها صفاته الأخرى العديدة وخصائصه الفريدة ، واتجاهاته الشمولية الواضحة ؟

مع أن هذه الصفات الأخرى ، وتلك الخصائص التى لازمتها وعرف بها ، وكانت علما عليه ، معروفة تماما ، وواضحة للعيان ، ولا تستطيع أن تتجاهلها عين الخبير بمجرد القاء النظر وأعمال الفكر فى هذا التراث الجاحظى نفسه ، المطبوع وغير المطبوع ، لا سيما عندما تنظر إليها هذه العين ، نظرة حياد كاملة ، بعد أن تضعها فى ضوء معطيات العلم ، التى تقرر ما لهذا العلم ، وما لغيره ، وبمراعاة الظروف السائدة ٠

أقول ٠٠ كان الجاحظ - بنتاجه وأثاره - أدبيا وصحفيًا وباحثًا وعالمًا ، بل وأقول أنه كان فيلسوفًا أيضًا ، كان كل هؤلاء معًا ، وكان أكثر من كل هؤلاء ، اجتمعوا جميعا فى شخصه ، واتفق اجتماعهم عليه ، وكانوا من مكوناته ، أو من معالم شموليته ٠٠

- ١٢ -

لكننا - بالطبع - لن نتناول على نفس القدر والمستوى الجوانب الأخيرة . من هذه المكونات ، بل سيكون تركيزنا أولا ، وبإحدى ذى بدء على تناول هذا الرجل ، من تلك الزاوية التي اجتمعت له على المستويين الأدبي والصحفي . أو الصحفي والأدبي ، وإن كنا نقول مقدما ونحاول أن نثبت ذلك خلال السطور القادمة ، أن هذه الجوانب الأخيرة نحبها ، جوانب التعدد في العلوم والمعارف بالقدر الذي جاءت عليه ، أو كان عليه صاحبها ، مما يثبت دعوى الجانب الصحفي عند الجاحظ .

بل اننى - فى هذا المجال - أذهب الى أبعد من ذلك فأقول اننى أزعـم هنا أن أحدا من الأدباء أو المفكرين ، أو الفلاسفة ، أو الكاتبيين ممن سبق الجاحظ بقليل من الحقب ، أو بكثير منها ، على المستوى العربى ، أو غيره ، عند المصريين القدماء ، أو أهل الساحل الفينيقي ، أو الاغريق أو الرومان أو الصين ، أو غيرها ، أزعـم أن أحدا من مفكرى هؤلاء الأقوام وفى حدود علمى . لم يسبق الجاحظ الى هذا القدر من « الشمولية » والى هذه الدرجة من « الموسوعية » . والى طريقتة وتعدد جوانبه .

فالبعض فى مصر القديمة . كان قصاصا ، يؤلف القصص الأسطورية أولا ، الذى انتقل من جيل الى جيل ، والبعض كان كاتب حكم ومواعظ ، يكتب ذلك اللون الذى يحدث على عمل الخير ، ويعض على مراعاة القيم والمبادئ ، والبعض الثالث كان شاعرا - ينتثور وأتباعه - والبعض الرابع كان اعلاميا اخباريا عمل على أن تكون الأهرامات وجدران المعابد والهياكل والمسجلات والمقابر ثم الأحجار والجلود صحفه التى تلاثم عصره والبعض الخامس كان رحالة يكتب مذكرات رحلاته ، هذا كله فى مصر القديمة ، أما فى بلاد فينيقيا فقد ساد أدب البحر وسادت أساطيره وأغانيه والوان « قولكلوره » . مع بعض القصص البحرية ، حقيقية أو خرافية ، وأما فى أمم الغرب القديمة ، فقد ساد الشعر ، خاصة شعر الملاحم ، والشعر التمثيلي ، والغنائى ، وسادت الخطابة ، وساد فن المسرح . وكان لكل رجاله الأفذاذ ، كانوا شعراء ، أو خطباء ، أو رجال أخبار فقط . ومثلهم كان عرب الجاهلية وصدر الاسلام . والا . فليدلى أحدكم على رجل آخر سبقه ، يكون من طرازه .

لا أعرف أن أحدا منهم قد اجتمعت له كل هذه الصنوف والقطوف ،

- ١٣ -

وقد دانت له كل هاتيك الثمار مثل رجلنا ، لماذا أذن لا نقول أنه أول الشموليين .
وأول « الموسوعيين » ؟

لكن الطابع الخاص الذى كان عليه ، وكتب به ، وأسلوبه فى التناول والأداء والكتابة وعلى الرغم من هذه الشمولية نفسها ، يجعل منه الأقرب مكانا الى اللون الصحفى ، بل يجعلنا نزعج بأن هذا الرجل قد سبق جميع أدياء عصره الى ذلك ، بل والسابقين عليه أيضا ومن ثم فانه يجوز اعتباره - استنادا الى ذلك - ومن زاوية زمنية تاريخية ، على أنه صحفى العربية الأول . وان كنت قد قدمت لذلك بهذه الكلمات التى تعنى عدم معرفتى بأحد ممن سبقه الى تلك المنزلة ، على مستوى الحضارات الأخرى ، فافنى أحد هنا ذلك ، تحديدا زمنيا وفنيا وتكفىنى هذه الإشارة الى هذا السبق الزمنى على المستوى العربى لأن حدود علمى قد لا تمتد الى أماكن العمق فى الآداب الأجنبية ، التى قد يكون هناك ممن كتبوا بلغات أخرى ، من هو سابق عليه فى هذه الخصائص كلها .

لكنه ، وهو من أزعج بريادته الصحفية على المستوى العربى ، لم يكن - بالطبع - صحفيا من هؤلاء الذين يقنعون من حصاد يومهم بخبر أو بخبرين أو بعشرة أخبار عادية أو روتينية أو رتيبة ، أو بزيارة الى موقع عمله وقضاء لبعض الوقت ثم نقل لبعض الأخبار السهلة ، أو ما أطلقت عليه وأنا انتقد بعضها « أخبار اليد الأولى » أو « الأخبار الجبرائية » التى يراها الجميع عند مدخل المكان ، أو « معلقة » على لوحة الاعلانات ، أو تلك التى لا يبدل من ورائها جهد ما فى سبيل الحصول عليها ، كذلك فلم يكن هو ذلك الذى يتبع الطريق السهل ، أو يعيش حياته على خبطة أو أكثر أو يكتفى ببضعة مقالات هنا أو هناك ، أو ينتظر حتى تصل اليه المصادر ، أو تصله الثثرة الصحفية حتى باب مكتبه ، أو يتوقف عند حد تقديم ما حصل عليه دون تفكير أو تعليق أو شرح أو تقديم لما وراء الأخبار وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد ، فى الزمن الماضى والحاضر والمستقبل . . وغيرها وغيرها .

كان الجاحظ صحفيا ، بمفهوم عصره ، وبما نعتيه الآن عندما نقول « الكاتب الصحفى » بكل ما تمتد اليه الكلمة من أبعاد وأطراف ، وما يتصل بها من جوانب وما توحى من ظلال أيضا ، كان من طبقة المحررين الشموليين الموسوعيين الذين نعتهم عندما نقول أن فلانا هو محرر صحيفة « كذا » أو مجلة « كيت » . . انه هنا ليس المحرر العادى ، وانما كبير المحررين ، وربما

رئيس التحرير نفسه ، وربما يكون أكبر من رئيس التحرير نفسه ، بمصابرة وثقافته واتصالاته ونفوذه ، وقبلها جميعا ، بقلمه ومستوى كتابته هكذا كان ، ولم يكن مثل من ذكرت من المخبرين أو المندوبين ، أو العسائدين من الكتائين ، لكن من هم هؤلاء ؟ وما هي « مواصفاتهم » أو « خصائصهم » ؟

عن الأدب

وعن الصحافة

ان كنا نحاول في هذه السطور ان نقول بأن الرجل كان للأدب والصحافة معا أو كما قلنا في كتاب سابق لنا من أنه كان ممثلا صادقا لطلّاح هؤلاء الرجال الذين كان « تصفهم للأدب ، وتصفهم للصحافة » ٠٠ أكثر مما كانوا لغيرهما ، أو للمعارف الأخرى ، فان الاتجاه الطبيعي لمسيرة هذه الكلمات أن نعرف أولا بهذين ، الأدب والصحافة معا ، لكننا بطبيعة الحال ، لن نتوقف كثيرا عند التعريف بالأدب ، أو بفنونه ، فذلك ليس هدفنا ، الا ما يتصل منها بما نريد بيانه وجلاء ما يقترب منه أو يقر به من موضوعنا ، تماما كما أن الغاية ليست هي اثبات أن « الجاحظ » كان انبيا ، أو كان أكبر أدباء العربية ، وانما هي اثبات أن للرجل جوانبه الصحفية ، وانتاجه المتصل بصاحبة الجلالة واشكال فنه المتزجة بفنون تحريرها ، وحتى أكثرها « معاصرة » أو « حديثة » بل وأسلوبه ، الذي كان أقرب أساليب عصره ، وأساليب عصور أخرى بعده إلى « الأسلوب الصحفي » نفسه .

ومن ثم يكون توقفنا الأساسي عند الفن الآخر ، الفن الصحفي ، مع تركيز شديد على هذين الجانبين معا ، جانب الصحافة ، وجانب الصحافي .

لكن ، لأن الصحافة ضرب من الفن ، ولها « إبداعها » أو جوانب الإبداع فيها ، فكرا وبحثا وتنفيذا وتحريراً وتصويراً وإخراجاً ، فهي من هذه الزاوية الأخيرة « الفنية » التي نتحدث بالفكر الصحفي الملهم وعنه ، تأخذ كثيراً من « معالم الأدب » ، ويشتركان معا في هذا الجانب الفني ، فكما أن الأدب فن ، فالصحافة فن أيضا ، ومن ثم يكون توقفنا - مرة رابعة - وبعد تعريف الأدب والصحافة والصحفي ، عند رؤيتنا الخاصة لهذا المزيج الإبداعي المركبة ألوانه ، المختلفة حدوده والذي كنا من أوائل من أطلق عليه تعبير « الأدب الصحفي » ٠٠ والذي نرى أن الرجل كان فارسه الأول ، وبلا جدال ٠٠

- ١٥ -

وهكذا نرى صفة جديدة أخرى ، تضاف الى صفاته ، لكنها ليست جميعها بالطبع وإنما هي بعض ما أطلق عليه فقط ٠٠ ما أطلقه غيرنا ، وما أطلقناه ، أو ربطنا بين الرجل وبينه ٠٠

لكن لنترك هذه الصفات والخصائص الجاهلية ، الى بيان هذه التعريفات ، نفسها ٠٠ تعريفات الأدب أولا ، ثم تعريفات الأديب ثانيا بما يتصل بهما من معالم وخصائص ٠

● عن ماهية الأدب نقوم بالقاء نظرة الطائر ، على عدة تعريفات ، لنرى ما الذي يمكن أن نستخلصه في نهايتها مما يتصل بموضوعنا ؟ وذلك على الرغم من كثرة وتعارض المفسرين للأدب ، الكلمة والمطلوب معا ٠٠

— فمن بين التعريفات قول بعض المؤلفين : « كلمة أدب هي اللغة العربية مأخوذة من أدب العقل والخلق اذا هذبهما وثقفهما ، ومن تعاريف الأدب أنه من الفنون الرفيعة التي تصاغ فيه المعاني في قوالب من اللغة ، وفيه متعة وله سحر قوي في النفوس » (١) ٠

— ويقول باحث مجتهد : « الأدب — في رأيي — هو التأثير وكل تأثير يحدث عن طريق اللغة هو أدب ، وهناك صلة بين الأديب والقارئ ، فالأديب مؤثر والقارئ متأثر والأدب هو ذلك التأثير الذي ينتقل من الأديب الى القارئ » (٢) ٠

— وتتداخل بعض مفاهيم « البلاغة » مع مفاهيم الأدب ، عند عدد من المفكرين والمؤلفين ، مما يفيد قضيتنا ، ننكر من بينهم على سبيل المثال قول القائل : ٠٠٠ « ولعل خير تعريف يفصح عن معنى البلاغة وأهدافها قول أبي الهلال العسكري : البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع ، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن ٠٠ فهذا التعريف الواضح المفهوم هو لب البلاغة ، ولب البيان ، وهو يتسق تمام الاتساق مع مفهوم الأدب ، وهو في الوقت نفسه يشير اشارة صريحة الى عنصرى الأدب : الفكرة والصورة ، واطارة صريحة كذلك الى هدف الأدب وغايته ، وهو التأثير في نفس القارئ أو السامع أو نقل مشاعر الأديب واجساساته

- ١٦ -

وعواطفه وانفعالاته الى مستقبل عمله الأدبي لتتمكن في نفسه تمكنها في نفس الأنيب » (٢) .

— ويقول أستاذ في النقد والأدب المقارن بعد أن يشير الى اختلاف الباحثين في تحديد تعريف أنموذجي للأدب ، وطويل جدالهم حول هذه النقطة : « ولكن -حكما يكن بينهما- من اختلاف فهم لا يمارون في توافر عنصرين في كل ما يصح أن نطلق عليه أدبا ، هما : الفكرة وقالبها الفني ، أو المسادة والصيغة التي تصاغ فيها ، وهذان العنصران يتمثلان في جميع صور الانتاج الأدبي : سواء أكان تصويرا لاجساسات الشاعر وخلقاته نفسه تجاه عظمة الكون وما فيه من جمال وأسرار ، وحيال الام الانسانية وأمالها ، أم كان تعبيراً عن أفكار الكاتب في الانسان والمجتمع وسواء كان ذلك الانتاج الأدبي رسالة أو مقالة أو مسرحية أو قصة ... » (٤) .

● وهناك تعريفات عديدة أخرى للأدب ، الفن والعلم معا ، تجرى على الألسنة ، وتتداولها الأقلام ومن بينها :

— الأدب هو الشعر والنثر بأنواعهما .
— جيد الكلام ، كثير المعاني ، منظوما أو منظورا .

— ما يكتبه القصاص أو الشاعر أو الكاتب المسرحي أو مؤلف الأغنية أو كاتب المقال متوجها به الى القراء والمستمعين والمشاهدين ليحقق أثرا ما في ذواتهم أو قلوبهم أو عقولهم أو هذه كلها معا وبدرجات متفاوتة من التأثير تتناسب وقيمة العمل الأدبي ذاته .

— الكتابة الفنية على أية صورة من صورها أو شكل من أشكالها .
— ما يعجز به الأديب بواسطة الكلمات المنتقاة ، عن أفكاره وأحاسيسه ومشاعره ، خطبا أو نثرا .

.. ومن متكرر القول إن نذكر أن الكلمة — كلمة الأدب — في اللغات الأوروبية والتي تعني « Literature » مشتقة من الكلمة اللاتينية القيمة Literaratus حيث نقرب من معنى الحرف الطباعي ، أو حروف جمع المادة أو كما نقول في علم الاخراج أو الطباعة « الطباعة البارزة »

- ١٧ -

« Letter press » ونحو ذلك كله ٠٠ دون أن ننكر احتمالات ما ذهب إليه تفكيرنا مما يتصل بالصلة التي يمكن أن تقوم بين التعبير Letter وبين أدب الرسائل ، أو الرسائل الأدبية العربية ٠٠

● ● ان هذه التعريفات كلها تعنى - فى رأينا - ومن زاوية هذا الكتاب نفسه :

— ان الرجل - بداهة - كان أدبيا كبيرا ، بل كان أدبيا مانموذجيا ، بل لعلنا لا نبعد عن الواقع كثيرا عندما نقول انه كان أديب العربية الاكبر ، وذلك بصفة عامّة وإذا تفاضينا عن بعض من يقول أن الأدب هو شعر ونثر فقط ، وأن الأديب - قياسا على ذلك - هو الشاعر أو الناثر وحدهما ، الرجل هنا أديب بالمعنى الشمولى الذى تؤكد كتاباته المتعددة التى تجسّد بين طابع البحث والاصطفاء والفكر المتميز وحسن التناول والتعبير وتقديم الصور والمشاهد المتعددة فى تلك القوالب من الصياغة التى يعرفها له النقاد ومؤرخو الأدب ، تماما كما أن ما تحدث عنه الرجل ، ومن تحدث عنهم ، ثم هذه الأفكار والمعاني العديدة التى عبر عنها فى أسلوب جميل ، سهل ، واضح ، له حلّوته وله طلاوته وان لم يعهده الناس فى عهده ، الى غير ذلك كله مما تعود اليه فى حينه باذن الله ٠٠ فذلك هو ما نستطيع أن نقوله فى هذه العجالة ، عن الرجل الأديب ، وهل مثله فى حاجة الى اثبات ذلك ؟ ٠٠ وان كانت عودتنا اليه قائمة ، لنصل بين هذا الوجه الاول للصورة ، وبين وجهها الآخر ، الصورة الجاحظية نفسها ٠

● لننتقل الآن الى الوجه الآخر من الورقة ، أقصد الى تعريفات الصحافة نفسها ، لكننا قبل هذه التعريفات نشير الى اللفظ نفسه كما جاء فى : القرآن الكريم أولا ، والمعاجم اللغوية وبعض كتب الاسماء ثانيا ٠

● الصحف فى القرآن الكريم :

أما عن ورود الكلمة فى كتاب الله تعالى ، فقد وردت على صفحاته الطاهرة ثمانى مرات جمعا ، وكان ورودها على هذا النحو وحسب ترتيب الآيات والسور :

(الجاحظ)

١٠ - « وقالوا لولا يأتينا بأية من ربه ٠٠ أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى » سورة طه ١٣٢ .

٢ - « أولم ينبأ بما فى صحف موسى » سورة النجم ٢٢ .

٣ - « بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفاً متشرة » المدثر ٥٢ .

٤ - « ٠٠٠ فى صحف مكرمة » عبس ١٢ .

٥ - « ٠٠ وإذا الصحف نشرت » التكويز ١٠ .

٦ - « ان هذا لفى الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى ، الأعلى ١٨ ، ١٩ ،

٧ - « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » البينة ٢ .

● الصحف فى المعاجم والقواميس والمؤلفات العربية :

ونكتفى هنا بالإشارة الى عدد من هذه المصادر ، لأن ذكر الصحف والصحافة فى واقع الأمر ، يجلب عن الحصر ٠٠ ان من بينها مثلاً :

— ان من بين الذين أشاروا اليها على سبيل المثال لا الحصر العلامة ابو الفضل جمال الدين محمد بن منظور فى موسوعته اللغوية : لسان العرب فالصحيفة عنده « الورقة التى يكتب فيها » .

— وعند الفيروزبى صاحب « القاموس المحيط » ٠٠ « الصحيفة هى الكتاب وجمعها صحائف وصحف » .

— وقد فصل ذلك ابو الحسن على بن اسماعيل النحوى المشهور بـ « ابن سيده » فى المجلد الرابع من « المخصص » ٠٠ فنقل عن صاحب العين — الفراهيدى — قوله : « الصحيفة : التى يكتب فيها ، والجمع صحائف وصحف ، وفى التنزيل : صحف ابراهيم وموسى ، يعنى الكتب المنزلة عليهما ، والمصحف : الجامع للمصحف المكتوبة بين الدفتين كأنه اصحف أى جمعت فيه الصحف ، والصحف والصحفى الذى يروى الخطأ على قراءة الصحف باشتباه الحروف » (٥) .

— ٠٠ وأما عن المؤلفات العربية ، فذلك طرف من رؤيتها للصحافة :

- ١٩ -

— ان أحد الباحثين ينقل قول شوبنهاور الطريف : « الصحافة عقرب الثوان للاحداث العالمية » (٦) .

— وان أحد أساتذة الصحافة يقول : « الصحيفة هي مطبوع نوري ينشر الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والتقنية ... الخ ، ويشرحها ويعلق عليها » (٧) .

— وينقل المؤلف نفسه في كتاب سابق له ، عن « الفيكونت فيليب دى طرازى » صاحب: « تاريخ الصحافة العربية » قوله الذى اشتهر بعد ذلك « أول من استعمل كلمة الصحافة بمعناها الحالى - أى الاصطلاحى - كان الشيخ نجيب الحداد منشئ جريدة لسان العرب بالاسكندرية ، ويعرف الصحافة بأنها صناعة الصحف والصحف جمع صحيفة وهى قرطاس مكتوب والصحافيون القوم الذين ينتسبون اليها ويعملون بها » (٨) .

— ويقول مؤلف آخر : « الصحافة مهنة البحث عن الحقائق ونشرها بطريقة رشيدة تنفع المجتمع وتنميته » (٩) .

— وبعد اشارات عديدة الى الدور الصحفى القديم والحالى تقول مؤلفة مجتهدة : « ... ويمكن أن نعرف الصحافة فى هذا الوضع بأنها صوت الشعب للشعب ، وهو تعريف فى بساطته يرادف معنى الديمقراطية فى حكم الشعب - الصوت الذى تتمثل فيه ارادة الشعب ورغبته وطموحه وآماله ، الصوت الذى تلتقى به ارادة الحاكم وارادة المحكومين على طريق العمل والحياة والصوت الذى يعلن الحقائق صريحة - يشمل الشعب بجميع طوائفه وهيئاته ويربط الشعب بمصالحه ومواقع عمله وطريق حياته » (١٠)

● تلك هى - باختصار شديد - طائفة من أشهر تعريفات هذه المصادر كلها للصحافة ، قبل أن نتوقف عندها لنرى « مصداقية » انتساب « الجاحظ » اليها ، وجدارته بهذا الانتساب ، ودخوله بفكره وكتاباتة الى عالمها الفسيح ، ومن أكثر أبوابه اتساعا ، وحتى من خلال هذه التعريفات الحديثة ، وجميعها معاصرة ، نقول ان هذه التعريفات كلها تتجه وتركز على :

— الصحف بنوعها « جرائد ومجلات » ،

— الجرائد اليومية أولا •

وصحيح أن « رجلنا » ينتسب الى الصحافة وفق بعض أساسيات ومعالـم وزوايا هذه التعريفات مجتمعة ، وليس تعريفا واحدا منها دون غيره ، ينتسب اليها بمعنيها ، أو باتجاهها الى جانبى الصحف والمجلات معا ••

لكننا من خلال تجربتنا الصحفية ، ودراساتنا التى سبق القيام بها ، ما طبع منها وما لم يطبع ، نعود فنستدرك ، ونقول ، أن « التراث الجاحظى » بكل عرويته وأصالته وإبداعه وفنه ، يكاد يكون أقرب الى طابع المجلة ، والى طابع الصحيفة الأسبوعية ، منه الى طابع الصحيفة اليومية ، تماما كما أن الرجل نفسه ، بفكره وتوجهاته ، وغزواته لأكثر من موقع ، يكاد يكون أقرب الى طابع « محررى وكتاب المجلات » قبل محررى وكتاب الجرائم اليومية ••

الا يعنى ذلك ، ونحن نتحدث عن الجاحظ ، أنه يجب التوقف مرة أخرى، عند تعريفات « المجلة » •• تلك التى كان ارتباطه بها فكرا وكتابة ، شديدا ، وأكثر بروزا من ارتباطه بالصحف فى أشكالها اليومية ؟ •

ولن نجهد أنفسنا كثيرا هذه المرة ، بل سنكتفى بنقل عدد من التعريفات التى وردت بدراساتنا السابقة عن المجلة ، من تلك العربية أو غير العربية ، أن المجلة هى :

— « مطبوع دورى مصور أو غير مصور يحوى موضوعات متنوعة » (١١) •

— « مطبوع دورى يتضمن كتابات لمؤلفين مختلفين غالبا يصدر مصورا وبه عدد من الاعلانات » (١٢) •

— « المجلة كلمة اصطلاحية تعنى دورية تتناول معارف ومعلومات متنوعة عن جانب أو جوانب من الحياة — إحدى الوسائل الهامة للاتصال بال جماهير — تأخذ من الكتاب حجمه ومن الصحيفة تنوع مادتها ومجاراتها هذه المادة لجوانب الحياة وسرعة حدوثها — وكلمة مجلة فى اللغة العربية تعنى قائمة بمجموعة من المعارف وجمعها مجلات أو مجال ، ومعنى الكلمة باللغة

الانجليزية Review تعنى اعادة النظر فى شيء ما أو معاينة شيء ما واستعراضه « (١٣) »

— « مجموعة الصفحات العديدة المطبوعة بطريقة ما ، ذات الحجم الواحد ، الصغير أو المتوسط أو الكبير المثبتة ببعضها رأسيا ومن جانب واحد ، والتي تمثل وحدة من كل متتابع من مجموع له شخصيته ، يحيط بها غلاف فنى دال وملائم من ورق أكثر سمكا ، تصدر دوريا بثبات أسبوعية غالبا أو شهرية أو نصف شهرية أحيانا أو فصلية أو سنوية أو غير ذلك بمعرفة مالك أو جماعة أو هيئة أو شركة مساهمة أو مؤسسة ، مقدمة لجمهورها المتوقع العام و الخاص ، وفق امكانياتها وبما يتفق مع سياستها التحريرية وبأسلوبها الخاص ، الاخبار والموضوعات والقصص والاحاديث والدراسات والتقارير والماجريات والمقالات والمذكرات والحملات الصحفية ، أو مثيلاتها من فروع الفكر والعلم المتخصص ، مؤيدة بالصور والرسوم المختلفة وقطع الامتاع ومواد الربط والاستكمال ، بهدف اعلام القراء وتوعيتهم وتنقيفهم وتعليمهم ومؤانستهم وتنمية مجتمعاتهم وتحقيق الربح للناشرين والعاملين ، وقد تكون فى أشكال ومضامين أخرى ، تتوجه الى جمهور خاص ومحدود ، « (١٤) »

● وإذا كانت التعريفات السابقة فى مجموعها تتجه الى « الوسائل أو « الأدوات » أو « الوسائط » ، وهى هنا الاعلامية الصحفية المطبوعة ، وإذا كان بعضها يتجه الى العمل الصحفى نفسه ، أو بعض جوانبها — بطريقة مباشرة ، فان الصورة تكتمل — حتما — وتكون أكثر وضوحا ، وأقرب الى الفهم ، بتفاصيلها المختلفة — صورة الجاحظ الأديب الصحفى المجلاتى معا — أو صورة الجاحظ الأديب المحرر ، أو صورة الجاحظ الكاتب الصحفى .. جميعها تكون الى الجلاء أقرب ، عندما نتوقف مرة أخرى ، عند تعريفات أرباب هذه المهنة ، أو هذا الفن ، فما الذى يقال عن « الصحفى » .. والذى هو مفتاح هذا العمل ، ولا صحافة بغير صحافيين ، تماما كما أنه لا أدب بغير أدباء ؟

اننا هنا نقدم تقسيما جديدا ، قد يكون الى طابع العمل اقرب ، وبتصويره أكثر جدارة ، فلن تلجأ هذه المرة الى المعاجم والمراجع ودوائر المعارف وحدها ، وانما الى بعض « ما جرى » على الألسن ، وأصبح دليلا على العمل الصحفى ، كله أو بعضه .

● أما هذا النوع الأول من التعريفات التى تناولت الصحفي ،
باسلوب مباشر أو غير مباشر أيضا ، فهى تلك التى قالت ، أو قال أصحابها
عنه :

فبعيدا عن المعاجم اللغوية التى تكاد تجمع على أن « الصحفي » بفتح
الصاد والحاء ، هو من يخطئ قراءة الصحيفة - بمعنى الصفحة أو الورقة
من كتاب - أى ذلك الذى « يصحف » ، فى قراءته .. بعيدا عن ذلك نجد
تعريفات كثيرة من بينها :

— ان استاذة فى الصحافة تعرفه بقولها باختصار شديد انه « كل
من يتخذ من الصحافة مهنة » (١٥) .

— وقد مر بنا قول المؤرخ دى طراوى : « والصحافيون القوم الذين
ينتسبون اليها - أى الى الصحافة - ويعملون فيها » .

— ويعرف القانون رقم ٧٦ لسنة ١٩٧٠ - والخاص بإنشاء نقابة
الصحفيين - الصحفي بقوله :

« مادة ٦ - يعتبر صحفيا مشتغلا :

(١) من باشر بصفة أساسية ومنتظمة مهنة الصحافة فى صحيفة يومية
أو دورية تطبع فى الجمهورية العربية المتحدة أو وكالة أنباء مصرية أو أجنبية
تعمل فيها ، وكان يتقاضى عن ذلك أجرا ثابتا بشرط ألا يباشر مهنة أخرى » .

● لكن هناك بعض ما لم يقله هؤلاء فى مجال التعريف ، وإنما
جاءت كلماته عرضا ، بين سطورهم ، أو جاء بين سطور أخرى ، أو جرى
على الألسن ، لكنه لا يبعد عن واقع الصحفي ، وعمله ، وفكره وأساليب
وأنماط ذلك العمل ، وذلك الفكر كثيرا ، بل جاء بعضها أكثر صدقا ، ودلالة
من تعريفات « مرجعية » كثيرة .. أى أن هناك - ومما يرتبط بهذه الفئة
الأخيرة من التعريفات نفسها - ما هو أكثر ارتباطا بموضوعنا ، وأكثر تعبيراً
عن « صاحبنا » بشمولية فكره وتوجهاته ، نقصع عنها بعد قليل ، أو فى

- ٢٢ -

حينها ٠٠ ونكتفى الآن ببيان « قلة » من هذه الأقوال ٠٠ ان الصحفي أيضا هو :

- الرجل المكون من عدة رجال ٠
- الرجل الذي يجمع من كل بستان زهرة ، ومن كل بحر قطرة ٠
- رجل « التخصص العام » ٠
- نتاج عصره ومراة بيئته ٠
- صورة عصره بكل صدق ونزاهة وتجرد ٠
- نبض أمته ٠
- كتاب عصره ٠
- شاهد على عصره بمن فيه وما فيه ٠

الى غير هذه كلها من تعريفات « اجرائية » او « معملية » غير مباشرة ، نتوقف لمناقشتها ، مع غيرها من تعريفات واقتوال سابقة ولاحقة ، بعد قليل ، لنقرر أين تقف من موضوعنا ؟ وأين يقف الرجل منها ؟

عن الأدب الصحفي

● وتبقى بعد ذلك كلمة قصيرة عما أطلقنا عليه تعبير « الأدب الصحفي » ، ٠٠ ، فبالإضافة الى الكلمات القليلة التي وردت ضمن السطور السابقة عنه ، فإننا نحدد هنا بعضا مما يمكن ويجوز أيضا اعتباره من بين ملامح هذا النتاج الصحفي المتميز ٠

— فالبحث عن الأخبار يكون له طابعه ، وعملية البحث والانتقاء تكون مجالا لاستخدام المواهب المتميزة ، بطرقها وأساليبها التي لا تخلو عند بعضهم وليس عند الجميع - من الهام وابتكار ٠

● وإذا كان تحرير التوقيعات القصيرة ، أو « الرقع » أو « الوصايا » أو « الحكم والأمثال » يعتبر ضربا من الأدب ، فان مثله هنا - على المستوى الصحفي - يعتبر تحرير العناوانات بأنواعها (المفتاحية الاشارية والرئيسية والفرعية وعناوانات الفقرات) ٠

● ثم ان بلاغة الأسلوب الأدبي ، تصدق هنا ايضا ، فى مجال كثير من وحدات « النص التحريرى الصحفى » ٠٠

أو ليست البلاغة هى وكما قال نفر من علمائها - بالاضافة الى ما سبقت الاشارة اليه - ٠٠

« لمحة دالة - اختيار الكلام وتصحيح الأقسام - وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة - القوة على البيان مع حسن النظام - اهداء المعنى الى القلب فى أحسن صورة من اللفظ » ٠٠٠ الخ .

نحن أيضا نقول بذلك عندما نتناول « الأسلوب الصحفى » خاصة فى مجال تحرير هذه « الوحدات الفنية السابقة » ٠٠ العنوانات ، وكذا « المقدمات » و « النهايات » بأنواعها تماما كما أنه اذا كان لابد من الاختصار والتركيز عند كتابة بعض « النصوص الأدبية » ، أو « الاسهاب » عند كتابة البعض الآخر منها ، فاننا نتبع ذلك أيضا فى بعض « النصوص التحريرية الصحفية » ٠٠ « فالأخبار الصغيرة » قليلة العبارات ، قليلة عدد الكلمات « تلغرافية » الأسلوب ، موضوعية ٠٠ عملية ٠٠ وظيفية اللغة ، ومثلها تقريبا والى حد ما « الأخبار المتوسطة » ٠٠ والأعمدة ، أو مقالات الأعمدة (نتحدث هنا عن فنون وأنماط ولا نتحدث عن وحدات تحريرية فقط) ٠٠ ومثلها كذلك بعض الموضوعات الاخبارية وكلام الصور والتعليقات القصيرة وما يجرى تركيزه أو « ضغطه » ٠٠ وذلك فن أيضا ، من تناولات ومترجمات وخطابات للقراء ومقالات مسهبة لقراء لا يحتملها الحيز المتاح ٠٠

ذلك كله عن القليل الذى يدل على الكثير ٠٠ وأما الاسهاب فى موضعه فهناك ضروب الاسهاب الصحفى العديدة ، لو كان الأمر يتطلب ذلك ، أو كانت المساحة المتاحة من فراغ الصفحات تتطلبه أو تسمح به ، أو كان الوقت المتاح يعين عليه ٠٠ ولا يقتصر الأمر هنا على التقارير والتحقيقات والحمولات والدراسات والمجريات ، تلك التى تنشر أحيانا على أكثر من صفحة واحدة ، من الصحيفة اليومية العادية ، وعلى ملزمة كاملة - ١٦ صفحة - من المجلة ، أو تكون فى حلقات يستمر نشرها يوميا أو اسبوعيا على صفحة أو أكثر ، لعدة أيام أو لعدة أسابيع ، بالنسبة للصحف اليومية أو الأسبوعية ، أو

صحافة المجلة ، أضف الى ذلك بعض المترجمات والمقالات التحليلية والخطب وما اليها ٠٠

أقول ، لا يقتصر الأمر على ذلك كله ، وإنما يمتد أيضا ، حتى الى هذه الأخبار الصغيرة وربما الصغيرة جدا ، والمركزة ، فإن بعضها يمكن أن يكون مختصرا لخبر كبير تم « ضغطه » أو نشر على حالته فى طبعة ما ، لأنه مما يهم قراء منطقة معينة ، بكل تفصيلاته وأركانه وزواياه ، ثم نشر « مضغوطا » فى طبعة أخرى لا يهتم قارئها بغير المعرفة السريعة به ، وهكذا ٠

وباستطاعة القائمين على أمر صحيفة تصدر فى عشر صفحات مثلا ، أن يسهبوا وأن يضيقوا حتى تكون فى أكثر من ضعف لهذا العدد ٠

— ومثلما يبدع الأديب فى اختياره لفكرة مقالته الأدبية ، أو صورته القلمية ، أو انتقاء أشخاص قصته ، أو نماذج مسرحيته ، فإن أبداعا مماثلا يقوم به الصحفى الممارس والخبير — وليس أى صحفى — من أجل العثور على الفكرة المناسبة ، الجديدة ، الطازجة التى لم يسبق اليها أحد ، أو العثور على الزاوية الجديدة التى يتناول من خلالها الفكرة القديمة أو المطروقة ٠٠ وعندما يعثر المحرر على مثل هذه الفكرة ، فإنه يحق لنا أن نقول انها تدخل ضمن باب « الأدب الصحفى » ٠

● وبعض الموضوعات والتقارير وكثرة من التحقيقات وأغلب المقالات ، وبعض جوانب القصص الصحفية ، والأحاديث ، هذه كلها يمكن أن يتدخل « الإبداع » فيها ، ويلعب « الإلهام » دوره فى مساراتها من أول الاختيار ، حتى كتابة آخر حرف فيها ، بل وحتى اختيار الوقت الأمثل لنشرها ، أو أكثر الأوقات مناسبة لذلك العمل ٠

● ثم يبدو « الأدب الصحفى » بعد ذلك كله ، وربما أهم من ذلك كله وقبله ، فى تلك الأمور المتصلة بجوانب التحرير نفسها ، فضلا عما يتصل بالاختصار والتركيز فى موضعها وهو أدب ، أو الاسهاب فى موضعه ، وهو ادب أيضا ، فإن هذا اللون من الأدب الصحفى يتجلى هذه المرة فى أكثر من صورة من بينها على سبيل المثال :

● الإبداع فى اختيار أفكار العنونات والمقدمات والنهايات .

● جانب « الحس الصحفى الفنى » فى اختيار العنوان والمقدمة والنهاية التى تكون أكثر مناسبة لموضوعاتها من أنواع هذه الوحدات المختلفة .

● وبالمثل يكون « الأدب الصحفى » متمثلاً فى حسن ودقة ونجاح اختيار القالب الفنى الأكثر ملاءمة لصياغة مادة تحريرية أو أخرى ، ان كان لابد من استخدامها .

● ثم هو يتمثل أكثر فيما تقدمه المواهب من أنواع عنونات ومقدمات ونصوص ونهايات جديدة ، ابتكارية ، غير مسبوقة ، أو قليلة أو نادرة الاستخدام ، أطلق عليها بعضهم - فى مجال قوالب الصياغة فقط - تعبير : « القوالب غير الفنية » لأنها تخرج عن المألوف استخدام من جانب كثرة من المحررين ، وأقول أنها الأكثر قنا والأكثر إبداعاً .

● ثم هناك بعض « الفنون » و « الأنماط » الصحفية الكاملة ، التى تحتاج مع تتابعها أو مع تتابع تحريرها من أن لآخر ، ومن يوم الى يوم ، تحتاج الى قدر غير قليل من الذوق الأدبى ، والحس الأدبى ، . . . وهكذا فإذا كنا قد اشرنا الى أن ما نطلق عليه فى مؤلفاتنا « الوحدات الفنية التحريرية » تحتاج الى جانب من جوانب الإبداع - كوحداث فقط - بينما نشترط الفكرة الجديدة أو التناول الجديد للفكرة بالنسبة لبعض الفنون والأنماط لاسيما الموضوعات والتحقيقات والتقارير والمقالات الصحفية . . . فان بعض الموضوعات والتحقيقات والصور القلمية الصحفية والتقارير المصورة تأخذ بقدر طيب ومعقول من هذه « اللمسة » الأدبية الفنية الصحفية معا ، كل ذلك بينما نجد - مع تتابع الأعمدة ومقالات الخواطر والتأملات ومقالات الفقرات أو اليوميات الصحفية - نجد بعضاً منها مما تزيد فيه الجرعة الأدبية ذاتها ، عن الجرعة الصحفية ذاتها ، ومن ثم تمثل - بذلك كله - هذا الأدب الصحفى الذى نتحدث عنه . . .

ولعله مما يثبت صحة ذلك ، أن كاتب هذه النوعية الأخيرة ، أو محررها ، يكون فى بعض الأحيان من هؤلاء الذين دخلوا الصحافة من باب الأدب ، أو دخلوا الأدب من باب الصحافة ، فهم من الصحفيين الأدباء ، أو هم من

الأدباء الصحفيين ، وحيث نجد أنفسنا أمام طائفة جاحظية جديدة ، تمت الى رجلنا ، أو تمت المادة التي تكتبها بصلات عديدة وعلى الرغم من « معاصرتها » ، الى المادة الجاحظية ، أو الى التراث الجاحظي ، بكل أصالته ، وتنوعه ، وتعدد مجالاته ، وأساليب بلاغته .

● حتى الصورة نفسها التي يمكن أن تصاحب كل ذلك ، وهى هنا الصورة الصحفية الملتقطة بواسطة الكاميرا - هى ، وكما أطلق عليها عدد من رجالها ٠٠ « أدب بصرى » ٠٠ نسبة الى البصر هنا وليس الى مدينة البصرة ، التي سيرد ذكرها خلال الصفحات القادمة لكن ما يتبعها فى أحيان كثيرة ، أو يشرحها أو يضيف اليها ، أو يتناولها أو يعلق عليها يمكن أيضا أن يقترب من هذا الأدب الصحفى ، عند بعض المحررين الحريصين على التفرد وعلى الامتياز وهكذا .

● وهكذا نجد صورا ولسات من هذا الأدب الصحفى ، تلك التي تتجه الى معالم الابداع فى جانبين أساسيين هما :

(١) ما يتصل بالفن الصحفى فى مجموعه عامة ، وجوانب فن التحرير خاصة .

(ب) ما يتصل بتلك الوحدات أو الأجزاء أو القوالب ، أو الأنماط الكاملة التي يضيف عليها محررها قدرا من الأدب والذوق الأدبى ، قل أو كثر ، ويقدمه ممتزجا بالحس الصحفى والذوق الصحفى ٠٠

من هذا المزيج المتكامل من المادة الصحفية ذات المضمون الموضوعى المرتبط بالواقع الحدثى ، أو المتصل به أو المتفرع عنه ، بطريقة من الطرق ، أو بشكل من الأشكال واللمسة أو الجرعة الأدبية التي تغلفها أو تسمى فى جنباتها وبين سطورها وكلماتها ٠٠ يتكون هذا « الأدب الصحفى » ٠٠ الذى أطلق عليه بعضهم تعبير « الأدب الموضوعى » ونرى أنه يشمل ذلك الأدب الصحفى وغيره ، ومن ثم فانه عندنا ، أدب صحفى ٠٠ لأنه لا يركز على جوانب ذاتية ، قدر تركيزه على جوانب موضوعية وواقعية ومجتمعية .

● قبل أن نضع هذه الأفكار السابقة كلها فى ضوء التناول الخاص

- ٢٨ -

من زاوية صلتها بموضوع التراث الجاحظي ، نتوقف برهة لنقدم تبسيطا وتلخيصا لها ، لعله يكون أكثر مدعاة لتوضيح ما نريد ، وما نحرص على وضوحه .

ان باستطاعتنا أن نقول ، أن هذه التعريفات السابقة في مجموعها ، ما ذكر منها عن الصحف ، وما قيل فيها عن المجلات ، وما اُشار في كلماتها الى « العامل البشري » يمكن أن نوجزها ، وأن نستنتج منها أيضا ، هذه النقاط كلها :

(١) من حيث الصحيفة ومادتها (المحتوى التحريري) :

ان الصحيفة اليومية أو الأسبوعية ، هي تلك الأوراق المطبوعة التي تحمل الى الناس يوميا ، أو بصورها في أكثر من طبعة واحدة يومية ، أو أسبوعية ، وبمعرفة أعضاء أسرة تحريرها وبأقلامهم ، ويعتصم مصورها ، وبجهد الفنيين والعمال بها ، ما ينبغي أن تحمله الى هؤلاء من تسجيل للأحداث المهمة ونقل الوقائع والتفاصيل المرتبطة بها وتقديم المعلومات والبيانات المفيدة وثبت ظواهر الأنشطة والمشكلات وعرض وتفسير ومناقشة الأقوال والتصريحات والأفكار والآراء والاتجاهات والمواقف والقضايا والحلول ذات النفع ، وكذا البحوث والدراسات والمادة الأدبية المختلفة ، والتعبير عن ذلك كله تعبيرا صحيحا مناسبا للقراء ، بواسطة لغة صحيحة ، تختلف أحيانا من مادة لأخرى ، لكنها تكون في شكل عمل فني صحفى ، يمثل رسالة موجهة الى القراء في الوقت المناسب .

(ب) من زاوية المجلة ومادتها (المحتوى التحريري وأهم مواده) :

وأما المجلة ، أسبوعية أو نصف شهرية أو شهرية أو فصلية ... الى غير ذلك كله فهي - من زاوية المحتوى - تختلف من واحدة لأخرى ، حسب نوعيتها وطابعها العام وطبيعة قرائها وسياساتها التحريرية والهدف من إصدارها ، لكن أهم موادها المشتركة ، التي تتفق عليها كثرة من المجلات هي :

— التحقيقات الصحفية المصورة (عامة مثقوقة — مشكلات — دراسة صحفية) .

- ٢٦ -

- التقارير المصورة •
- الأحاديث الصحفية •
- الأخبار البحثية من نوع
- أخبار المجلة •
- الموضوعات الاخبارية •
- القصص الصحفية •
- المقالات العامة •
- المقالات الفكاهية
- والكاريكاتورية •
- مقالات التخصص العام •
- افتتاحيات المجلة •
- مقالات النقد الأدبي •
- الماكرات الهامة •
- العمود الصحفى •
- اليوميات •
- القصص •
- مواد التسلية والامتناع
- الذهنى •
- الأبواب والأركان والاجزاء
- الخاصة •

(د) عن الصحفى وطبيعة عمله (أنواع من المحررين) :

ان ذلك يعنى - بطبيعة الحال - أن العمل الصحفى ليس صورة واحدة فقط ، أو لا يأتى فى شكل واحد فقط •• خاصة اذا نظرنا الى الاختلاف القائم بين صحيفة وصحيفة وصحيفة ومجلة •

فصحيح أن العمل الاخبارى - جمع الأخبار وتحريها - يأتى فى المقدمة من هذه المهام ، وصحيح أيضا أن المندوبين هم من أبرز أعضاء أسرة التحرير ، انطلاقا من أهمية الأخبار نفسها لكن هناك أيضا من المحررين من يعتمد عليهم ويمثل كل منهم احدى القواعد الهامة فى العمل وركيزة من ركائزه ، ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر ، وحيث تكاد أعمالهم تقترب - بشكل أو بآخر - من النشاط المتميز لرجلنا ••

١ - محرر التحقيق الصحفى ومن أهم أعماله جمع المادة من مختلف مصادرها والمقارنة بينها واستخلاص النتائج واتخاذ المواقف •

٢ - محرر التقرير الصحفى الذى ينتقل الى المواقع ليكتب ما يرى وما يسمع مدعما بالصورة •

٣ - محرر الحملة الصحفية على وجه من وجوه السلب أو من يمثله ، أو بالدعوة الى جوانب الايجاب •

– ٣٠ –

٤ – محرر الدراسة الصحفية فى جانب من جوانب الاهمية الاجتماعية
أو الثقافية أو غيرها •

٥ – المحرر العلمى ، برصيده المتميز الذى يحصل عليه من هنا وهناك
واضعا له فى خدمة القارئ ، بكل ما يقدمه من معلومات عن موضوعه •

٦ – الناقد الأدبى والفنى برؤيته الدقيقة ، وحسه النقدى المتميز ومتابعته
لموضوعه •

٧ – محرر المقال ، بأنواعه المختلفة ، بحسه النقدى الجماهيرى الأدبى
الواقعى معا •

٨ – المحرر المراجع ، بقدرته على تقديم الشكل الأمثل والمضمون المناسب
وعلى الاختصار والتركيز •

● ● وأخيرا – وليس بآخر – نقول :

ان كانت هذه هى الصحافة فى أبرز جوانبها – ولا أقول كلها – وان
كان هؤلاء هم الصحفيون ، مع تركيز شديد على بعض نوعياتهم من المتألقين ،
من الباحثين والدارسين والكاتبين ، وليس على أى صحافى منهم ، وإذا
كانت هذه بعض طبائع العمل الصحفى الذى يقوم على البحث وجمع المادة
والتأكد من صدقها ، ومن مختلف المصادر ، وإضافة الجديد المتتابع إليها ،
مع تنوع كامل ، أو « تخصص عام » وإن صاحبه أحيانا بعض جوانب
« الاهتمام الخاص » ، ومع أسلوب بليغ ، وإن كانت بلاغته تتجه الى صور
واقعية وعملية •• الى غير ذلك ، فأين يقف الجاحظ منها ؟ وما هو موقعه
على خريطةها ؟ وماذا يعنى بخصائصه الفريدة ، بالنسبة لهذه النقاط ،
ولغيرها ولأكثر منها ؟ ذلك ما تقرره السطور التالية ••

● ● هوامش هذا الفصل :

- (١) على فتحى يونس وآخرون : « أساسيات تعليم اللغة العربية » ص ٢٢٠
- (٢) طه ندا : « الانب المقارن » ص ١١ .
- (٣) بدوى طبانة : « علم البيان » ص ٦ .
- (٤) محمد غنيمى هلال : « الانب المقارن » ص ١١ .
- (٥) أبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده : « المخصص » مجلد ٤ ص ٦ .
- (٦) عبد العزيز الغنام : « مدخل فى علم الصحافة » ص ١٢ .
- (٧) خليل صابات : « وسائل الاعلام نشأتها وتطورها » ص ٤٧ .
- (٨) خليل صابات : « الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم » ص ١٢ .
- (٩) محمد سيد محمد : « الصحافة بين التاريخ والانب » ص ٧ .
- (١٠) اجلال خليفة : « الصحافة » ص ٢ .
- (١١) حسين سعيد وآخرون : « الموسوعة الثقافية » ص ٨٨٦ .
- (١٢) تعريف Le Rousae المصور طبعة ١٩٧٢ ص ٢٥٧ .
- (١٣) اجلال خليفة : « الصحافة » ص ٧٧ .
- (١٤) محمود ادهم : « التعريف بالمجلة » ص ٢٧ ، ٢٨ .
- (١٥) اجلال خليفة : « الصحافة » ص ١٧ .

الفصل الثانى

معالم جاحظية

(الجاحظ)

وقبل أن نعد الركب ، أو نقوم بتجهيز قاربنا ، تمهيدا لرحلة فى بحر « أبى عثمان عمرو بن بحر ، الملقب بالجاحظ - ليروز فى حدقتى عينيه اجظهما ، أى خرج بحدقتيهما قليلا الى الأمام - مما جعل البعض يخافونه ، وبعض « الكبراء » لا يرحبون به فى مجالسهم على الرغم من علمه وأدبه ، لأنه وإن كان يزينها بهذين ، إلا أنه لا يزينها بدمامته تلك التى « سخر » منها هو نفسه كثيرا ٠٠٠ قبل أن نقوم برحلة مع تراثه ، أو نقترح بمثل هذه الأفكار ساحته ٠٠ فأننا نتوقف قليلا عند عدد من « المحطات » أو « معالم » الطريق الى هذا التراث ، أو هذه الساحة ، نحاول أن نلم فيها ببعض مكونات شخصه وأن نطوف بالأسس والقواعد التى يستند اليها ذلك البناء الشامخ المتمثل فى هذا النتاج الغزير كله ، الذى قدمه الرجل ، والذى نزع أن بعضه كان نتاجا صحفيا ٠٠

لكننا - بالطبع - لن نقصر على مجرد الوقوف عند هذه المعالم ٠٠ أو مجرد التعرف عليها واستجلاء أثرها فى تكوين هذا التراث المتعدد الجوانب والمعارف والمؤلفات والرسائل والصفحات ، وإنما سنحاول قدر الطاقة - أن نقيم بينها وبين موضوعنا جسرا نعبه معا ، ليساعدنا على الاقتراب أكثر ، مما نتوجه به من أفكار خاصة ليس بالجاحظ الأنيب فقط ، وإنما من زاوية صحفية أيضا ، أن هذه العلامات ، وما يصل بينها من جسور ومعابر ، هى طريقنا الى ذلك كله ، ومن ثم نقول عنها ، أو - حتى نكون أكثر دقة - عن أهمها فقط ما يلى :

« نتاج عصره »

هل هناك عصر يفضل عصرنا فى صنع الرجال ؟

إننا لن ندخل فى مناقشات فلسفية عديدة ، كتلك التى تقول - مثلا - أن الزعيم مطبوع أو مصنوع ، أو أن الجندي الماهر يصنعه - أو لا يصنعه - القائد الماهر وما الى ذلك كله ، ولكننا نتوقف قليلا عند بعض العصور التى ساهمت وساعدت بأحداثها على ظهور طائفة من قادة الفكر والرأى والأدب والعسكرية ٠٠

إن « الحروب » تطعم الرجال ، وإن الأحداث تعركهم ، وإن المواقف

تدعم من قوتهم وصلابتهم ، وإن التجارب العديدة ، بحلوها ومرها ، وخيرها وشرها تبرز هؤلاء ، وتقصص عن مكنوناتهم ، وتخاطب مواهبهم ، بل إن هذه الأحداث الجسماء نفسها ، والوقائع العظام ذاتها لتستحثهم على العمل ، وتدعوهم الى ركوب الصعاب ، وتستنفر همهم ، وقد تستفزهم أيضا ، فيعمدون الى مواجهة التحديات ، والى العمل على تغيير الواقع ودمغه الى الأمام عدة دفعات ٠٠ ومن هنا فإن هؤلاء تصهرهم الأحداث فى بوتقتها ، وتعيد - فى أوقات كثيرة - تشكيلهم و « ضخ » دماء جديدة فى عروقهم ٠٠

لكنهم - وهو مهم أيضا - لا يكتفون بمثل هذا التأثير ، وبصوره المختلفة ، وإنما يجعلون نتاجه بدوره مؤثرا ، وحصاده مغيرا ، لما حولهم من مواقع ومجتمعات وأفكار وخطط ومواقف واستراتيجيات ، تقدم صورا جديدة ، قد يدفع بعجلة الأحداث والتاريخ نفسها من حالة الى حالة ٠٠

اننا نقدم هنا - وعلى سبيل المثال لا الحصر - هذه الصور كلها لزعماء وقادة ومفكرين وفنانين ، كانوا نتاج عصورهم ، ثم عادوا يؤثرون فى مسيرة أمتهم ، ويفتحون أمامهم أبواب عصر جديد :

● فالبطل المصرى « أحمدس » ١٥٩٠ - ١٥٤٥ ق م ، بطل معركة التحرير ضد الهكسوس أو « ملوك الرعاة » ٠٠ كان نتاجا للحالة السيئة التى وصل اليها الشعب المصرى الذى كان يعانى من اضطهاد المحتل وجوره فثار على ذلك وقاد مواطنيه الى التحرير والنصر ، حتى طارد هؤلاء الى موطنهم الأصلي ، ووضع حجر الأساس لامبراطورية مصرية قوامها جيش الشعب .

● والداهية السياسى الألمانى « بسمارك » صهرته البوتقة السياسية الأوربية وصراعات الملوك والأمراء وعركته مشاكل السياسة ، حتى أنتجت « الرجل الحديدى » الذى حير أوربا وأسقط عروشها وخلع قلوب برلمانيين وصنع معارك ، حتى وحد ألمانيا بالقوة ، وأنشأ أول امبراطورية المانية ، وكان ساسة أوربا وقادتها يرتعدون لجرد ذكر اسمه .

● والرحالة البندى « ماركو بولو » كانت تربيته البحرية ، ورحلاته منذ صغره ، وراء حبه للترحال ، الذى أسفر عن عدد من الكشوف الجغرافية التى أفادت منها البشرية كثيرا .

● بل ان الدماء التى جرت فى ساحة الثورة الفرنسية لا يمكن فصلها عن بروز رجل مثل « رويسبير » دموعى النزعة ، تخلص من منافسيه جميعا وزرع « عهد الارهاب فى فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر ٠٠

● والظروف القاسية من سجن وعذاب وتشريد ، كانت وراء هذه الاتجاهات الانسانية والنفسية التى حققت بها مؤلفات « ديستوفسكى » التى عكست تماما أحداث عصره وتأثيرها عليه لاسيما فى رواياته : « الساكنين - منزل الاموات - الجريمة والعقاب » وغيرها ٠

● والقضية المصرية وحاجتها الى مصام قدير يدافع عن الحق والسيادة الوطنية كان لها دورها فى اتجاه شعلة الوطنية « مصطفى كامل » نحو دراسة القانون ، فالتحق بمدرسة الحقوق ليكون هذا المدافع بالصوت والقلم ، فى قضية الوطن الكبرى ٠

● والمؤلف الموسيقى الالمانى الكبير « بيتهوفن ١٧٧٠ - ١٨٢٧ » كان المناخ العام الموجود حوله دافعا له الى تعلم الموسيقى ، ليصبح من اشهر الموسيقيين فى التاريخ وليتم رسالته رغم اصابته بالصمم ، وليصبح « الأستاذ » كما يطلق عليه عن حق وجداره ٠

● والأحداث التى تعرض لها الوطن العربى فى حربه مع الروم ، كانت ذات اثر بالغ على مسيرة وشعر رجل مثل « أبى فراس الحمدانى » ، لا سيما أحداث أسره ، والمؤامرات التى كانت تحاك ضده وضد ابن عمه « سيف الدولة » ٠٠

● واذا كان رواد الصحافة العالمية ، مدينون أيضا لعصرهم بأحداثه ورجاله ومخترعاته وحروبه وفتنه ومؤامراته ، تلك التى كان لابد من تناولها ، وتقديمها للناس - عامة القراء - فى شكل أخبار ومادة اخبارية وما يتفرع عنها ٠٠ وحيث تحضرنا هنا أمثلة لأسماء عديدة صنعتها الأحداث ، أو صنعت صحافتها نفسها بكل ما ظهر على صفحاتها من أفكار وقضايا ومواقف واتجاهات وآراء عبرت عنها الكلمات والصور ٠٠ ثم عادت هذه تؤثر فى مسيرة مجتمعاتها ، وكان من بين هؤلاء ، على سبيل المثال لا الحصر ٠

« جون بيتر زينجر - دانيال دينو - رقاعة رافع الطهطاوى - الشيخ

محمد عبده - عبيد الرحمن الكواكبي - جيمس فرائكلين - جيمس ج. بنيت - أمين الرافعي - أحمد حلمي - أوليحي الكبير - جوزيف بوليتزر « الى غير هؤلاء جميعا »

وحيث نقول هنا ، ان فترات الهدوء الكامل ، والواقع المستقر ، لا تصنع أخبارا ، ولا تقدم مادة اخبارية ، حيث تكون هذه وكما اطلقنا عليها من قبل ، فترات « الركود الاخباري » .

لكن ، ليس شرطا تاما ان تكون هذه الأحداث حروبا كبيرة على الحدود ، او بين أكثر من بلد واحد ، أو تسيل فيها الدماء دائما ، وانما يكفي ان تكون من نوع الأحداث المحركة لسطح المجتمع ، المثيرة لجنبااته ، المغيرة لأعماقه ، المؤرقة لأبنائه ، التحدية لهدوئه ، المقلقة لراحة أفراداه .. وحتى ان كان السطح نفسه هادئا مستقرا ، يعيش بلا صخب ولا ضجيج ، فقد يخفى تحته بعض أسباب التوتر والتحريك للقلق للأحداث نفسها .

● بل ان ذلك ليس وقفا على الصحافة ، وصناعة الاخبار والموضوعات والقصص والتحقيقات والأحاديث والماجريات الصحفية وحدها هذه التي تكون الأحداث مادتها ومداد أقلام أصحابها ، وانما وينفس القدر أيضا ، وربما بأكثر منه أحيانا ، تكون صورة أدب فترة معينة .. أو يكون أدبها من نفس جنس هذه الأحداث ومن نفس لونها ، ومن نفس طابعها كله .. بل وقد يكون دافعا الى تغيير الصورة تغييرا كاملا .. ولن تجهدنا أسماء هؤلاء الأدباء بتتبعهم كثيرا .. فهم من مثل من ذكرنا ، وغيرهم كثير كانوا صوت عصرهم ، ومראה أحداثه ، ومسجله ، وكتابه وديوانه أيضا .. وخذ عندك هذه الأسماء فقط ، وما قدمته الأحداث المعاصرة لها ، وما انعكس في شعرها عنها ، في العصر الجاهلي وحده .. وحيث نجد عندنا أمثال هؤلاء :

« عمرو بن كلثوم ، عنترة العبسي - زهير بن أبي سلمى - قابط شرا » وغيرهم ..

وحيث نقول هنا أيضا ان فترات الهدوء والاستقرار قد تصنع أدبا ، وهي تصنع فعلا ، لكنه يكون في معظمه أدبا لتزجية الفراغ ، تنثر وروده على غنابات البعض ، وتفرد أطياره في مواكبهم ، ويكون بقدر المنح والعطايا ..

هكذا يكون في معظمه وقد يعيش بعضه ، وقد يخلد قليل منه لجوانب الجمال والابداع فيه ، لكنه مع ذلك لا يعبر كثيرا عن واقع شائك ومحتدم ، عن دخان معارك ومثار قضايا وصراع فكر ٠٠ بل انه ليطغى فيه الخيال والأسلوب على الواقع ومخاطبة العقل ، وما كان صاحبنا كذلك ٠٠

أردت بهذه المقدمة الطويلة أن أقول أن الجاحظ كان نتاج عصره ، أدبا وصحافة وأنه كما يكون الأديب صورة ذلك العصر ، والصحفي محصولتها ، فقد كان « رجلنا » أيضا وهو من هذه الزاوية يعتبر أدبيا وصحفيا معا ، بكل ما أكد أنه نتاج عصره ٠٠ ولكن كيف ؟

● أما العصر المؤثر والمتأثر فهو « العصر العباسي » فإذا شئنا أن نحدد على طريقة مؤرخي الأدب ، فهو « العصر العباسي الأول » . ذلك الذي يبدأ منذ قيام الدولة العباسية ، بعد الحروب المستمرة بين الجماعات الشيعية والأمويين ، تلك التي انتهت بانتصار هذه الجماعات ، وفرار عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » إلى الأندلس ليؤسس هناك دولة أموية أندلسية جديدة استمرت قائمة نحو ثلاثة قرون ٠٠ فإذا شئنا أن نكون أكثر تحديدا لقلنا أن الرجل قد ولد عام ٧٧٥ م - ١٥٩ هـ ٠٠ أي بعد قيام هذه الدولة بحوالى ١٧ عاما فقط بمدينة البصرة ٠٠ تلك التي كانت « نافذة عربية » على العالم الشرقى المعروف في ذلك الوقت ، خاصة بلاد فارس والهند ، كما أنها التي تقع على طريق الكوفة ، التي لم تكن نار ثورتها قد خمدت تماما بعد بل كان وميضها يتأجج أحيانا من « خلل الرماد » ، فترفع بذلك راية العصيان ، وكما حدث أكثر من مرة ، مما دعا « أبو جعفر المنصور » إلى ترك « الهاشمية » عاصمة أبي العباس السفاح ، واتخاذ قرية صغيرة تقع على الضفة الغربية لنجلة ، لتكون عاصمة له ، وحاضرة لدار الخلافة هي « بغداد » ٠٠ تلك التي سرعان ما أصبحت ولقرون طويلة ، أهم مدينة في العالم الاسلامي .

وبينما كان « صاحبنا » يخطو خطواته الأولى على مدارج الصبا ، منتقلا بين حدائق البصرة ، وقنواتها تلك التي تشبه قنوات « البندقية » ، وبينما كان يعدو من بستان إلى بستان ، ومن حى إلى حى ، وعثا بعد ذلك ذاكرته وصورتها بأكثر من طريقة ٠٠ كانت الأحداث حوله أكثر عدوا ، وأكثر سرعة ، كانت معالم حضارة جديدة كاملة ، قد بدأت في الوضوح ، كانت ملامح عصر جديد ، مخالف ، خصب ، نام ، متطور مؤثر ٠٠ قد أخذت

نشق طريقها بسرعة وبقوة معا ، بينما كان الصبى يقيم الأب جاحظ العينين طموح العواد عزيز النفس يجمع بين بيع الخبز والسمك لمطلب الرزق من جانب ، وبين القردد على « الكتاب » وبعض دكاكين الوراقين ، ثم بعض مساجد المدينة المتلاثلة بنور الدين والعلم والأدب ، من جانب آخر ، كانت الصورة من حوله ، تتحدث بتلك الوقائع ، وتتكلم بمشاهد التغيير ، بل كان ضجيجها يكاد يعلو على أى ضجيج آخر ، فى العالم المعروف وقتئذ - قرب منتصف القرن الثانى للهجرة - وكانت هذه لقطات سريعة من جوانب وزوايا هذه الصورة نفسها .

● فالانفتاح الفكرى الثقافى والتجارى يعضى على أشده خاصة على بلاد فارس ، وكان هناك حاضرة أخرى تشترك مع بغداد المدينة الكبرى - وليست القرية المسيحية الصغيرة - فى سباق حول هذا الانفتاح ، لاسيما على الحضارة الفارسية ، أيهما ينهل ويغترف وينقل ويترجم أكثر ، ولو حاولنا أن نقوم بحصر لعشر معشار ما كان يجرى فى هذه الميادين كلها ، لما كفانا مثل هذا الكتاب ، ويكفى أن نقول أن نظاما بأكملها ولوائح فى معظمها ، ومكتبات فى مجملها ، ومئات الصور الحضارية الأخرى ، جميعها نقلت ، شكلا ومضمونا ، دواوين ووزارات وكتب ومعمار وفرش ورياش وزخارف وأطعمة ومشروبات وضروب جد ولهو ، وملابس وحجاب وعبيد وقيان وحفلات وتقاليد جديدة وفنون جديدة ، جميعها نقلت إليها ، ومرت بالبلاد العراقية الأخرى ، واستقرت فى معظمها أو انتقلت إليها العدوى البغدادية نفسها .

● وحتى هذه العاصمة الجديدة نفسها ، فقد تجمع من أجل إقامتها وتشبيدها ومن أجل عمارة أحيائها وقصورها وشاطئها وحدائقها ومنازلها مئات من المهندسين وألوف من الصناع والحرفيين والفنيين من كل المدن العراقية والفارسية معا بل وجمع لها كل غال ونفيس ونادر مما حوته قصور « الأكاسرة » وأنقاضها ، من « الدائن » . تلك التى أصبحت أنقاضا ، تنعى من بناها ، أو ينق البوم بها ، لتقوم بدلا منها ، وترتفع عوضا عنها قصور الخليفة والوزراء وأثرياء التجار وقادة الجند وما اتصل بها من حدائق وبرك مياه ونافورات مختلفة الألوان والأشكال .

● وكانت دولة متسعة الأطراف، أو كما يقول علماء « الجيوبولوتيك » دولة « عملاقة » بمقاييس هذه الأيام تمتد أطرافها من كشمير وبعض

مناطق الهند وفارس شرقا حتى أقصى بلاد الشام شمالا ، وإلى المحيط الأطلسي غربا ، أى أنها تكونت من حضارات عديدة وشعوب عديدة ولغات عديدة وتقاليد عديدة أيضا ، وكان هذا الاتساع مصدر ثراء وترف ، لكنه أيضا كان مصدر صور ومشاهد وعادات جديدة ، كما كان كذلك مصدر كثير من "القلق والفتن" التى أزعجت الدولة والخلفاء كثيرا ، وحيث كان عليها من هذه الزاوية أن تدفع الثمن من أمنها واستقرارها ، لاسيما وقد استعانت فى القضاء على الثورة ضدها ، بغير العنصر العربى .

كان الصبى يكبر ، وتتاصل أمام عينيه وعلى مسمعه هذه الصور كلها ، وتزداد حجما واتساعا ووقعا وأثرا وتأثيرا . . . وإذا كنا هنا لم نتوقف عند الجانب الثقافى لهذه المشاهد كلها فما ذلك الا لأننا سنعود الى رؤيته وتتبعه فى مواطن أخرى ، أو فى أكثر من موطن آخر . . .

المهم ، رجل كانت هذه نشأته ، وتلك هى الصور والمشاهد التى وقعت أمام عينيه ، فراجتا تتابعانها بحس الأديب ، وفكر الملتقط الماهر بل راحت نفسه وراح عقله وراحت عينه وراح فكره ، جميعها تنقلها وتبقيها فى الذاكرة ، أو تخلط بين أطرافها ، وتجمع بين خيوطها ، لتكون منها صورا ومشاهد أخرى ، معظمها واقعى عقلى ، لأنه يقوم على الرؤية والمشاهدة والتتبع والالتقاط ، فقويت بذلك عنده حاسة الصحفي والأديب معا . . . فها هى الأحداث أمامه ، بعضها واضح وبعضها الآخر غامض ، بل وشديد الغموض أيضا ، وبعضها معروف ، ومتابع ، وبعضها الآخر غير معروف يحتاج هو أو تحتاج معرفته الى بحث وراء بعض خيوطه أو لاستجلاء بعض معانيه ، أو من أجل مزيد من الشرح والتفسير لها ، وبعضها كذلك ، يحتاج الى سفر طويل أو قصير ، وإلى لقاء مع أكثر من شخص ، بعضهم يقيم بالمدينة ، وبعضهم يضرب خيمته بالبادية ، وقد يحتاج الأمر الى تأكيد وتدقيق ، ليكن ذلك فى « ديكاكين الوراقين » نفسها . . . وهكذا ، وما الى ذلك كله ، وغير ذلك ، كله . . . مما كان موضوع نتاج الرجل ، ومجال فكره ، بل ونتاجه هو نفسه وإذا كنا سوف نناقش أو نتعرض لهذه الأمور كلها مرة أخرى عند تناولنا للجاحظ « مصور عصره » وليس صورته ، فأننا نضيف هنا . . .

أن هذه الأحداث كلها ، هذا العصر بما فيه ومن فيه قد تدخل فى « تشكيل » صورة الزجل ، ورسمها ولونها الى حد كبير جدا ، ومن ثم فقد

- ٤٢ -

ازدحمت رأسه بأمثال هذه المشاهد ، وزخر بها صدره ، وطفت على فكره ، وملكت عليه حسه وفؤاده ومن ثم فقد جاء نتاجه معبراً عن ذلك كله ، يظهر فيه أثره ، كما لم يظهر في كراسات أو رسائل أو كتب غيره من أبناء العصر نفسه .

وحتى لا تختلط الحدود أو الأوراق عندنا بين « الجاحظ » نتاج عصره ، والجاحظ مرآة عصره ، فإننا نقول أن السطور القادمة سوف تقدم — بأذن الله — مزيداً من الضوء حول هذا الفتاح ، بأسلوب أكثر التصاقاً من كتابات الرجل ، لكننا نركز هنا على نقطتين :

● أن تأثيره بعصره قد دفع به الى أن يعيشه بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، دفع به الى أن يرتاد المساجد والمكتبات والدواوين والقصور ودور اللهو ومجالس الأئس ومجتمعات الندامى ودكاكين الوراقين وأحياء الزنوج ومواقع السفلة ، بل لقد اكتوى الجاحظ بنار الفتن السائدة ، وخاض مواقف التحديات ، ورأس إحدى طوائف المعتزلة وتحدث بلسانهم ، وقبض عليه أكثر من مرة ، وسيق مكبلاً بالأغلال وسجن ، وبولغ في أهانتة ، وفي السخرية منه ، تماماً كما بولغ في مديحه والثناء عليه ، كان نتاجاً للعصر بكل صورته و « متناقضاته » و « كونه » جده وهزله ، علمه ولهوه عمله ومجونه . . . ومن ثم كانت خبرته بذلك كله ، وراء كتاباته العقلية والموضوعية والتسجيلية الصادقة ، ألا يعني ذلك كله أن الرجل كان نتاجاً صادقاً وواقعياً لهذا العصر بكل ما فيه ، ومن فيه ؟!

● أننا نشير هنا الى بعض الأقوال التي اتجهت الى بيان ذلك ، وافتقت فيه مع أفكارنا ، بعد أن أضفنا إليها « المنحى الصحفي » :

— ان أحد كبار الدارسين لنتاجه الغزير ، يقول في مقدمة تحقيقه لكتابه « البخلاء » . . . ان الجاحظ : « من أوفى أهل عصره لطابع ذلك العصر » (١) .

— ويقول دارس متابع آخر : « كان معظم النتاج الأدبي قبل الجاحظ لا موضوع له يدور في حلقات مفرغة منمقة الحواشي من الفاظ مرصوفة أنيقة على غير مضمون ، فإذا بصاحبنا يشق طريقاً جديدة ساعده فيها ابن المقفع

— ٤٣ —

فيجعل من الأدب مرآة المجتمع والحياة ، فاذا كل شأن من شئون الوجود يصلح مادة لقلمه ، حتى القينة واللص والجن وجدت لها مقاما في آثاره المنوعة بتنوع الأشياء والكائنات » (٢) ٠٠

ومن المؤكد — باتن الله — أن السطور القادمة سوف تضيف جديدا الى هذا الموضوع ٠

مـكـونـاته

واذا كان الصحفي عند بعضهم — ونحن نميل الى ذلك الجانب ايسر — هو الرجل المكون من عدة رجال ، أو هو الذي يأخذ من كل بستان زهرة ، أو — وكما نحب أن نقول أيضا ونكرر في مؤلفاتنا ومحاضراتنا — هو رجل « الاختصاص العام » ، وأن جمع الى جانبه « اهتماما خاصا » ٠٠ اذا كان الصحفي عند بعضهم هو ذلك الرجل ، فإن من الضروري أن يكون « تكوينه » ٠٠ وبمعنى استعداداته وتربيته وثقافته وتعليمه مما يتجه الى احراز هذا الجانب العام في شخصه ، حتى وإن كان له اهتمامه الخاص ، ذلك الذي قد يكون ادبا ، أو ما يتفرع عن الأدب ، أو يكون علما أو ما يندرج تحته أو يكون غيرهما ، وما ينبثق عن هذا الغير ٠٠

وباختصار شديد نقول ، وحتى دون أن نقدم أكثر من مثال لذلك ، أن مدارس الصحافة (٣) ، وأن معاهدها ، وأن كلياتها وأن أقسامها قد وعت هذه الحقيقة منذ انشائها في الربع الأخير من القرن الماضي ، وقبله بقليل ، فقد كانت برامجها التعليمية تتكون من قسمين رئيسيين أولهما « القسم العام » الذي يبرز في عقل الطالب وصدره بذور « الرجل العام » أو « المثقف العام » ٠٠ ويعمل على تكوينه باعطائه من كل بستان زهرة ، ومن كل بحر قطرة ، حتى يشب على ذلك ، ويتعوده ، ويمارسه ، ومن ثم فقد كان هذا القسم الأول من البرنامج الدراسي يشمل هذه المناهج كلها ، وأحيانا يشمل أكثر منها مع تركيز شديد على أساسياتها :

- مبادئ الاقتصاد ٠
- القانون العام ٠
- الجغرافيا الاقتصادية ٠

— ٤٤ —

- الجغرافيا السياسية •
- النقد الأدبي •
- المجتمع العربي •
- التاريخ خاصة الحديث وتاريخ العصور الوسطى •
- الثقافة الإسلامية •
- التطور العلمي •
- الترجمة الانجليزية •
- الترجمة الفرنسية •
- بعض اللغات الضرورية خاصة الانجليزية والفرنسية والألمانية •

الى غير هذه من مواد مشابهة ، أو متفرعة عنها ، لكنها — فى جميع الأحوال — كانت تحاول تكوين مثل هذا الصحفى الذى يعرف شيئا من كل شيء ، كما كان بعضها يتسم بالرونة ، ويساير روح العصر ، وماجريات أحداثه ، لاسيما مادة « التطور العلمى » ومادة « الجغرافية السياسية » •

وأما المجموعة الثانية أو القسم الثانى من هذا المنهاج ، فقد كان هو القسم الخاص بدروس ومقررات الصحافة المطبوعة ، وما اتصل بها من مواد تقف على هامشها (٤) وكان من أهمها :

- التحرير الصحفى العام •
- الخبر ومصادره •
- تحرير الخير •
- تحرير التقرير (الحديث والتحقيق والمأجىء والتقرير المصور) (وبعضها يدرس كل فن على حده فى فصل دراسى مختلف)
- تحرير المقال •
- تاريخ الصحافة فى العالم (بعضها يقسمه الى مقررین للصحافتين الأمريكية والأوروبية) •
- تاريخ الصحافة العربية •
- تاريخ الصحافة فى البلد نفسه أو فى منطقة ما : (مصر — سوريا — تونس — السعودية — أو فى افريقيا أو تاريخ الصحافة الخليجية) •

- ٠ — تشريعات صحفية « جرائم النشر »
- الاخراج الصحفى (بعضها يدرس الاخراج والطباعة معا أو يفصل بينهما ، وبعضها يفصل بين اخراج الصحف من جانب واخراج المجلات من جانب آخر) ٠
- الطباعة ٠
- التصوير الصحفى ٠
- المكتبة الصحفية « توثيق المعلومات الصحفية » ٠٠

- الى غير هذه كلها ٠٠

وبعضهم يقسمها الى ثلاث مجموعات أو أربع ، فتكون هناك مجموعة خاصة لغوية للغات والترجمة ، أو للمقررات أو المواد الهامشية ، وقد تضاف اليها خامسة لمتطلبات التدريب أو « العمل الصحفى » ٠٠ أو تكون لكل مادة صحفية تدريبياتها العملية ٠٠

المهم انه كانت هناك : مجموعة يرجون من ورائها تكوين مثل هذا « المثقف العام » وأخرى يأملون من ورائها تكوين مثل هذا الصحفى ٠٠٠ ويلحون فى ذلك أيضا ٠٠

أردت بهذه السطور أن تكون بمثابة مدخل للحديث عن مكونات رجلنا ، أو موضوع هذا الكتاب « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » ٠٠ فهل كان هناك ما يتصل به هو شخصيا من زاوية هذه المقدمات ؟ ٠

● ونبدأ بالثانية — المكونات أو المقررات التى يأملون من ورائها تكوين مثل هذا الصحفى — لنتناولها من خلال نقطتين أساسيتين :

★ أما النقطة الأولى ، فهى أنه لم يكن من المعقول أن يقوم « الجاحظ » فى طفولته أو فى صباه ، أو فى شبابه أو حتى فى شيخوخته بدراستها ، لأنها لم تكن موجودة كما نعرفها الآن — الصحافة هنا — حتى يدرسها هو أو غيره وإن كانت الصلات قائمة ووثيقة بين بعض ألوان النشاط الفكرى السائد وبينها لا سيما ما اتصل بنشاط دواوين عديدة من أبرزها (الخبر — الانشاء — الرسائل) ٠٠ وبين بعض الفنون الأدبية من أمثال : « القصص العربى —

- ٤٦ -

القصص القرآني - الاختيار والاختباريون - أدب الرحلات - فن المقامة - فن الترجمة الشخصية « ٠٠ وما إليها ، كان الصلات قائمة وثيقة بين نشاط هذه الدواوين والكتابة في هذه الفنون وغيرها من جانب وبين الصحافة ، أو الأدب الصحفي من جانب آخر ، حتى دون معرفة هؤلاء بالمصنف التي تصدر اليوم ٠٠ لكنهم - بالقطع - كانوا ينظرون إليها على أنها من جنس الأدب لا الصحافة ، وليس لأحد أن يطالبهم بغير ذلك ٠٠

لكن . من حيث « تعليم الصحافة » ٠٠ فإن الجاحظ لم يكن بدعة في ذلك فحتى أوائل الخمسينيات في مصر ، لم يكن من الضروري أن يكون الصحفي متعلما وما يزال بعض من لم يدرسها يحتل المراكز المرموقة جدا في بلاطها ٠٠ وما تزال كثرة من المحررين في بعض البلاد ، من انصاف المتعلمين ، أي أنهم لم يدرسوا لا الصحافة ولا غيرها ٠٠

★ وأما النقطة الثانية - فقد كانت دراسته للفنون الأدبية تجب ذلك كله ، لا سيما وقد ركز في هذه الدراسة - كما قال هو نفسه ووضع في دراساته - على ما يفيد منه الخاص والعام ، وعلى ما يجد تجاوبا عند عصره ، وأقول ، أن من يقرأ الجاحظ يعرف أن دراسته هذه ، كانت تتجه من حيث يدرى ، أو من حيث لا يدرى ، إلى هذه الفنون الأدبية التي ولدت بعد ذلك عددا من الفنون الصحفية أو انبثقت الأخيرة منها ، أو انسلخت عنها ورضعت لبانها ، ونمت وترعرعت بين أحضانها أيضا ، أي أنه من هذه الزاوية ، وعلى الرغم من عدم وجود مدارس وأقسام وكليات الصحافة ، وعدم معرفة هذه العصور بتلك الدروس كما نعرفها اليوم ولا بتلك الفنون كلها ٠٠ إلا أنه درس أصولها ومنابعها الحقيقية ويكفي نظرة واحدة إلى تلك المصادر الأصلية ، والبشرية ، وتلك الينايبيع العذبة ، التي استقى منها مادة كتاب من كتبه ، مثل « البيان والفيبين » ٠٠ ليضع الباحث في « فن التحرير الصحفي » أو « البلاغة الصحفية » أو « الأدب الصحفي » يضع يده على كثير وكثير جدا ، من أسس وقواعد هذه الدراسات كلها ٠٠

لقد درس « الأصول » ٠٠ ولكن بأسلوب يتلاءم مع عصره واتجاهاته ومعارفه •

● وأما الأولى : واكاد أقول أنها عندنا أهم من السابقة ، فهي

- ٤٧ -

دراساته ، و تلك المكونات التي أسفرت عن تكوين هذا الرجل ، الذي نقول أنه كان طرازاً نادراً من رجال « التخصص العام » ٠٠ أو من « الموسوعيين » الذين قامت على أكتافهم صحف ومجلات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا ، خاصة صحافة المجلة كما قامت على أكتافهم هذه الصحافة الأخيرة أولاً ، والعامية ثانية في مصر وسوريا والعراق والجزائر في نهاية القرن السابق ، وأوائل القرن الحالي .

وبداية نقول أن « صاحبنا » كانت دراسته شمولية ، متنوعة ، تضرب في أكثر من مجال واحد ، وتتصل بأكثر من تخصص واحد ، بل وبالعديد من المجالات والتخصصات المختلفة ، قبل أن نتحدث عنها ، نلقى نظرة على عدد من هذه الينابيع التي استقى منها هذه الثقافة بمعناها المتسع والكبير ، والتي جعلت منه في النهاية ، رجل « التخصص العام » وهي صفة صحفية في أغلب الأحوال ، ولازمة للمعاملين في بلاط صاحبة الجلالة من أمثال « الكتاب الصحفيين » ٠٠ وغيرهم ، وحتى أصغر المندوبين ، الذي يكون عليه أن يعرف إلى جانب حقل عمله ومنطقة اختصاصه ، كثرة من الحقول ومناطق الاختصاص الأخرى ، والاضاقت الفرص أمامه ، وأصبح حبيب جهة واحدة ، ومصادر واحدة ووجوه واحدة فقط ، بل ولعلاء الصدا ، واعتراه الجمود ، وتسملت إلى عمله الرقابة ، والركود ٠٠ وجميعها في غير صالحه ، وفي غير صالح العمل الصحفي في مجموعه ، وبالطبع فإنه يستثنى من ذلك بعض المندوبين في جهات « القمة » وأماكنها الحساسة التي يوقف المندوب عليها عمره وتستحق هي ذلك كله ٠٠ ولكن ليست أية جهة أو منطقة اختصاص غيرها .

أما هذه الينابيع فهي :

١ - الكتابات : تلك التي راح يلتحق ببعضها منذ طفولته المحرومة ، وصباه الشقي المكافح ، وواضح أن ما تقدمه هذه يتركز معظمه في حفظ القرآن الكريم ودراسة الحديث النبوي ، وقدرنا معقولا من علوم التفسير والفقه إلى جانب بعض المسائل اللغوية التي كانت تقدم لمن هم في مثل سنه ، وأذن فالأساس ديني لغوي ، كأساس غيره ، وهو أقوى الأسس التي ارتكزت إليها طوائف « الموسوعيين » ٠٠

وواضح أننا إذا كنا نعني الكتابات مكاناً أو إطاراً ، فإن التوجه كان

أولا للمقرآن الكريم والحديث النبوى ٠٠ لا سيما فى مؤلفاته اللغوية والبلاغية وحتى العلمية أيضا .

٢ - دكاكين الوراقين : وعند بدأ الجاحظ « الغلام » هنا ، يشب عن الطوى ويتعرف على من حوله ، قويت لديه الرغبة كزملائه الكبار فى المزيد من المعرفة ، أو الثقافة العامة ، وليست الدينية فحسب ، وكان من المعروف أن هذه يمكن أن يجدها فى أكثر من مكان من أهمها « دكاكين الوراقين » ٠٠ ومن ثم راح يقضاها ، فى بعض الأحيان أو يستأجرها فى أحيان أخرى ، يجلس بها الساعات الطوال ، ويصل ليله بنهاره حتى يأتى على أغلب الموجود بها ، وهو ممثل لثقافة العصر العربية ، وتلك المنقولة أو المترجمة عن الفارسية والهندية واليونانية ، التى وصلت كتبها مع من حضر من أبناء هذه الشعوب الى عاصمة الخلافة ، أو البصرة - العاصمة الثانية - أو مع التجار أو مع الرحالة والجنود ، ومن خلال ما حدث من امتزاج بين العنصرين ، العربى ، والعناصر الأخرى ، خاصة الفارسية والهندية ، التى تقع البصرة على طريقها ، وتعتبر من مناطق الجذب بالنسبة لها ٠٠

وكما وضعت « الكتاتيب » أسس ثقافته الدينية ، فقد أضافت إليها دكاكين الوراقين كثيرا ، ثم جاءت بأكثر من لون من ألوان الثقافة الأخرى ، اللغوية والأدبية والفارسية والهندية لتضعها بين يديه ، وطوع بنانه .

٣ - المساجد : وإذا كان انتشار المدارس الفكرية والفلسفية والعقائدية يعد « ظاهرة » فى هذا العصر ، فقد كانت هناك أيضا « المدارس المسجدية » ، تلك التى كانت تؤمها طائفة كبيرة من الذين كانوا يريدون العلم من أجل العلم ، ومن ثم شهدت هذه المساجد حركة ثقافية دينية علمية كبيرة ، كانت مناقشاتها تمتد طويلا ، وتتفرع وتتشايك ، كما اتصلت بموضوعات عديدة أخرى ، لغوية ونحوية وبلاغية وأدبية يقوم عليها عدد لا بأس به من العلماء أطلقت بعض المراجع العربية عليهم تعبير « المسجديين » وكان من أهم ما يميزهم تنوع المجالات والاهتمامات ، حتى قيل عنهم أنهم وإن انطلقوا من الأساسيات الدينية واللغوية ، إلا أنهم لم يتقيدوا بها ، بل لم يتقيدوا بعلم واحد ، وأكثر من ذلك وأهم منه أيضا أن هؤلاء لم « يتبحروا » فى علم واحد من العلوم ، ولم يكونوا من أصحابه دون غيره أو من أهل « التخصص الدقيق » فيه .

وعندى أن هؤلاء ، بالإضافة الى استعداد الرجل نفسه ، والى عدد من الذين يمكن أن نطلق عليهم تعبير «الموسوعيين» ٠٠ كانوا هم من أبرز المؤثرات فى مكونات الجاحظ العامة ، أو فى اتجاه « التخصص العام » الذى سيطر عليه .

٤ - العلماء : كثير من العلماء والرواة واللغويين والخطباء اثروا فى اتجاهات الجاحظ عامة ، لكن من الملاحظ هنا أن بعض العلماء كان اثره وقتيا محدودا وان افاد منه ، وبعضهم الآخر كان تأثيره كبيرا ، ومهما ، ومن الغريب أن هذه الطائفة التى كان تأثيرها على فكره اشد وقعا ، وامضى استجابة ، كانت من بين هؤلاء الذين عرفوا بالشمولية وانطلاقة الفكر الى ميادين عديدة قد تستعصى على بعض علماء اليوم ، وهكذا اجتمع له تعدد موضوعات هؤلاء ، مع تعدد موضوعات « المسجدين » ، لتترك هذه كلها اثارا فى نفس الرجل وصدره وفكره ، وكان من بين هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر خاصة ممن اثروا فى اتجاهاته الكتابية التى نعتبرها أدبا صحفيا :

● « أبو عبيدة » ذلك الموسوعى الذى نعتبر انه كان من أكثر من ترك « بصماته » الواضحة على فكر الجاحظ « الشمولى » أو ما يتصل بجانب « تخصصه العام » لا سيما وأن تأثيره قد جاء فى فترة مبكرة من الوقت ، وهو يجتاز المرحلة من الصبا ، الى الشباب المبكر ، ومن ثم فقد حفر هذا الرجل اثره فى وقت مناسب ، وصدر مستعد وتعامل مع فكر متقبل وذكرة حافظة ، وقد أوفاه الجاحظ حقه ، فتحدث عنه كثيرا ورفعته الى المكانة التى يستحقها ، وكان مما قال عنه « لم يكن فى الأرض خارجى ولا اجماعى أعلم بجميع العلوم منه » (٥) .

واذا كانت للرجل مؤلفاته المتعددة ورسائله التى جلت عن الحصر، وخاصة فى موضوع الطير والحيوان والحشرات، الى جانب عجائب البر والبحر، واللوان الشجر والثمر ، فاننا نضيف هنا أننا لا نستبعد أن يكون اهتمام الجاحظ يمثل هذه المخلوقات والأشياء يعود الى هذا الرجل أولا ، وقبل غيره ، والى انجذاب الجاحظ به ويحكاياته ورواياته ورسائله ، فى تلك المرحلة المبكرة من العمر ، وهو ما أسفر بعد ذلك عن كتاباته المماثلة ، والتى أوشك أن يتفوق فيها على الأستاذ نفسه خاصة مؤلفه الكبير « الحيسوان » الذى سيرد ذكره فى حينه باذن الله .

(الجاحظ)

● « النظام » وإذا كان الموسوعى السابق هو من لفت نظر الجاحظ ووجه فكره الى تناول الشمولى عامة ، وموضوع الحيوان والطيور والحشرات والعجائب خاصة ، فقد كان هذا الأخير « أبو اسحق إبراهيم بن هانيء » هو الذى وجه نظره ، ومهد فكره للمسائل المتصلة بالفلسفة والسياسة وجوانب الرأى العقائدى معا لاسيما تلك التى تتصل بالفرقة الدينية المسماة بـ « المعتزلة » ، خاصة اتباع هذا الرجل من « المعتزلة النظامية » ٠٠ وعموما فان الرجل لم يكن وحده الذى فعل ذلك ٠٠ على انه كان من أهم مؤثرات النظام فى صاحبنا :

- البحث وراء العلل والأسباب لكل الظواهر القائمة ، أو ما يستجد منها ٠
- الشك فى كل ما هو قائم حوله ، واتخاذاه بداية للتفكير فى الأصول والفروع ٠
- الحرص على حرية التفكير والتعبير والعرض عليهما بالنواجز ٠

— الكلام المختصر المرسل وغير المسجوع الا ما جاء عفو الخاطر ٠٠ باختصار شديد ، كان النظام مذهبيا وصاحب فلسفة ورأى وعالم وباحث ، ومن ثم ، فأننا لا يمكننا استبعاد تأثيره على اتجاهات الجاحظ الفكرية والمذهبية ، بل والتأليفية والكتابية — أو التحريرية — العامة ، واضيف هنا ما ذكره باحث جاد ، عن جانب من جوانب اثر هذا الرجل : « ٠٠ وقد اثر النظام فى الجاحظ تأثيرا بليغا ، وكانت طريقته فى التحرر من أركان طريقة الجاحظ العلمية » (٦) ٠

● « الأصمعى » ٠٠ قلنا ان أبا عبيدة لم يكن وحده هو المؤثر ، ولا كان النظام أيضا وإنما يقترب منهما ، فى بعض هذه المجالات الشمولية ، ويضيف اليهما جديدا من الأثر فى عديد من الموضوعات اللغوية وما يتصل بالأخبار والرواية وجمعها ، الى جانب تعود تقديم الملح والطرائف والاهتمام بما يثير الفضول والتشويق ، وجمع النواذر ، وما إليها ، تلك التى حفلت بها كتابات « صاحبنا » بعد ذلك ، وكانت طابعا عنده ، لا سيما تلك التى جاءت على صفحات « البلاء — الاخوان — الأخبار وكيف تصح » وغيرها ٠٠

وغيرهم ، وغيرهم ، خاصة من عرب البادية ، وهؤلاء الذين كانوا يجمعون بين أكثر من مادة واحدة ، أو موضوع واحد ، على النحو السابق ٠٠

مما يعود الى تذكيرنا بمناهج ومقررات اقسام وكليات ومدارس الصحافة ، تلك التى تهدف الى اعطاء شىء من كل شىء ٠٠ مع الاحتفاظ لكل بمستواه وطابعه ، وما أبعد المسافة بينهما ، أو شتان بين مستوى قديم وأصيل وجوهري ، ومستوى معاصر « قشرى » أو يكاد يكون كذلك .

التثقيف الذاتى

لكننا فى واقع الأمر نظلم « رجلنا » ظلماً فادحاً ، ونبخسه حقه تماماً ، ان نحن قلنا ان هذه المكونات وحدها ، كانت وراء هذا المستوى الجاحظى فكراً وثقافة ويحاثاً ولغة ٠٠ متجاهلين بذلك ، أو متناسين ذلك الجانب الذاتى الخاص بهم ٠٠ فلا العصر نفسه بكل ما فيه من نشاط دينى وعلمى ولغوى وفلسفى وأدبى ، وبكل ما شهده من نمو وازدهار ، ومن صراع فكرى وعقائدى ، ومن كثرة فى المساجد والمدارس والكتاتيب ، ومن انشاء للمكتبات ، ومن تشجيع الخلفاء والأمراء والأثرياء للعلماء والأدباء ، ومن مجالس للعلم والأدب ، تقدم فيها الهبات وتمنح « الاكراميات » وتتابع العطايا ٠٠ ومن مترجمات كاملة عن الفارسية والهندية واليونانية ومن وفود علماء الدنيا المعروفة على حاضرة العباسيين – بغداد – وعاصمتهم الثانية – البصرة – يحملون نتاج حضارات عديدة مجتمعة ، قديمة وجديدة ، شرقية وغربية لم تكن هذه كلها لتؤثر وحدها ، دون قيام هذا الجانب الذاتى الخاص نفسه ، بل ان الكتاتيب ، و « دكاكين الوراقين » و « المساجد » و « عشرات العلماء » لم تكن لتنتج أو لتثمر كل هذا الحصاد الوافر أو الفيض الغامر ، دون قيام لهذا العامل الذاتى المهم ٠٠

٠٠ ان هذه « الأجواء » الفكرية والسياسية والعقائدية والثقافية التى سادت هذه السنوات الخصبة المثمرة ، كانت تظلل الجميع بظلالها ، وتمد أثرها الى كل مكان ، ولم تكن وقفاً على المدينتين الكبيرتين وحدهما – بغداد والبصرة – وإنما راحت تنساب مع مياه نجلة والفرات من أقصى البلاد الى أقصاها ، تأثر بها الريف والحضر ، بل امتد أثرها الى خارج الحدود أيضاً ٠٠ أى أنه كان فى طائىل الجميع أن يفيـدوا منها ، وكانت هى ، بكل اشراقها وضجيجها وجلبتها طوع أيديهم وأفكارهم وأسماعهم ٠٠

فلماذا افاد منها الجاحظ ونفر قليل من أمثاله قبل غيرهم ؟ وافاد منها

هو قبل غيره بحيث لم تر له مثيلا في عصره ، اللهم الا نادرا ؟ ٠٠ حتى قيل عنه ، من جانب مؤيديه ومعارضيه معا ، ومن بين كثير مما قيل عن الرجل :

● « القرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين : عصر الجاحظ » (٧) .

● « قلما عرف الأدب العربى فى مختلف عصوره ادبيا موسوعيا بلغ ما بلغه الجاحظ من غزارة فى المادة ودقة فى التحليل وعمق فى النظر وتنوع فى مجالات الابداع » (٨) .

● « كان دائرة معارف عصره » (٩)

بل ، لقد أتيت لأبناء الخلفاء والأمراء وكبار التجار والأثرياء ، أضعاف ما أتيت له من فرص التعليم والتثقيف والاعتراف من هذه المصادر كلها . وهو الصبى اليتيم ، ابن الأسرة الفقيرة ، الذى كان يتكسب عيشه ببيع الخبز والسمك ، عندملتقى بعض القنوات بالبصرة ٠٠ لكنه ، ومع ضيق ذات اليد ، كان يحمل بين جنبية ، هذه « الكونات » الخاصة كلها ٠٠ التى اعانته على شق الطريق وتحمل مصاعبه ، ومن ثم ، فقد بز هؤلاء جميعا ، ووصل الى هذه المكانة الهائلة ، التى يحسده عليها أمثالهم من معاصريه ، ومن غير معاصريه ، بل وربما لم يصل اليها لا أقول بعض هؤلاء الأثرياء ، أو كبار التجار ، وانما بعض الخلفاء والأمراء والوزراء أنفسهم ، ممن قد لا يعرفهم البعض الا من خلال دروس التاريخ ، بينما يطويهم النسيان وتطوى صفحاتهم بمجرد انتفاء الحاجة ٠٠ ذلك كله بينما يعيش الجاحظ بفكره وأدبه وجوانب عبقريته من حقبة الى حقبة ، ومن عصر الى عصر ، ومن جيل الى جيل ، فى وجدان الطالب والباحث والمثقف والأديب ٠٠ وحتى هواة « الفكاهة » أيضا ، تلك التى كان الرجل علما من اعلامها ، وله مدرسته المعترف بها ، فى هذا الفن أيضا .

ان باستطاعتنا أن نتوقف عند عدد من أهم معالم هذا الجانب الذاتى نفسه الذى بز به أقرانه ووصل الى تلك المكانة ٠٠ ان من بينها :

★ احساسه « الجذرى » العميق ، والذى لازمه منذ صباه بضرورة الاعتماد على نفسه وتحمل مسئوليته وقد بذر ذلك فى صدره ، وحتى يمكن

أن يتحقق له هذا الاعتماد على النفس أكثر من بذرة سرعان ما نمت وترعرعت لا سيما بعد أن أضيفت إليها وتشابكت معها عوامل أخرى عديدة ، أما هذه البذور نفسها فهي :

- عدم التخوف من مخالطة الناس ، وتعود مناقشتهم والشد والجذب معهم .
- معرفة طرق البعض في التحايل وقيادة الحديث وتوجيهه الى صالحهم .
- عدم التسليم بما منه ، الا عن رضى واقتناع كاملين .
- الاستماع الى ما يدور حوله من مناقشات على قارعة الطريق و بجانب قنوات البصرة وفي حدائقها .

باختصار شديد ، لقد كان هذا الواقع نفسه وراء ما يكون لديه بعد ذلك من « حاسة اجتماعية » جعلته يختلط ويناقش ويحلل ويفسر ، في هذا السن المبكر .

★ ولعل الاستماع الى امثال هذه المناقشات العامة ، ثم ما كان يدور في الكتاب قد فجر عنده بعض « المواهب » لأول مرة ، لا سيما موهبة « الاستماع » او « الانصات » وكذا موهبة « الحفظ » . فتدرب خلال هذه الأيام ، وكثر تدريبيه على حسن الاستماع وله اثره الكبير في دقة المتابعة ، ويقتطع الفكر واستيعاب ما يدور ، ثم كشف ذلك عنده عن هذه « الذاكرة القوية » التي تحسن النقاط الصور والمشاهد وتجيد الحفاظ عليها ، لتخرجها « عند اللزوم » . وفي الوقت الذي تريد .

★ لكن نفسه الطموح ، ورغبته في الاستزادة ، واحساسه بأن فكره يريد ما هو أكثر من علوم الكتاتيب التي كان يؤمها غيره ممن هم في مثل سنه ، وليسوا في مثل تجربته ، دفع به الى دكاكين الوراقين ، ليقرا فيها بنهم ، محاولا اشباع فكره الذي يلح عليه بالمزيد ، ومن ثم بدأ يقتحم مجالات ثقافية جديدة ، وكلما أخذ شيئا طلب فكره المزيد . حتى كان من بين ما قاله عنه في هذا المجال صاحب « معجم الانبياء » « حدث أبو هفان قال : « لم ارقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط

الا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .» (١٠) ٠٠

لكن حتى هذه لم تكن تشفى غليله الى القراءة والمعرفة ، واكاد اقول ، لم تكن هذه الدكاكين على اتساع وتعدد وتنوع ما حوت من تصنيفات ومترجمات ومخطوطات الا لتشبع بعض حاجته ، من ذلك ، ومن ثم فقد راح يبحث عن مناهل جديدة يضيفها اليها ، ليفترف منها ما شاء له الاغتراف ، حيث كانت هناك هذه الطائفة من العلماء ، ما ذكرنا منهم وما لم نذكر ، وكان هناك ايضا عرب البادية ، وأهل المريد والمساجد ومجالس القصور ٠٠ وما الى ذلك كله ٠٠

لقد جعل ذلك منه ، هذا الانسان المثقف «الأنهونجي» أو المثقف «القياسي» ان صح استخدام مثل هذا التعبير ٠٠ بل لقد أصبحت هذه الرغبة فى المزيد من المعرفة « حاسة » و « ظاهرة » لازمته حتى آخر لحظة من لحظات حياته ، بل كانت « الكتب » التى يحتفظ بها بالآلاف ، فى بيته البصرى الذى شهد نهايته ، هى سبب وفاته ، عندما سقطت عليه ، فهوى تحتها جسده العليل ، ولم يستطع النهوض وهو يحمل « تلالا » منها ، كتبت أنفاسه ، ولم تتركه الا بعد « تكفن » بورقها ومدادها ولعلها « الوفاة المناسبة » الوحيدة ، التى كان يرجوها لنفسه ، ويشاء الله الا يحرمه منها ٠٠

★ باختصار نقول ، كانت المعرفة منهجه الحياتى ، وكان لا يشبع ولا يرتوى منها أبدا ، بل دائما يحس بحاجة الى المزيد ، ومن هنا فقد راح يطرق مجالات جديدة من الفكر لم يسبقه أحد اليها ، الا فيما ندر ، وليس بنفس الدرجة من الوضوح ، والعمق ، فى أن واحد ، او نقول ، ليس الى هذه الدرجة من « التخصص العام » ومن الشمولية ، والبراعة معا ، لقد امتدت ثقافته الذاتية الجديدة الى موضوعات عديدة ، كان من بينها على سبيل المثال لا الحصر ، هذه كلها التى تناولتها كتبه ، او تناولها فى مجالسه ٠٠

- المفاضلة بين الشعوب التى دخلت الاسلام من زوايا الفكر والأثر فى الحضارة الانسانية وبعض معالم « الشخصية » الخاصة ، وجوانب الابداع المختلفة .
- كتبه فى « الأخلاق »
- تناولاته للمذاهب والعقائد المختلفة

— صورة القلمية

— الجديد الذى أضافه الى « الفكاهة » ، من حيث الموضوع والدلالة والخصائص الفنية معا

كانت هذه بعض ما أوجت به ودفعت اليه وقادت هذه الثقافة الموسوعية المتميزة من أفكار ، انبثقت عن تلك الأغراض والموضوعات « التقليدية » أو « الكلاسيكية » ، التى كان يحوضها أو يتناولها علماء عصره ، وكتابه .

واذن ٥٥ فقد كان حبه للثقافة « فضيلة ذاقية » أولا ، وحاسة خاصة، تحمد له أضيفت الى هذه المكونات الأخرى ، ودعمتها ، واكتت على جوانب الافادة منها ٥٥ لتتشابك هي ، وتتعانق وتتلف ، وتنتج فى النهاية هذه الملامح العديدة لشخصية أدبية وصحفية معا ، يزدحمان فى جوف وصدر وفكر رجل واحد ٥٥

فاذا عدنا الى استعراض أبرز هذه المكونات الجاحظية ، فى ضوء مكونات الصحفى المبرز ، المرموق ، الموهوب ، المتصل ، الممارس ، المثقف ، وليس أى صحفى ، لوجدنا أن مكونات الرجل ، ودوافد فكره ، وتعدد منابع معرفته ، واهتمامه بإضافة الجديد « الحادث » ٥٥ وولعه بابتكار الموضوعات والأغراض الجديدة ، وحرصه على ذلك كله ، لتأكد لنا اننا أمام شخصية أدبية وصحفية معا ٥٥٥

وخذ عندك مثلا ، أو على سبيل المثال لا الحصر ، هذه النقاط الأخيرة فقط ، والتى وردت تحت عنوان « التثقيف الذاتى » ٥٥ لقد رأينا ان مؤثرات حياته ، وأن رغبته العارمة التى لا تنقطع من أجل مزيد من المعرفة ، قد أدت به الى :

— انتهاز الفرص التى تسنح من أجل مزيد من الكسب «الثقافى» هنا

— تكوين حاسة اجتماعية « تتعرف وتستمتع وتناقش وتدعم صلات صاحبها بأناس وأفكار وعادات ومواقف متباينة

— تكوين ودعم وتدريب حاسة حافظه وذاكرة قوية

— تكوين « أنموذج » للباحث المثقف الذى يضرب فى أكثر من ميدان،

وأكثر من حقل ٥٥

هل أقول أن هذه جميعها تعرفها أيضا « مكونات الصحفي » ، كما ينبغي أن يكون ؟ أم « أنتظر » حتى نتعرف على جوانب جديدة من شخصيته ، حتى تكتمل الصورة نفسها ، صورة « الجاحظ صحفيا » ؟ أو - على الأقل - الجانب الصحفي عند الرجل ؟

اقتنى ، وقبل الانتهاء من هذا المبحث ، أوقف عند نقطتين أخيرتين ، تتصلان بهذا الموضوع نفسه ، موضوع « المكونات الجاحظية »

● أما أولاهما : فهي عودة سريعة ، نلقى فيها نظرة الطائر على مناهج ومقررات و « مساقات » أقسام ومدارس وكليات ومعاهد الصحافة ، ترى هل اختلفت كثيرا ، تلك التي اعتمدها المعاصرون كمكونات وروافد للصحفي ، عن تلك التي استقى منها واغترف الجاحظ ما كان معنا لا ينضب لهذا التراث الجاحظي بكل ثرائه ؟ ٠٠ حتى هذا الجانب الأخير ، جانب الثقافة العامة ، أنها في معظم الأحوال ، بدءا باختيار طلاب هذه الأقسام والمدارس والكليات والمعاهد ، ومرورا بجوانب تدريبيه وسنوات عمله الأولى ، وحتى آخر ما يكتب ، تكون هي مرجحة للصحفي على غيره أو لغيره عليه ٠٠ خاصة عندما يتساويان في بعض الظروف والمكونات الأخرى أو يتقاربان ، أو يتشابهان ٠

● وأما ثانيتهما : فهي أننا - كعادتنا - ننهي هذا الفصل ، ببعض الكلمات ، لهؤلاء الذين اقتربوا من الجاحظ مثلنا ، أو أكثر مما اقتربنا ، بقليل أو كثير ، وجلهم من رجال اللغة والأدب ، حتى يستقيم معهم المثل القائل : « شهد شاهد من أهلها » أما الشاهد هنا فهو الأديب الناقد المؤرخ « شوقي ضيف » وأما شهادته فهي تلك التي يقول فيها : « ٠٠ وهذا العكوف على القراءة هو الذي جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف فليس هناك جدول من جداول الثقافة في عصره إلا وتسربت منه فروع ومتعطفات إلى كتاباته وتأليفاته وأن كتبه من هذه الناحية لتشبه تمام الشبه معارضنا الحديثة ، فأنت منذ دخورك في كتب الجاحظ تجده يعرض تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التي عاصرت من هندية وفارسية ويونانية وعربية وهو يجمع ذلك في شكل مشعث » (١١) ٠

لكن هذه لم تكن وحدها دليلنا إلى هذا الجانب الصحفي ، من شخصية

- ٥٧ -

الرجل ٠٠ فما تزال هناك تلك الأبعاد الأخرى ؛ الماثلة ، أو التي تقترب من «أدبه الصحفي» الى حد كبير ، نطوف خلال السطور القادمة ببعضها ، دون أن ننصرف تماما عن هذه السطور السابقة لأنها جميعها ترتبط بالموضوع نفسه ٠٠

بل ان تعبير « المعرض » الذي استخدمه صاحب الكلمات السابقة ، هو تعبير يطلق على الصحافة عامة من صحف ومجلات ، ويضاف اليه عن الأخيرة - والجا حظ اليها اقرب - تعبير « الاستعراض » (١٢) الذي يعد من اشهر التعبيرات التي تطلق على المجلة ٠٠

٠٠ لكن هناك أكثر من زاوية أخرى ترتبط بالموضوع نفسه ٠٠
تري ما هي؟

● ● هوامش هذا الفصل :

(١) الجاحظ : «الخلا» ، من مقدمة المحقق : د. طه الحاجري .

(٢) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » ص ٤ .

(٣) "School of Journalism"

(٤) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن العودة الى عدة مؤلفات من بينها : اليونسكو : التأهيل الصحفي – اليونسكو العربية : بحوث الاعلام – عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة في مصر – محمود آدم : الأسس الفنية للتحضير الصحفي العام وغيرها .

(٥) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ١ ، ص ٢٢٤

(٦) حنا الفاخوري : « الجاحظ » ص ٢٤

(٧) زكي مبارك : « أدب القرن الرابع » ص ٩٦

(٨) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » من المقدمة

(٩) الأب فيكتور شلحت اليسوعي : « النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ » ص ٧

(١٠) ياقوت الحموي : « معجم الأدباء » ج ١٦ ص ٧٤

(١١) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٥٥

(١٢) Review وللاستزادة رجاء العودة الى كتابنا السابق :
« التعريف بالمجلة » ص ١٨ وما بعدها

الفصل الثالث

شواهد صحفية

- قلنا أنه لم تكن هذه المقدمات والخصائص السابقة فقط ، هي التي أنتجت هذا « المزيغ » الجاحظي ، أو هذا الفيض من تراث الرجل والمكون من جانبين ، جانب للادب ، وجانب للصحافة ، وركزنا على بعضها الخاص بالآخيرة على وجه تحديد ، أقول ركزنا على بعضها ، أو على عدد منها ٠٠

وخلال السطور القادمة ، نضيف - كما وعدنا - جديدا الى هذا الموضوع ، ونتناوله من أكثر من زاوية مغايرة ، ودليلنا الى ذلك كله عدة صور ومشاهد من حياة الرجل الحافلة ، ومن نشاطه الوافر ، ومن صلاته بمجتمعه وأبطال أحداثه وصناع حضارته وثقافته وقيمه ، وحتى هؤلاء الذين تسببوا في وجود بعض الرقع في ثوبه - ثوب المجتمع العباسي نفسه - الأبيض الناصع البياض ٠٠

غير أنني هنا ، وقبل المضي مع هذه الأفكار كلها ، وقبل الاسترسال في تعداد صور « الأدب الصحفي » ، وليست الصحافة الأدبية عند « صاحبنا » ، وكذا قبل التوقف عند هذه « الشواهد الصحفية » كلها ٠٠ أقول أنها هنا تتم في ضوء :

★ تناول جديد ، أو نمط جديد من التناول يخلط بين الجانبين ، الأدب والصحافة بما يتصل بهما من نقاط وعلامات ارتكاز وملاح جاحظية خاصة ٠

★ يقدمها باختصار شديد ، لكنه غير مغل ، مع الاحتفاظ بحقنا في العودة الى بعض مرتكزاتها ، بطريقة مسهية ، على صفحات أخرى قادمة ، فحسبنا هنا ما نقدمه خلال هذه السطور ٠

الرجل ومصادره

ولعل هذا « العنوان الفرعي » يذكر بتلك المادة الأصلية ، التي لا بد لطلاب الإعلام عامة ، والصحافة خاصة من دراستها في بداية دراستهم لهذه المناهج حتى تقوم عليها ، وتنبتق منها مواد أخرى عديدة ، انها ما يطلق عليه ، مادة أو مساق : « الخبر ومصادره » ٠٠ وحيث الصلة شديدة بين الموضوعين

هنا نتساءل : ما هي مصادر هذا الرجل ؟ ، وهل كانت جميعها مما يندرج - بشكل أو بآخر - تحت تعبير أو نوع أو بند « المصادر المخطوطة » على عادة الكثرة من أهل زمانه من الباحثين وواضح أنها هنا « المصادر المنسوخة » ، لأن الطباعة لم تكن قد عرفت بعد ، وإنما كانت الرسالة تنسخ أو تخط بأعداد كبيرة في دكاكين الوراقين والناسخين وبدور العلم والمكتبات وبعض الدواوين *

وفى تعبير آخر ، هل كان « الجاحظ » يتجه في جمعه لمادة كتبه ورسائله وتصنيفاته المختلفة الى جانب أرفف دكاكين الوراقين ، وأضابير الدواوين ، وخزائن المكتبات يجمع من بين صفحاتها شتات مادته ، ويللم المبعثر منها هنا وهناك ، ينقل معلومة من مخطوطة هنا ، وسطورا من مخطوطة هناك ، ورأيا من رسالة في مكان مهمل وشذرات من مترجمة من المترجمات ، وحاشية من كتاب فارسي ، وأخرى من أضبار هندية ٠٠ هل كان يفعل ذلك كله ، ثم يوحد بين هذا الشتات المبعثر ، ويقرب بينه وبين غيره ويقوم بدراسته وتحليله واستخلاص النتائج منه ، ثم تقديمها في صورة جديدة تماما ، هي من تأليفه هذه المرة ، يحمل بصمات فكره ، وطابعه الخاص شكلا ومضمونا ، لغة وأسلوبا ٠٩ هل كان هذا هو ما يفعله الجاحظ فقط ، أم أنه كان يلجأ الى غير هذه من الطرق ، حتى وإن اتبعها غيره ، أو كثرة من أهل زمانه ، وأهل زماننا أيضا ؟

إن الواقع يقول ، أن هذه كانت طريقته أحيانا ، ولكنها لم تكن طريقته الوحيدة ، أو طريقته الأساسية ، وإنما كان اعتماده على طرق أخرى كثيرة ، أو على مصادر أخرى ليست مخطوطة فقط ، أو منسوخة فقط ، وإنما مسموعة ، وبشرية أيضا ، قبل أن نتحدث عنها تفصيلا ، نقوم بالقاء سؤال آخر ، ذلك السؤال هو : هل كان ما كتبه الجاحظ كله تأليفا من بنات أفكاره ، حتى وإن كانت تسبقها خطوات البحث العادية في بطون الكتب ، أم كان بعضه « جمعا » أو « تجميعا » من مصادر أخرى ، خاصة المصادر البشرية ؟

إننا - كمبدخل لتأجي فقط - نقول أن « صاحبنا » كما كان مؤلفا « ماهرا » فقد كان على نفس الدرجة من المهارة « جامعا » و « متلقيا » و « مستمعا » وكذا « مسجلا » أمينا ودقيقا وموهوبا ٠٠

ومرة أخرى نعود الى مقرر الخبر ومصادره ، أو الى « مصادر

الصحفى ، بشكل عام ٠٠ لنجد أن من المهم المميز منها «المصادر البشرية» ٠٠ وهنا نقول ٠٠ أننا لا نقصد بهذه المصادر عند الرجل ، أساتذته الذين كان يستمع اليهم ، أو هذه الطائفة من «المسجديين» الذين شغف بهم واعتبر فى وقت من الأوقات واحدا منهم ، أو هؤلاء الذين كانوا يتحدثون فى المجالس والدور والقصور بحضوره ، وحيث كانت ذاكرته الدقيقة الحافظة تعمل عملها وتسجل « جواهر » ما يدور ، وخلاصة ما يجرى ٠٠ وهى نفس طريقة غيره مع اختلاف بينه وبينهم ، ومع تفوق له عليهم بفضل هذه المواهب كلها ، التى لم تتح الا للقليل النادر من أهل زمانه ، وأقول ، وأهل زماننا أيضا ٠٠

لا نقصد بهذه المصادر البشرية هؤلاء ، وإنما نقصدهم فى صورتهم الصحفية عامة وفى ملامحها الإخبارية خاصة ٠٠

أو ٠٠ فى أسلوب آخر ، نقصد هؤلاء ممن كانوا يملكون تقييم ما يريد الجاحظ منهم ٠٠ هؤلاء الذين كان يبحث عنهم ، كبحت المندوب الصحفى أو المراسل ، فإذا عرفهم ، وحدد مواقعهم قام بالانتقال اليها وسعى من ورائهم حتى يتم اللقاء ، أو يتم أكثر من لقاء واحد بينه وبينهم ، يحصل خلاله منهم على ما يريد من مادة ، من أفواه أصحابها أو أبطالها أو شهود العيان عليها ، أو المتصلين بها عن قرب ، اتصال عمل ، أو قرابة أو نسب أو معرفة ٠٠٠ وغيرها ، فإذا وجد ضالته عندهم ، لم يكتف بها بل سعى وراء المزيد والجديد والدقيق والمحقق منها ، عند غيرهم فى أماكن ومواقع أخرى ، وربما عند فئة ثانية وثالثة وهكذا ٠٠

وفى سبيل ذلك ، انتقل الرجل الى المدن الكبيرة والصغيرة والقرى ، وقطع البادية وخاض بقدميه فى بحر الرمال ، وأقام بين القبائل ، واقتحم بعض الأحياء الخلفية واجتمع بهؤلاء يأخذ عنهم ، ويرصد ويجمع ويسجل ، وكان له من وراء ذلك كله زادا كبيرا ، ومحصولا وافرا ، توزع على قصود ومباحث هذا التراث الجاحظي ٠

لكن هذا الانتقال من جانبه الى مواقع من يريد الأخذ والاستماع والنقل عنهم ، لم يكن سوى هذا الوجه الأول لذلك النشاط ، أما الوجه الآخر له ، أو الصورة الأخرى ، فكانت تتمثل فى حضور هؤلاء اليه ، واجتماعهم أو لقائهم به ، ووصولهم حتى مكان وجوده ، وعرض بضاعتهم عليه ٠٠٠ ووضعها بين يديه ، أو بين يدي فكره وتناوله ورؤيته الخاصة ٠٠

وإذا كان الأسلوب الأول ، هو الشائع صحفيا ، فإن الأسلوب الثانى يعتبر موجودا أيضا وله صورته وشواهدة العديدة ، فكم من مصادر بشرية عديدة تأتى ، لأسباب عديدة أيضا ، حتى دار الصحيفة - مهما يعدت بين هؤلاء وبينها الشقة ، وحتى صالة التحرير ، وحجرة المحرر أحيانا ، بل ويكون معها خطاب رقيق وأحيانا « هدية » لمن يقبل ، وأنوه هنا بما يفعله مديرو العلاقات العامة فى المصالح والشركات ، ومصدرو النشرة الصحفية ، وأصحاب المصلحة الخاصة فى نشر أخبارهم» (١) وغيرهم، وغيرهم، خاصة هذه الطائفة الأخيرة ، التى تتصل بالمحرر أو بالصحيفة بطريقة ما لتقدم لهم أخبارها وتحرص على ذلك تماما (٢) .

أريد أن أقول ، أن الجاحظ ، كما كان يبحث ويختزن فى فكره ، ويجمع الشتات ويؤلف بينه فقد كان كذلك يقوم بجمع مادته بطريقة يعرفها تماما مخبرو اليوم ومحرروه وكتابه لا سيما « المندوبيون » و «المراسلون المتجولون» ومحررو الموضوعات والتقارير والتحقيقات الصحفية ، وإن كان الى هذه الطائفة الأخيرة أقرب ، ولو كان عصره يعرف ، كما نعرف نحن اليوم استخدام «المسجلات» بأنواعها واشراطها المختلفة ، أو كان يعرف « الفيسديو » أو حتى « الكاميرا » لزاد مقدار ما جمعه أضعافا مضاعفة ولحققنا منه خيرا كثيرا جدا ، مما يتصل بالعلوم والمعارف السائدة عامة ، وجوانب الأدب والصحافة خاصة . . . لكن - وللأسف الشديد - لم تكن هذه المستحدثات قد عرفت بعد، تماما كما لم تكن «الطباعة» قد عرفت أيضا، والا لتضاعفت مؤلفاته ورأينا العجب العجيب مما قام بتأليفه أو جمعه ، ولما ضاع جزء كبير من هذين . . . بل أننا نقول فى النهاية ، أن ما فعله « الجاحظ » من تأليف وجمع معا ، ليس بدعة صحفية فى هذه الأيام ، فعدد كبير من المحررين ، خاصة ممن وصل الى مرتبة «الكاتب الصحفي» يؤلف أيضا، وبعضهم يتبع طرق البحث المعروفة، لكنه فى نفس الوقت لا يترك فرصة تمر دون حصول على الأخبار الهامة ، والهامة جدا ، كما أن بعض جوانب مادته المقالية ، وقبلها مادة التحقيقات الكبرى أو الأمونجية التى يكتبها تتطلب مثل هذا الجانب « الجمعى » جانب السعى وراء الجديد من الأخبار والمعلومات والآراء والمواقف والتحليلات ، فتلك هى « مادة مادته » أن صح التعبير ، وبها تثرى ، وتجتذب أفضل العقول القارئة . . .

أى أنه حتى فى الحالتين ، التأليف والجمع معا ، يبقى الجانب الصحفى

الجاحظى واضحا للعيان يقدم دليلا جديدا على « حضوره » الأدبى والصحفى
معا ..

ثم ماذا ؟

غير أننى وأنا ألفت النظر الى هذه « المصادر البشرية » التى استقى منها
« الجاحظ » مادة أدبه وصحافته أتوقف قليلا لأقول :

(أ) أنها كانت متعددة المستويات والفكر والشخصيات والمواقع والمهام
أو المناصب ، كان من بينها الوزير والعالم والراوية للشعر لشاعر واحد أو
لأكثر من شاعر ، وكان من بينها أصحاب القصص والأخبار ورواة الأنساب ،
تماما كما كان من بينها فى بعض الأحيان طائفة من النوعيات الغريبة تجمع
بين رجال الطرب وأهل الفن وهواة الغرائب ، وحتى للصوفى والسفلة .

(ب) أنها لم تكن هى والمصادر المخطوطة مؤلفة أو مترجمة تمثل
مصادره الوحيدة الى ما جمع وألف ولكن كانت هناك بعض المصادر الأخرى ،
لا سيما تجريبته الخاصة ، وما أجدرها بأن تكون فى مقدمة هذه المصادر
نفسها ..

وكالعادة ، يتبقى أن نقدم أمثلة مما ذكره « أهل الدار » ، من رجال
الأدب واللغة ، مما يتصل بهذا الموضوع نفسه ، ومما يؤيد دعوانا ، وأكرر
على طريقة « شهد شاهد من أهلها » .

★ ان دراسة قيمة ، بل هى عندى من أفضل الدراسات التى تناولت
الرجل ، يقول فيها صاحبها مما يتصل بهذه الزاوية : « وأقام أركان بحثه
واستقرائه على المشاهدة والتجربة والاختبار ، ورجل فى سبيل تحقيقه العلمى
والطبيعى الى كثير من الأقاليم والأقطار » (٣) .. ليس بالامكان ،
أن نخيف هنا ، الى جانب « تحقيقه العلمى والطبيعى » تحقيقه الصحفى «
أيضا .. ولا سيما وهذه المادة بالذات - كما أشرنا وكما سنرى بعد ذلك باذن
الله ، كانت هى الأقرب الى اللون كتابته ، حتى ليفصلهما أحيانا خيط رقيق ،
ورقيق جدا ؟

★ ويقول رائدان من رواد الأدب العربى بحثا وشرحا وتحقيقا ، فى
تركيز منهما على طريقته التى اتبعها فى تأليفه لكتابه الأشهر : « البخلاء » ..
(الجاحظ)

« لم يجهت إلّا يحاط أن صور الخلاء في كتابه هذا ، لأنه لم يبعثهم من بطون التاريخ وتقدم الأخبار وعتيق الأسفار ، بل جاء بهم من بيئته واستخدم من خالصه وخطائه ذرى الظرف والدعابة ، أما من البصريين وأما من البغداديين وأما من غير هؤلاء وأولئك ممن سمع عنهم أو رويت له أخبارهم في البخل ومذاهبهم في الجمع والمنع » (٤) ٠٠

ثم ماذا أيضا ؟

معاشة ٠٠ وحضور

عند حديثنا عن الجاحظ « نتاج عصره » ، خلال صفحات سابقة - الفصل الثاني : معالم جاحظية ٠٠ توقفنا عند حد معين من تقديم الدلالات والشواهد التي توضح كيف أن الجاحظ هو نتاج شرعى أصيل ، للعصر الذي عاشه ، والذي أطلق عليه بعضهم ، على الرغم من كل ما زخر به وازدحم من صور ، تعبير « عصر الجاحظ » ، توقفنا حتى لا تختلط الحدود وتتشابك بين فقرة وأخرى ، وثالثة أيضا ، ومن هنا ، وإذا كانت الفقرة السابقة تصور مؤثرات عصر الرجل عليه ، فإن فقرتنا الحالية تتجه الى بيان صور مشاهد تفاعل الرجل مع بيئته ، ومعاشته لكل هذا « الزخم » العصري ، بمن فيه وما فيه ٠٠ تماما كما سنتناول في فقرة ثالثة - بإذن الله - كيف قام الرجل بتصوير هذا العصر نفسه وكان خير شاهد عليه ٠٠ هل أقول أن جميعها تعتبر من بين الشواهد المؤكدة لجانب صحافة الرجل ؟ ٠ أم أنتظر حتى نفرغ من سطورها وكلماتها ؟ ٠ ان الأمر يستوى - في رأينا - بعد أن اتضحت بعض ملامح صورة « الجاحظ صحفيا » ولكن مهلا ٠٠ فما يزال هناك الكثير !

ان صحفى العصر الحقيقى ، ابن مهنته ، العارف بها وبمتطلباتها فى أى مكان كان موقعه من خريطة العمل الصحفى ، مندوبا كان أو كان مراسلا ، أو مخبرا أو محررا أو رئيسا لقسم من الأقسام النوعية من مثل : « الخارجى - الشؤون العربية - التحقيقات - الفنى » وحتى ان كان من قسم للخارج أو ما يعرف عربيا بـ « سكرتيرية التحرير » ٠٠ وغيرهم وغيرهم - وقياداتهم قبلهم - لا بد لأمثال هؤلاء من الالمام بأشياء كثيرة ، ومعرفة أشياء أكثر ، ومثلها وعلى نفس الدرجة من الأهمية ، الانصهار فى بوتقة العمل ، والنزول فيه الى أقصى درجة ، بل والى درجة « الوجد » و « العشق » أيضا ، فتكون الصحافة « محبوبته » التى تملك عليه لبه وحسه ومن هنا فهو يعيش صحفيا

بطوال يومه ٠٠ حتى وهو نائم تقتحم عليه أجلامه وتتداخل معها ، فيقفز من فراشه أحيانا لطلب مكالمه مهمة أو تسجيل فكرة جديدة بسرعة قبل أن ينساها ، أو يحاول تذكرها في الصباح ، فيجد أنها قد تبخرت منذ طلعت عليها الشمس يوم جديد يكون حافلا بالعمل ككل أيام الصحفي ، أو هكذا ينبغي أن يكون حاله ٠٠ نحن نقول هنا - معشر الصحفيين - ما عبرت عنه - علميا - في سطور سابقة بقولنا ان الصحفي ، أى صحفى ينتج لأنه يكون من بين ما يحرص على أن يحققه لنفسه وفي نفسه ، وإلى جانب أشياء وخصائص أخرى عديدة ، هذين الجانبين :

أولا - المعيشة الكاملة لما حوله •

ثانيا - الحضور الذهني الصحفى ، لما يسمع أو يشاهد أو يجرب أو يحس ٠٠

٠٠ ما الذى يعنيه هنا بالنسبة لموضوعنا ؟ ٠٠ وما الذى يربط بين هذين ، وهما من شروط النجاح على المستوى الصحفى العام والخاص والفني ، ويكل أشكال العمل ، وبين « الأدب الصحفى » عند صاحبنا ، أو جانب الصحافة فى شخصه ٠٠

ولعله يكون من المناسب هنا ، أن يكون مدخلنا الطبيعى الى الموضوع ، يتمثل فى قراءة سريعة ، لسطور من بعض مؤلفاتنا تتناول هذين الجانبين ٠٠

● - أما عن الجانب الأول - المعيشة - فاننا نقرأ قولنا عن هذه النقطة أنها : « المعيشة - الصحفية هنا - الكاملة لكل هذه المصادر المتنوعة - المعيشة الكاملة للناس والمشاهد والصور التى يمر بها من زاوية إمكانية أن يوجد بينها ذلك المشهد أو تلك الصورة ، أو ذلك التعليق الشفهي ، أو تلك الهمسة الخافتة التى يمكن أن تتحول الى فكرة موضوع أو حديث أو تحقيق أو مقال (٥) » ،

● وأما عن الجانب الثانى - الحضور الذهني الصحفى - فاننا نضيف قراءة قولنا :

- ٦٨ -

انه يكون مثل حضور ممثل المسرح وهو يقدم دوره على خشبته ، ويعيشه تماما ، انه أيضا ، الحضور الصحفي لكل ما يسمع أو يرى أو يقال ، فلا تكفى المعاشية الصحفية وحدها ، وإنما لابد من جانب « الاثارة » نحو ذلك الموضوع أو الفكرة أو المشهد الذى لابد من التوقف عنده ، والكتابة عنه بما يعكس هذه المعاشية نفسها ومن هنا فالحضور هو أبرز الخطوات الصغيرة أو الفرعية التى تتم من خلال هذه المعاشية وتتفاعل معها ٠٠ وحيث يصدق قول القائل : « المادة الصحفية عامة ، والتحقيقات والمقالات خاصة ، هى بنات شرعيات لملافاكار التى لن تأتى بغير حضور صحفى كامل » (٦) .

٠٠٠ وإذا كان ذلك كله ، على الرغم من اختصار ما قرأناه ، يقترب بنا من حقيقة ما نتناول ويؤكداه أيضا ، فانه يعنى عندنا أن نعود فنتساءل فى مدخل آخر « مفتاحى » وأكثر اقترابا من الموضوع نفسه ، مع تركيز هنا - بشكل وقتى فقط - على الجانب الأول ، وإلى حين ٠٠ نقول ، نعود فنتساءل : هل كان الجاحظ « معاشيا كاملا » لما حوله من أحداث وصور ومشاهد وزوايا ازدهم بها مجتمع « آل عباس » وشهدتها حواضر « العباسيين » ويواديهم ، وزخرت بها مساجدهم ومكتباتهم ، وضجت بها ، أو تلالأت ، دورهم وقصورهم ؟ ٠٠

هل عايش الرجل ذلك كله وباحساس مسئول ، وانخرط فيه ، وذاب معه ، وشفه الوجد بصوره ، وأخذ العشق بلامحه ، أم انه وقف بمنأى عنه ، وعن أحداثه ، وبمعزل عما تتابع من ألوان نشاطه ؟

وفى تعبير آخر ، قد يكون هو الأكثر بقاء ، ونحن نتحدث عن واحد من أبرز رواد البيان العربى نقول : هل تم التفاعل بين الرجل وبينته وعصره ، شأن كل مفكر عظيم وأديب خالد ، وصحفى قدير ؟

من خلال هذه الزاوية الصحفية نقول ، ونقدم صورا ومشاهد معضدة ومؤيدة : وبطبيعة الحال ، فانه لا يمكننا - فى هذه العجالة - الاحاطة بكل ما كان ينبغى عليه - كرجل أدب وصحافة معا - أن يتفاعل معه ، أو يشاركه فيه ، أو يقتحم أثونه ، مما كان يمر به هذا العصر ، ويصطخب فى عبابه ، فحسبنا هذه الصور المختلفة كلها :

(أ) فى المجال الريفى العقائدى :

وإذا كنا قد أشرنا من قبل فى سطر واحد الى أن الرجل قد رآى احدى طوائف أو فرق « المعتزلة » وتحدث بلسانهم ، فأننا نفسر هذا الكلام كله ، ونضيف اليه مزيدا يلفت النظر الى هذه المشاركة الفعالة ، أو المعاشية الايجابية ، لما كان ينتشر فى عصره من نزعات ومذاهب ، نقول عنها وعنه :

إذا كان من المعروف تاريخيا ، أن مسألة « الخلافة » هى الموضوع الأول الكبير الذى دب بشأنه الخلاف بين أمة المسلمين ، وتكونت حولها فرق الخوارج والشيعة ثم المرجئة والمعتزلة الذين ينتسبون الى « واصل بن عطاء » الذى اعتزل مجلس استاذة « الحسن البصرى » على اثر مخالفته له مع « عمر بن عبيد » واستقلالهما بنفسيهما فى مسألة الكبيرة ، الى جانب تفسيرات أخرى عديدة لهذه التسمية (٧) ٠٠

المهم ان من أبرز تعاليمها الاعتداد بالعقل وحرية الفكر ٠٠ ولم يكتف الجاحظ بأن كان من أتباع شعبتها الأساسية ومقرها البصرة ، بل انخرط للرجل فى هذه الفرقة ، وحارب مع قادتها بالوعى والفكر والدعوة الى العدل والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين بالنسبة كمرتكب الكبيرة وكان له فى ذلك مواقف وكتابات عديدة ، خاصة فى مجال الدعوة الى اعمال الفكر واستخدام العقل والحرية المسئولة وعدم تقييد العقل والفكر ، كل ذلك مع ايمان كامل بالله ، وقدرته وعظيم صنعه فى خلقه ٠٠ بل لقد فشلت عن مواقفه مدرسة معتزلية جاحظية كاملة ، شأن قادة الفكر المؤثرين ٠٠ وعن ذلك يقول أحد الدارسين ٠٠ « ٠٠٠ وهكذا تقوت على يدهم - يقصد أساتذته كالأخفش والنظام وغيرهما - نزعة العقلية الى أن اكتملت شخصيته الفكرية فكون مدرسة مستقلة عن بقية المعتزلة سميت بالجاحظية » (٨) ٠

(ب) فى المجال الفكرى والعلمى والثقافى :

٠٠ وإذا كان الجاحظ - شأن كل قائد فكرى وأديب ملتزم وصحفى متفاعل - لم يرض الا بالدور القيادى فى صفوف المعتزلة ، وطور من أفكارهم وأرائهم ، فإنه كذلك فى مجالات الفكر والعلم والثقافة الأخرى ٠٠

٧٠٠ -

ان نظرة على مشاركته الجادة ، في المجالين الدور والقصير والمنتديات الفكرية في عهده لتؤكد ذلك كله ، وان جولة مع العديد من مؤلفاته ، في هذه المجالات المتعددة ، لتضيف الى ذلك مزيدا من التأكيد ، واننا كنا - في سطور أخرى - سوف نشير الى هذه المؤلفات والتصنيفات المتعددة ، فاننا هنا نقول :

— فهو لم يترك مجالا معروفا ، الا درسه وألف فيه

— وهو قد سبق الى موضوعات وأفكار جديدة ، لم يتوصل اليها احد من قبله ، وبذلك بلغ قمة تفاعله مع حضارته ، وتأثيره بالاجاب في صورها ومشاهدها .

— وهو قد قدم لمجتمعه ولتاريخ الأدب والعلم زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفا في ألوان شتى من المعرفة ٠٠ « رأى أكثرها في مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفى ٦٥٤ هـ ، (٩) ٠٠ الا يعني ذلك انه من واضعي أسس الموسوعية وصلاتها وثيقة - كما قلنا - بصحافة المجلة ، وتاريخها .

(ج) في المجال اللغوي والأدبي :

اما في هذا المجال ، او في هذين المجالين ، فمن المؤكد ايضا ان كتاباته ، وان دراساته ، وان كلامه ، وان لغته ، وأن أسلوبه ، جميعها ، قد امتدت الى آخر ما وصلت اليه هذه كلها في عصره ، وتفاعلت معها ، وهضمتها ، وخيرتها ثم ، راحت بعد ذلك ، يفعل هذا الحس اللغوي والأدبي والمجتمعي النادر المثال وكأثر للثقافات المتنوعة ، والمترجمات العديدة التي راح يغترف منها ، وينتقن فرصتها ويرد ينابيعها المتدفقة من حضارات أخرى عديدة ، راحت « العبقرية الجاحظية بعد ذلك كله تقدم لغة صبيحة متطورة ، وعصرية ، وأدبا جديدا في فكره وموضوعاته ، لم يعهده الناس من قبل ، ولم يكن للمجالس أو المنتديات أو أهل الدور والقصور معرفة به ، بعد أن أعمل فكره ، وسلط بصيرته النافذة ، وأطلق عينه الفاحصة المدققة ، على مجتمعه ، ومن ثم راح يقدم لنا هذا الأدب الراقى ، الذي نقول هنا ، ان المسافة كانت قريبة جدا ، بينه وبين الأعمال الصحفية بل لقد اختلطت المسافات والمساحات وذابت

الحدود والألوان وأصبحنا - باستثناء طابع العصر نفسه - فى حاجة الى عين خبير ، لتفصل بين ما هو أدب ، وما هو ضحافة ولذلك ، قلنا ونقول ، أن هذا النتاج نفسه كان أدبا صحفيا رفيع المستوى ، بل ان نصفه كان للأدب، ونصفه الآخر للصحافة ٠٠

والأكثر من ذلك ، أن لغته قد طاوعته تماما ، وان ثروته من الألفاظ والمفردات قد أعانتته على تقديم هذا اللون الجديد من الأدب الحى الواقعى الذى يعيش بين الناس ، ويتحدث عنهم ، وبهم ، ومن هنا فقد قيل عن ذلك كله ، وعن حق وجدارة ايضا :

● فعن أدبه يقول أحد الدارسين الذين أشرنا اليهم من قبل : « ٠٠ ومن هذه المظاهر أنه أدب واقعى لا أدب خيالى ، وهذه الواقعية تظهر فى نواحيه المختلفة ، ومنها أنه يعتمد على إبراز الصورة كما يراها الرأى وكما يرسمها المصور لا على الصور الخيالية » (١٠) .

● وأما عن لغته وأسلوبه الذى عرف به ، فاننا نكتفى هنا بهذا القول الذى يتناولهما ، مما يقربنا من الأسلوب الصحفى ، وهو موضوع دراسة خاصة خلال الفصل الأخير من هذا الكتاب ٠٠ يقول دارس آخر للغته أو « للنزعة الكلامية » عنده : « ٠٠ لم يكتف الجاحظ باختيار الألفاظ مطابقة للمعنى . مطابقة مادية فحسب ، بل انه اختارها سهلة المخرج ، متلائمة الحروف ، موسيقية مناسبة صوتا للحركة المعنوية ، تتوافر فى مقاطعها صفة التجانس بين اللفظ والمعنى أما من حيث السهولة والسلاسة فاننا نعرف ان الكلمات الكثيرة الأحرف تعد بوجه عام من الكلمات الصعبة » (١١) .

(د) فى المجال الاجتماعى :

عرف الجاحظ مجتمع العباسيين وخبره، ورأى صوره المختلفة. الإيجابى منها والسلبى بل وانخرط فى بعضها ومارسه ، ولكنه - من زاوية صحفية - كان كغيره من المحررين ، من ذوى الاختصاص العام ، أو غير العام ، أضاف الى معرفته بهذا المجتمع ، بناسه ورجاله وساسته وعلمائه ولغوييه وثواره ، وحتى أكثر جوانبه رمادية ، أو حتى أكثر مواقع ثوبه الزاخرة بـ « الرقع » ٠٠ أضاف إليها التفاعل الإيجابى ، المتمثل ليس فقط

- ٧٢ -

فى نقل صورده ومشاهده فى واقعية وصدق ، وليس فقط فى جانب رواية ماكان .
يجرى ، أو وصف ما كان يدور هنا أو هناك ، فى المساجد والمنتديات والدور
والقصور والأسواق وأحيانا الزنج ومجتمعات الفارسيين والروميين ،
والمكتبات وغيرها ، وغيرها ، وانما وبإضافة النقد الاجتماعى إليها وكان هذا
النقد يبلغ فى أحيان كثيرة ، مرتبة حادة ، أكثر من حساده وخصومه ..

بل اننا نستطيع أن نقول أن جوانب نقده ، قد غطت صور السلب فى
مجتمع العباسيين كله ، بل وامتدت من المجال الاجتماعى ، أو المجتمعى ، الى
غيره من المجالات لا سيما المجال السياسى نفسه ، شأن كل أديب وصحفى .
متابع ، متفاعل وملتزم .. واذا كنا هنا نكتب عن ذلك كله باختصار شديد ،
لأن حياة الجاحظ وفكره وجوانب شخصيته تحتاج الى أكثر من مجلد ، فأننا
نكتفى بهذه الكلمات ، نضيف إليها - كمادتنا - قولاً لأحد من اقترّبوا من
الرجل ، أكثر مما اقترّبنا .. وذلك عندما يقول :

« .. يكفى أنه نبه على فساد أوضاع حاولت ثورة الزنج ٢٦ رمضان
٢٥٥ هـ - أغسطس ٨٦٩ م - أن تقوم منها ما قدرت على التقويم وفهمه ، وربما
بدت المغالاة فى تلك المقالة إلا أن من يقرأ كتاب البخلاء الذى وضعه الجاحظ
فى آخر أيامه ، الى جانب بعض رسائله التى ترتفع أحيانا الى مستوى
الكتب النادرة ، يلحظ أن صاحب الزنج أو قائد الثورة ، كان ينطلق فى الواقع
من حيث انتهى صاحب البخلاء » .. (١٢)

فهل يعنى ذلك ، أن كتاباته ، كان لها أثرها فى قيام هذه الثورة شأن
جميع الكتاب المؤثرين ؟

بل لقد قمنا بعمل احصاء لهذه الفئات والصور والمشاهد والأشخاص
الذين تناولهم نقده الاجتماعى ، وقلمه الذى اعتبر « ترمومترا » لقياس درجة
حرارة هذا المجتمع بما فيه ومن فيه ، فبلغت أكثر من مائة فئة وصورة ومشهد .
كان من بينهم على سبيل المثال لا الحصر :

« الذين يأكلون على جميع الموائد - المتلونون - الماديون - المنجمون -
المتحذلقون - الدجالون - البخلاء - العصبيون - الجشعون - المستغلون -

- ٧٢ -

الاطباء المزيقون - المسرفون في تصوفهم وزهدهم - العسامة الجاهلة -
المتشققون بما ليس فيهم - المغرورون - الذين يشوهون الحقائق - الذين
يفسرون الأشياء والظواهر على هواهم - الرواة - رواة الأخبار من البحريين
- العامة الجاهلة - المترجمون - ٠٠ الخ ٠٠٠

ونكتفى بهذا القدر ، حتى لا تختلط الأوراق ، ونقتحم مجال الحديث
عن الجاحظ المؤرخ أو شاهد عصره ٠٠ كما ستصوره السطور القادمة بأذن
الله ٠٠

(هـ) في مجال الامتاع الفكاهي :

لكننا في هذا المجال السابق نفسه - مجال النقد الاجتماعي - لابد وأن
نتوقف قليلا ، لنشير الى أن هذه الحاسة نفسها - الحاسة النقدية الأدبية
الصحفية المجتمعية معا - قد امتدت به واطلعتنا على جانب آخر من جوانب
شخصيته المتفاعلة مع مجتمعا ، المؤثرة فيه ، المتأثرة به ، والراغبة في
تحويله من حالة الى حالة ، ومن صورة الى صورة ٠٠

أما هذا الجانب ، فهو جانب الفكاهة عنده ، فانه لما رأى الثغرات تنتشر
بوجوانب السلب تزخر بهذا المجتمع ، كانت الفكاهة بمعناها القريب من الأدهان ،
هي أحد أسلحته النقدية التي أحسب أنها حققت - مجتمعا - ما كان يجب أن
تحققه ، كما قدمت لنا إحدى مقدمات وطلائع «المقال الكاريكاتيري» ٠٠ وهو
أدب صحفى من الدرجة الأولى ٠٠ نكتفى هنا بالإشارة الى أن الرجل يعتبر
فارسه بلا جدال ٠٠ وإلى ذلك يشير أديب كبير قائلا : « ومن مفاخر تراثنا
أن نرى الجاحظ يرسم بنثره ما يرسمه هذا الفن المعاصر الذى نسميه
الكاريكاتير هذا اللون من الكتابة الذى مارسه عندهم - الغرب - فى القرن
السادس عشر وابتدأ فى كتابه - الأحلام المضحكة - كما نجده عند إيراسم فى
كتاب تمجيد الحماسة ٠٠٠ ، (١٣)

ونكتفى بهذا القدر من صور التلاحم وننتقل الى صورة أخرى ، أو
جانب آخر هو :

شاهد على العصر

ان المعاشة لما يدور حول الانسان من صور ومشاهد ، مهما كانت درجتها أو درجة تأثيرها عليه فكرا وعملا وأداء ، ومهما بلغت شدتها ، لا تكفى وحدها لكى تصنع منه كاتيا ، أو مفكرا ، أو أدبيا ، أو صحفيا ، خاصة ، هذا الأخير ، كما نعرفه وتعرفه المساحات الهامة المؤثرة ، والتي تستقطب أنظار القراء ، على صفحات جريدة أو مجلة ٠٠ أقول ، أن هذه المعاشة وحدها لا تكفى لكى تصنع منه أمثال هؤلاء وانما ينبغى أن يتبعها هذه الصور ، كلها أو بعضها ، ودرجات متفاوتة ما بين أديب وأديب ، ومحرر ومحرر ٠٠

— رؤية خاصة لها — الأحداث والصور والمشاهد — الجليل منها والحقير ، العظيم والتافه ، الواضح والغامض ، البين والمستتر ، دون اهمال لجانب منها .

— حضور ذهنى يلح ما يمكن أن يحظى به بعضها من جوانب أهمية حالية أو متوقعة .

— استجابة لما يمكن أن يسفر عنه بعض هذه الأحداث والصور والمشاهد من دلالات ونتائج حالية أو مستمرة تستقطب اهتمامات القراء .

— اختيار هذه كلها ، ورصدها وثبتها ٠٠ تمهيدا لأعمال الفكر حولها ، والبحث عن عللها وأسبابها ، وما يتصل بها أو يتفرع عنها من قضايا ذات أهمية أدبية أو علمية أو سياسية أو دينية أو تاريخية أو مجتمعية .

— ثم التعبير عنها ، بعد استقراء واستنفاد وتجربة ودعم مادتها .

— فى شكل فنى أدبى أو صحفى معين ، أو هما معا

— وتقديمها للقراء بعد ذلك كله ، وبعد تحرير وحداتها الفنية المختلفة وصياغتها بالأسلوب المناسب لمادتها ، ولن ينتظر أن يقبل عليها من القراء قراء الصحف والمجلات كما نعرفها اليوم ، وقراء « الأوعية » الأدبية والصحفية خلال هذا العصر ٠٠ عصر الجاحظ .

ان المعاشية الكاملة ، ينبغي أن تترجم الى مثل ذلك ، والا كان الأديب-
أو الصحفي كغيرهما من العاديين من الناس ، أو اكتفيا بالجلوس فى مكان.
النظارة ، أو « مقاعد المتفرجين » وهو ما لم يعهد الناس منهما ، ولا يرتضيه
لهما أحد ، وانما يكون عليهما - جزاء ما منحهما الله من فكر وموهبة - أن
يترجما ذلك التفاعل ، وأن يحولا ذلك الانصهار مع أحداث العصر ، الى مادة
مقروءة ومسموعة ومشاهدة ، يكون فيها راحة للقلوب ، وملأذا للنفوس ،
وثناء للعقول وتنمية للفكر ، وتوجيها وتنقيفا وتعلما ، وحثا على الخير
ودعما للدين والوطن ومشاعر الانتماء اليه ، بل ويكون فيها امتاعا يجلو حسدا
العقول وموانسة تضىء جنبات القلوب ، وترفيها يجدد النشاط ويغسل العقل.
مما علق به من أدران ويزيل كدر النفوس القلقة المذبذبة المؤرقة .. تماما كما
يكون فيها من زاوية الصحافة هذه المرة ، وبالإضافة الى ذلك كله ، اعلاما
للقارئ بما يهمه ، واطلاعا له على ما يتصل بيومه وغده وتوضيحا وتفسيريا
يساعده على تلمس الطريق واختيار الأصلح واتخاذ القرار ، كما تقدم له -
ما يترجم اليه هذا التفاعل من مواد وأنماط - حلا لمشكلاته التى تعذبه أو تؤرقه،
وتوجيها مثمرا نحو الخير والعدل ، وتأيدا وتمضيذا لقيم مجتمعه ومثله ..
وغيرها ، وغيرها ..

تلك هى ما ينبغي أن يسفر عنه هذا التفاعل ، أو هذه المعاشية ، فما
بالك ونحن لا نتحدث عن أديب أو محرر عادى ، وانما نحن نتحدث عن
« الجاحظ » ؟

وبلا تردد نقول أن الرجل الذى شهدناه خلال الفقرة السابقة ، يعايش
أحداث عصره معاشية كاملة ، فى جوانبها المختلفة التى ازدهر بها هذا العصر
نفسه دينية وعلمية وثقافية وأدبية واجتماعية ، وحتى ما اتصل بها من جوانب
الفن والطرب أو اللعب واللهو .. وقدمنا لمعايشته لهذه كلها .. عدة صور
مختارة ..

نقول ؟! الرجل الذى فعل ذلك ، لم يكن من النوع الذى يقنع بالجلوس
فى صفوف المتفرجين ، أو المستمعين فقط ، ما تقدم منها أو ما تأخر وانما
وكما شهدناه غير مرتضى بالوقوف كجزيرة معزولة ، وسط بحر من الأحداث
المتلاطمة ، بل مشاركاً فى تحديد مسارات بعضها ، وصنع البعض الآخر منها،
وتوجيه دفة البعض الثالث ، والمعارضة القوية لبعضها الرابع ، والتأييد

- ٧٦ -

عبرجائه وعن وعى كامل منه لبعضها الخامس ، وهكذا فانتا نقول أيضا أنه لم يتوقف عند هذا الحد من المشاركة « الشفهية » أو تلك التى تقوم لتهدأ بعد حين ، أو هذه التى تتم داخل المساجد ، أو فى الدواوين أو القصور أو الدور أو المجالس المختلفة مركزة على عشرات أو مئات الحاضرين حتى وإن كانت تنتقل بعد ذلك منها الى غيرها من مجتمعات بغداد وآبصرة وسامراء ، والكوفة ، والنجف ، وكربلاء وآبشار والزبير ، وحتى خارج العراق أيضا ، لم يكتف الرجل بذلك كله ، لأنه بحسه الفنى والجماهيرى ، يعرف تماما أن صناعته هى الكتابة ، وأن الله قد يسرها له ، ويذر بذرتها فى صدره ، لا لتظل حبيسة هذا الصدر ، أو تخرج فى مثل هذه المجتمعات وحدها ، وإنما - وكل أديب وصحفى - لتصل بين الناس ، وتصل اليهم .

ومن هنا ، فقد راح الجاحظ يكتب فى ذلك كله ، وينقل صورة ذلك كله ، حتى لم يترك كبيرة ولا صغيرة فى مجتمعه بكل هذا الذى ازدحم به واضطرب فى جنباته وثار على سطحه أو فى أعماقه ، أو قريبا من هذه الأعماق ، بما ترد فى أركان الدواوين ، وساحات المدن والأسواق ، وفوق رمال الصحراء ، وتحت قباب المساجد وفى ظلال القصور الأسطورية ، وفى دهاليز الأحياء الشعبية ، جامعا بين ذلك كله ، وبين قراءاته فى بطون الكتب ، ومعاشرته للعلماء والأخذ عنهم حتى اجتمع للقراء منهما لم يجتمع من آخر ٠٠ ومن ثم فقد استحق ككل مفكر وأديب وصحفى مشارك بالإيجاب لا السلب ، وبالفعلية لا الهامشية ، وبالقوة لا الضعف ، وبالنشاط لا الخمول ، وبالمقول والفعل ، والشد والجذب ، والهدوء والصخب ، هذه التعبيرات التى تطلق على أمثاله من هذا النقر ٠٠ خاصة من الكتاب الصحفيين .

فهو « شاهد على العصر » ، وكتابات مرآة للسنوات التى عاشها ، بل أن هذه الكتابات الجاحظية نفسها ، والتى تمثل هذا التراث الضخم المتنوع ، لتمثل أيضا إذا نحن رحنا نقسمها ونجزئها ، خير شاهد على صحافة عصره ، بالأسلوب المخطوط نفسه والذى جمع كل هذه الألوان السائدة ، والتى كانت جديدة على الناس والقراء وقتها ، وأحسب أن بعضها ما يزال يحتفظ بحدته حتى اليوم ، إلا بالنسبة لدارسى الأدب عامة ، أو متابعى الجاحظ خاصة ٠٠

وقبل أن نعود الى هذه النقاط بالتفصيل مرة أخرى ، فى فقرة خاصة توضح بعض معالم « الجانب الصحفى » عند رجلنا ، وقبل أن نقدم « شهادة

الأهل ، التى تتصل بهذه الزاوية ، زاوية الجاحظ الأديب الصحفي شاهد عصره ومراته، بكل هذه المعاشية والحضور، وبعوض ما أسفر عنه من «ادب صحفى» تقوم بالقاء نظرة الطائر على كتابات هذا الرجل ، نقرأ فيها عصره ، ونشاهد - فى مراتها الصادقة - صورة وملامح ذلك العصر . بل اننا فى هذا السبيل، وحتى يكون حديثنا مستمرا ، ولنصل من الكلام ما انقطع ، فاننا نختار عددا من المجالات السابقة نفسها التى عايشها الجاحظ ، ثم نقوم بالتقاط أجزاء من رصده لها واختيار الصالح منها ، ومعالجته اياها وتصويره لدقاتها ، مما لا تقع عليه ولا تدركه بنفس هذه الدرجة غير عين اديب او صحفى ، أو اديب صحفى ، او صحفى اديب ، ثم تقدمها للقراء . تقديمنا مناسباً لها ولهم فى شكل ومضمون غلب عليه الطابع الأدبى مرة ، والصحفى مرة ٠٠ وهكذا ٠٠

● فعلى سبيل المثال لا الحصر ، من قوله عن هذه انطائفة التى انتشرت فى عهده والتى تسمى الزنادقة ، وما اتصل بكتبهم والتأليف عموماً قوله (نقد أدبى ومجتمعى وسياسى) ٠٠ « لو كانت كتب الزنادقة كتب حكم وكتب فلسفة وكتب مقاييس ، وسنن نبیین وتبيين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعرف الناس أبواب الصناعات أو سبل الكسب والتجارات أو كتب ارتقاقات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب - وإن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يبعد من مآثم - لكانوا ممن يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان ، والرغبة فى التبين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، والذى يدل على ما قلناه أنه ليس فى كتبهم مثل سائر ولا خبر طريف ولا صنعة ادب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحه ولا تدبير حرب ولا منازعة عن دين ولا مناضلة عن نحلته ٠٠ لا ترى فيها موعظة حسنة ، ولا حديثاً موفقاً ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ولا ترتيب خاصة ، فأى كتاب أجهل وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الاطاعة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين والناس لا يحبون الا ديناً أو دنياً ، »

● وإذا كان قد أوضح بذلك رأيه فى الكتب والكتابة الهادفة ، وأعلن عن واقعية تفكيره ، فاننا نقرأ له فى جانب آخر وهى هنا عدة صور من كتابه: « البخلاء » ٠

وكان رجل يغشى طعام الجوهري ، وكان يتحرى وقته ولا يخطيء ، فإذا دخل ، والقوم يأكلون وحين وضع الخوان ، قال : « لعن الله القدرية من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام ، وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سأكله ؟ » فلما أكثر من ذلك ، قال له رياح : « تعال بالعشى أو بالغداة ، فإن وجدت شيئا فالعن القدرية والعن آباءهم وأمهاتهم » (١٤) .

وجاء غلام الى خالد بن صفوان . بطبق خوخ ، اما أن يكون هدية ، .
واما أن غلامه جاء به من البستان . فلما وضعه بين يديه قال : « لولا أنى أعلم أنك قد أكلت منه لأطعمتك واحدة » (١٥) .

● ونعود مرة أخرى الى رؤيته لبعض جوانب الطوائف التى شاعت فى مجتمعه ، فيصور بذلك هذه الزاوية من زوايا عصره ، وما حفل به من فرق ومذاهب وشيع وجماعات . ليثبت بذلك كله ، ويصور عديدة أخرى ، هذه الشهادة الجاحظية على عصره ، أنظر قوله عن طائفة « المانوية » أصحاب مانى بنى فاته الذى أخذ مذهبه الدينى من المجوسية والنصرانية . يقول الجاحظ :

« ان أناسا حين جهلوا الأسباب والمعانى ، وقصروا فى الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها ، خرجوا الى الحجود والتكذيب ، حتى أنكروا خلق الأشياء ، وزعموا أن كونها باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت أتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش ، وأعد فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآذب ، ووضع كل شيء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم ، فلا يبصرون هيئة الدار وما أعد فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالمشى ، قد وضع فى موضعه وأعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وسخط وذم الدار وبانيها . » (١٦) ويضيف قائلا . « فهذه حال هذا الصنف فى انكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنهم لما غيبت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل فى الأشياء ، صاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه فى اتقان خلقتهم ، وصواب هيئته ، وزبما وقف الواقف منها على الشيء يجهل سببه والأرب فيه ، فيسرع الى ثمه وعيبه ووصفه بالخطأ والاحالة ، كالذى أقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة » . الخ (١٧)

كانت هذه مجرد قطرات قليلة من ذلك الغيث الأدبي الصحفى ، الذى صور به مجتمعه بما فيه ومن فيه ، أو كانت عدة نقاط من ذلك « المحيط الجاحظى » الذى انعكست على صفحته الهادئة حيناً ، غير المستقرة فى حين آخر ، الثائرة فى أحيان كثيرة ، لكنها الصادقة الى أبعد حدود الصدق ، الأمانة الى أبعد حدود الأمانة وذلك فى حدود وسائل البحث العصرية المتاحة انعكست على هذه الصفحة ، أحداث ووقائع وظواهر وعلوم وفنون وجسد وفلسفة وأدب وأشخاص وعادات وتقاليد وجد ولهو ولعب وتفاهات وقيان ورقيق وفساد ولصوص عصره ، تلك التى عاشها وخاض غمارها ، ورأها بعينى أديب وصحفى معا ، وعبر عنها تعبير الرجلين معا ٠٠

لكننى وحديثى عن الجاحظ ، لا أترك هذا المجال أيضاً ، دون أن أتوقف قليلاً لاستشهد مرة أخرى - بأقوال من هم أقرب منى الى ساحته والى تراثه ، أو من سبقنى الى الوقوف على مشاركته ، أو خاضوا عبايه ، وخبروا أمواجه ٠٠ بالعلم ، والعلم وحده ٠

★ ان واحداً من هؤلاء يقول ، بعد أن يعدد جوانب تخصصه العام الذى أخذ فيه من كل بستان زهرة وعلى سبيل المثال لا الحصر : ٠٠ وكما مثل الجاحظ حرية الفكر فى عصره ، مثل أيضاً نتيجة تلك الحرية وهى مزدوجة : نتيجة حسنة هى ازدهار العلوم العقلية ، ونتيجة سيئة هى الانحلال فى العقيدة والأخلاق فمثل الجاحظ فى آثاره تشعب الحركة الفكرية وانطلاقة العلوم واتساع الأفاق ٠٠ - ومثل الجاحظ من جهة أخرى الأخلاق والعقائد وأظهر انحلالها فى فئات من أهل عصره ، فصور حيل التجار وخزعبلات المتسولين وسخافات الشبان المتخنثين وزندقة المتزندقين وما أشبه ذلك من ضروب الفساد ، (١٨) ٠

★ وبعد أن يتحدث عن بعض معالم طريقته الفنية وأساليب تناوله للناس والأشياء والصور والمواقف فى عصره ، وهو ما سنخرج عليه بعد قليل بادن الله ، يقول أحد رواد الدراسات الأدبية العربية : ٠٠٠ « اتنا نجده يعنى بحكاية عصره وتمثيله تمثيلاً دقيقاً بحيث تعد أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر الذى عاش فيه » (١٩) ٠

★ ويقول الأستاذ نفسه فى مكان آخر ٠٠ وفى معرض حديثه عن هذا

— ٨٠ —

الموضوع : « أما بعد ذلك فانه كان مصورا عظيما ، اذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه فى ذلك قدرة غريبة على الملاحظة ، وهى قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة ، كما يحسن القصص من جهة أخرى » ، (٢٠) .

وهكذا يبدو الجاحظ الكاتب الواقعى ، القريب من الناس ، المعاشيش لهم المصور لعصره ، بكل ما فيه ومن فيه من صور الايجاب والسلب ونكتفى بهذا القدر من النقاط التى تقف مؤيدة لشهادته على العصر ، ودقة وصدق وحالية وواقعية تصويره له ٠٠ وهى — فى مجموعها — تمت بصلة نسب غير منقطع وشائج قريى « أصيلة » الى المادة الصحفية ٠٠ كما سنضيف الى « مصداقية » ذلك ، جوانب جديدة ، تتناولها السطور القادمة بانذن الله ٠٠ قالى نقطة أخرى هى :

٠٠٠ وأكثر من حاسة

واذا كنا قد تحدثنا فى سطور سابقة — هى السطور الأخيرة من الفصل الثانى — عن بعض المعالم الجاحظية ، التى تعتبر من جنس الصحافة ، قدر اعتبارها من جنس الأدب ، أو تلك التى تقف بصاحبها على الجسر الموصل بينهما ، ومع اقتراب من جانبيه الصحفى ، وكانت هى على وجه التحديد حسه أو حاسته الاجتماعية وحسه أو حاسته الحافظة ، وحسه أو حاسته الثقافية ، أو النهمة دائما ، الظمأى أبدا ، الى المزيد من الثقافة والمعرفة ٠٠

اذا كنا قد تحدثنا عن هذه الحواس ، أو الاحساسات عنده ، فاننا هنا نواصل ما بدأناه ، أو نصل من الحديث ما انقطع ، لنقول أنها لم تكن الحواس أو الاحساسات السابقة وحدها ، وانما تجمع له غيرها ، مما يضعه أيضا فى مرتبة افضل المحررين وكبار الكاتبين ، خاصة فى مجالات الأخبار والموضوعات والتقارير والتحقيقات والمقالات بأنواعها خاصة مقالات التجربة الخاصة ، والنقدية والكايكاتورية ٠٠ أما هذه الحواس أو الاحساسات التى نضيفها هنا والتى تصلح لأن تضعه فى مصاف هذه الطائفة الموهوبة والموهوبة جدا ، من الصحفيين ، تماما كما هو بين الأدباء ، فانها :

- ٢ - الحس السياسى
- ٣ - الحس الاتصالى
- ٤ - الحس الجماهيرى
- ٥ - الحس الفكاهى
- ٦ - الحس الأئبى
- ٧ - الحس الفنى

أما عن الحسين الأخيرين ، فلا أعتقد أننا نستطيع أن نضيف الى ما قاله عنه النقاد والمؤرخون ورجال اللغة العربية ، من معاصريه ومعاصرينا ، من عرب وأجانب ، من مؤيدين ومعارضين ، من مستشرقين وغير مستشرقين ، لا نستطيع أن نضيف الى ما قاله عنه هؤلاء جديدا مؤثرا ، ونكتفى هنا - مؤقتا - بإشارة واحدة مختصرة الى قول المستشرق المعروف « شارل بلان » ، الذى جاء فيه ، ونحن معه فى ذلك الى حد كبير ، بعد أن رأينا « العجب العجائب » خلال هذه الرحلة مع كتابات رجلنا ٠٠٠ « ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ » (٢١) ٠٠

على أننا وإن كنا سوف نعود الى تناول هذين الحسين فى سطور قادمة باذن الله ، تتناول « الأسلوب الجاحظى » وصلته الشديدة بالأسلوب الصحفى ، فإننا - باختصار شديد جدا - نحاول أن نحيط ببعض معالم هذه الحواس كلها ، التى تجعل ممن يفوز بها ، أو يتمتع بوجودها فى نفسه ومصدره ، تجعل منه صحفيا « أنموذجيا » ٠٠ قل أن يوجد مثله فى زمانه ، وأقول وفى زماننا أيضا ٠٠ أنها :

١ - الحاسة الإخبارية :

ذلك أن المشاهد للمادة التى كان الجاحظ يقوم بجمعها خاصة من « المصادر البشرية » وعن طريق « السماع » ٠٠ من الملاحظ أن هذه المادة تعكس حسا إخباريا كانت هذه بعض ملامحه ٠٠ التى يعرفها جيدا « مخبرو الصحف » و « مراسلوها » هذه الأيام ٠٠

- ٠ - الاهتمام بالجوانب التى ينتظر أن تعكس اهتماما بين أبناء عصره
- ٠ - القيام برحلات وأسفار وزيارات متابعة للمواقع والأماكن والأشخاص التى يعرف بحاسته وخبرته وتجربته ، أنها يمكن أن تقدم أخبارا (الجاحظ)

- ٨٢ -

— **القرب والاختلاط الشديد بـ « الاخباريين »** فى زمنه ، حتى يأخذ عنهم بعض ما يتابعه ويقدم الجديد بشأنه ، ويضيف اليه ما يستطيع ، كما يتعرف على طرقهم فى الحصول على مادتهم الاخبارية ، ويختار منها ويطورها

— **الاهتمام بتنوع مادته الاخبارية** ، وجعلها تضرب فى أكثر من مكان وموقع ، وتحدث عن أكثر من غرض

— **اعطاء عنصر « الشهرة »** حقه ، ولذلك فقد كانت عنايته بالغة بأخبار مشاهير عصره من خلفاء وأمراء ووزراء وقادة وقضاة أولا .

— **وفى المقابل ، الاهتمام بأخبار « الحوادث »** وأخبار « الناس » من تلك التى يعرف تماما أنها تستقطب أكثر من غيرها: انظار الجماهير ، وتكون حديثهم لعدة أيام أو شهور أو سنوات ، انطلاقا من جوانب تشويقها واثارتها ، وتليينها لغريزة « حب الاستطلاع » عند أبناء مجتمعه ، والمجتمعات الأخرى عامة . خاصة وقد كان مجتمع العباسيين فى صورته « السالبة » ، يقبل ذلك كله مع وجود هذه الصور به .

— **الاهتمام بجانب صحة المصدر** ، والتأكد من ذلك قدر الطاقة ، بوسائله الخاصة ، كما يفعل الصحفيون اليوم ، فما ثبت صحته منها اعتمده وأضافه ، وما لم يتأكد من صحته انتظر حتى تواتيه شواهد هذه الصحة ، وما لم تثبت صحته الغاه وأبعده ، وقد يشير الى ذلك أيضا .

— **الاهتمام بجانب ثبت مصادره** ، والإشارة إليها فى مقدمة كلامه وأحيانا أكثر من مرة .

— **الاهتمام بأن تستقطب أخباره جميع الطبقات الموجودة فى مجتمعه** ، ومن هنا فانه لم يقصرها على قطاع واحد أو قطيعين أو ثلاثة ، وانما راحت تغطى جميع الأفراد والطبقات والأعمال والوظائف السائدة فى عصره ، نعم ، لقد تحدثت أخباره عن اللصوص والحواة بأنواعهم ، ولكنها تحدثت أيضا عن العلحاء والشعراء وأصحاب الفرق والجماعات ، كما لم تهمل أصحاب الحرف ولا القيان ولا أرباب التجارة ومن هنا ، فقد راحت تغطى جميع المواقع الهامة ، التى يمكن أن يوجد فيها صناع هذه الأخبار ، وفى سبيل ذلك ، فانه لم يرحل

- ٨٢ -

الى البادية فقط ، وانما غاص بقدميه فى احياء البصرة ، ودماليزما ،
ومستنقعاتها أيضا ، وكان « حى الزنج » يجد كثيرا من اهتمامه ، فى نفس
الوقت الذى شهدته فيه مجالس العلم ، ومساجده ومنتديات الفلسفة والكلام ،
وأروقة المغنيين ٠٠ وما الى ذلك كله ٠٠

كان الرجل راوية ، وكان اخباريا ، وكان مؤرخا ، وجميع هؤلاء يمتون
بصلة قرى كبيرة ، الى رجال الأخبار ، والى مندوبيها ومحرريها دون أن ننسى
أو نتجاهل طابع عصره نفسه ٠٠ بطروفه واهتماماته ٠

بل لقد اثبتت بعض كتابات الرجل من تلك التى أشرنا وسوف نشير اليها
أنه كان يتمتع ببعض مواهب العاملين فى حقل جمع الأخبار وملكاتهم الفريدة
لا سيما : حب الاستطلاع ، والتوقع ، والتوجه المباشر الى مواقع الأحداث
وصناعها ٠٠ بل انه لا بد من وقفة أخرى عند طبيعة مادته الاخبارية تؤجلها
الى صفحات قادمة فحسبنا ذلك حديثا عن هذا الجانب ٠

٢ - الحاسة السياسية :

وهى تلك التى بواسطتها يدرك الرجل أبعاد ما يجرى فى مجتمعه من
أحداث سياسية ، ويعرف كنهها ويصل الى ما خفى من مقاصدها ، ويضع
يده على أبعادها ، وتتكون له من خلال ذلك كله نظرة غالبا ما تكون صائبة ،
يستطيع بها أن يحكم على مسار الحدث أو القضية وعلى ما وراء الآراء
والاتجاهات والنزعات والمواقف ، بل ويمكنه جمع خيوط هذه كلها الى بعضها ،
والربط بينها ، والخروج من خلال ذلك كلها بالتحليلات التى تصبح فى معظم
الأحوال ، وبالنتائج المحتملة أو المتوقعة ، والتى يقدمها للقراء أو يفيد منها هو
نفسه فى جوانب اتجاهاته المختلفة ٠٠

وواضح أن هذه الحاسة لا تتكون بين يوم وليلة ، وليس من السهولة
بمكان أن يتمتع بها كاتب من الكاتبين أو أن تتوافر له ، وانما يكون من دون
ذلك مشاق ومشاق ٠٠ فهى تحتاج الى مثل هذه المعرفة بالأجواء والأحزاب
والطوائف وخططها وبرامجها ومعايشتها ، حاجتها الى الثقافة العامة
والسياسية ، حاجتها الى معرفة التاريخ المعاصر ، والاتصال بأبطاله وصناعه ،

والقرب منها ، ثم حاجتها الى ملكة استقراء وتفسير وتحليل واستنباط للنتائج ، لا تتوافر للجميع وعلى نفس المستوى ٠٠ كما أن التجارب الملمة تكون خير دليل الى هذه الحاسة نفسها ٠٠

ولا أحسب أن هناك أحد المتابعين النصفين ، للعصر وتياراته السياسية يمكنه باستقراء حياة الرجل ، ومعرفة جانب فكره السياسي ، وانتماءاته ، ومعايشته لهذه التيارات ، الا أن يحكم له بتوافر هذه الحاسة مرتين ، مرة من خلال هذه المعاشة نفسها ، ومرة من خلال كتاباته وهو يصور هذه الأحداث ويفسر بعض ما خفى منها ويعلق عليها ويستخلص أبرز نتائجها ، ضاربا المثل من التاريخ والأحداث الماثلة والمتاحة ، ثم ينهى ذلك كله بتوجيه مفيد ومثمر للقراء ، دون أن ينسى في ذلك كله ، أن يهاجم خصومه ، وأن يحمل عليهم حملة شعواء يفتد بها حججهم ويفضح أساليبهم ويكشف عن قساة ما يدعون له ٠٠ وهكذا ٠٠

أليس هذا هو ما يفعله بعض كتاب السياسة ، أو معظمهم هذه الأيام ؟ مرة أخرى نقول أن دليلنا الى ذلك هو كتابات الرجل نفسها ، واليك طرقا منها ، يتصل بهذا الموضوع نفسه ، موضوع حاسته السياسية ، والكتابات التي تتحدث عنها مما حفل به التراث الجاحظي :

● فهو يقول عن منهجه في الشك كطريق الى اليقين ، وبعد أن يروي إحدى الروايات عن عالم الحيوان : « ٠٠ ولم أكتب هذا لتقريبه ولكنه رواية أحببت أن تسمعها ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبني الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل ، وبعد هذا فأعرف مواضع الشك وحالاتها المرجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً » (٢٢) ٠٠ وقد اتبع هو هذا المنهج على المجالين الاخباري والسياسي ، بل والأدبي النقدي معا ٠٠

● وإذا كان قد مر بنا خلال الصفحات السابقة بعض كلامه عن « الزنادقة » كفرقة دينية ، فأننا نلاحظ أن من أهم مظاهر كتاباته وفكره السياسي :

— الاهتمام بالجانب العقلي التفكيرى الشكى التحليلي

- الاهتمام بالمناظرة وطرح الشيء وضده
- الاهتمام بالأساليب الجدلية العديدة ٠٠

● وفى النهاية ، نشير الى دفاعه الحار عن العرب ، كموضوع سياسى وجد اهتماما كبيرا عنده ، وأبدع فيه — ككاتب مقالة سياسى — أيما إبداع ورد على مهاجميهم والطاعنين فيهم ، كما رد على « الشعبوية » واتباعها حتى أفحمهم بالمنطق والحجة ، والجدل السياسى رفيع المستوى ، والثقافة العامة والتاريخية ، التى تبهر القراء ٠

٣ - الحاسة الاتصالية :

يختصر الطريق الى النجاح ، ويقطعه بسرعة وتمكن فى أن واحد ، هذا النفر من المحررين أو الكاتبين ٠٠

- من ذوى الشخصيات الجذابة
- الذى يزن الكلام على مواضعه ولا يتحدث الا بما يعرف
- حلو الحديث طيبه ، دبلوماسى الكلام
- الذى يضيف الى رصيده من المعارف والأصدقاء كل يوم جديدا.
- الذى يحترم الآخرين ، ويقصص عن هذا الاحترام
- الذى تراه لأول مرة وكأنك تعرفه منذ سنوات
- الذى يحرص على حسن علاقاته بالآخرين ، ويدعمها كلما وجد الى ذلك سبيلا

- الذى يقيد منه جلساؤه ، معرفة وثقافة وأدبا وخلقا ، وحتى فى مجال الملاح والطرائف ٠٠
- الأوغياء بطبعهم وطبيعتهم ٠٠

اننا نعبر عن ذلك كله بالمحرر من ذوى « الحس الاتصالى » ، من ذوى العلاقات العامة الحسنة القوية المدعمة مع الجميع ، خاصة صناع الأحداث وأبطالها ، وحتى هؤلاء الذين يكونون « الصف الثانى » أو « الصفوف الخلفية » فكثيرا ما يكون هؤلاء من ذوى الفائدة الكبيرة التى يقدمونها لأسباب عديدة (٢٢) ٠

قهل كان رجلنا ممن يملك هذا الحس ، هل كان سهل التعرف والتعارف ،
يقيم العلاقات ويحرص عليها ، ويزين المجالس بطلو حديثه ، من الأوفياء
والمعارف والأصدقاء ؟

اننا نقول هنا ، أن عددا من معالم هذا الحس الاتصالي قد توافر للرجل
وتاريخه والمجتمعات التي كان يغشاها وبعض الأقوال عنه وكتابات - وهي
مصادرنا اليه - شهادة على ذلك ، أقول عددا ولا أقول كل هذا العدد ، أو كل
معامله ذلك أنه ولعدة أسباب لم يتمكن دائما وفي جميع الأحوال من أن
يكون هذا الرجل ، ومن هنا أقول أن هذا الجانب قد توافر له بنسبة معقولة ،
لا بأس بها وفي حدود ٦٥ بالمائة مثلا ، لكنه لم يتوافر بما هو أكثر من هذه
النسبة ، أما هذه الأسباب فهي :

- دمامة وجهه وتواء عينييه
- خوف الحساد له من نشاطه وسرقة الأضواء منهم ولذلك فقد
اجتمعوا عليه ، وحاول هو قدر ما وسعه أن يكون بمنأى عنهم
- جرأته وشدة في الحق ، ومثله لا يرحب به الجميع
- بعض لئيماته السياسية والحزبية والطائفية الحالية أو السابقة
من تلك التي تغيرت ، أو انقلب الزمن عليها وعلى أصحابها
- تقده اللادع وسخريته المرة بمن يستحق ذلك ، حتى من أصحاب
هذه المجالس التي كان يغشاها
- وإذا كان الدارسون له أو متابعوه أو معاصروه ، وإذا كان هو نفسه
أحيانا ، جميعهم قد عبر عن ذلك بأقوال عديدة من بينها وعلى سبيل المثال لا
الحصر ، هذه الأقوال كلها :

● ما يذكر عن بعض حاسديه ، ومؤيديه ٠٠ قال أبو القاسم
السيرافي : « حضرت مجلس الأستاذ أبي الفضل بن العميد فجرى ذكر الجاحظ
فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به ، وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل
قلت للوزير : سكت أيها الأستاذ عن الرجل في قوله ٠٠ قال ، لم أجد في مقالته
أبلغ من تركه على جهله ولو وافقته وبيئت له لنظر في كتبه وصار بذلك
إنسانا » (٧) .

● وأعجب من ذلك ، ما رواه « المسعودى » فى كتابه الأشهر : التنبيه بالاشراف من أن الجاحظ كان يقول : « كنت أؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الجسن النظم ، وأنسبه الى نفسى فلا أرى الإسماع تصفى اليه ، ولا الارادات تتم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة وأنحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيقبلون على كتبها ويسارعون الى نسخها ، لا لشيء الا لنسبتها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل العصر من حسد من هو فى عصرهم ومتنافسته على المناقب التى عنى بتشبيدها » (٢٥) .

إذا كان ذلك هو ما حدث بالنسبة لجانب « الحسن الاتصالي » ، ومما عانى منه الرجل نفسه ، فأننى أرى هنا أنه لم يكن شرا كله ، فقد وفر له الوقت المناسب للبحث والدرس والتأليف ، وأبعده - نسييا - عن حاقديه وحاسديه ومثله يكون له العديد منهم ، تماما كما صرفه الى دعم وتتنية الحواس الأخرى غير أننى هنا أيضا ، وفى مجال الاقتراب من الجانب الصحفى عند الرجل ، أعود فأقول :

— انه لم تكن له اليد الطولى فى ذلك ، وبمعنى أن ذلك لم يكن موقفه من الناس بقدر ما كان موقف البعض منه للأسباب السابقة ، حتى اليوم يحسدونه ويعارضونه .

— أن ذلك لم يكن ديدنه دائما ، ولم يكن حظه باستمرار ، بل لقد كان للرجل صداقاته وعلاقاته الطيبة والوطيدة ، بل وكما كان يوجد من يحقد عليه أو يحسده أو يغار من شخصه ويضايقه علمه وأدبه ولا يرحب به فى مجالسه ، فقد كانت هناك أيضا هذه الكثرة التى رحبت به وحفلت بمجلسه واستمعت اليه وأخذت عنه ، وأنصفته .

بـ ان ذلك لا يتفق عنه كثيرا هذا الجانب من « المكونات الصحفية » ، لأن بعض المحررين والكاتبين يعيش أيضا هذه الصورة ، وربما لمثل هذه الأسباب أو لغيرها ، بينما الكل يشهد أنه « متصل ماهر » وأن علاقاته تكون جيدة ومفيدة وقائمة ودائمة ، وعلى الرغم من وفائه الذى جبل عليه .

تلك صورة موجودة أيضا ، وفى أواسط عسدد ناجح ومرموق من المحررين .

- ٨٨ -

— ان من المؤكد أن هذه النسبة من الضعف القائم فى جانب هذالك الحس الاتصالى عند الرجل ، كان يتجه أولا ، الى هؤلاء الذين أرادوا ابعادهم أو عزله أو عزلته ، وهؤلاء ، ووفقا لنوعياتهم ، لم يكن يرتجى منهم خيرا كثيرا أو حصادا مثمرا ، وانما المر والعلقم ..

— وحتى هؤلاء ، فقد قدم بعضهم للرجل فرصة كبيرة ، لتناول مواقفهم ، ومعارضتهم ، وحسدهم ، وانكارهم للحق ، فجاءت كتاباته عنهم ، خاصة فى جانبها الفكاهى الساخط ، قمة فى موضوعها .. ومثلا ما يزال يحتنيه محررو المقالات الفكاهية والكاريكاتيرية ، وغيرهما ، بل كان نقدم لهم ، فريدا فى بابيه ، وجميعها سوف نعود اليها فى سطور قادمة بانذن الله ..

٤ - الحاسة الجماهيرية :

وبالمثل ، يفوز بعطف القراء عليه ، وتأييدهم له ، ويحيطونه بحبهم ، ويكون مثار اعجابهم ، ذلك المحرر الذى يتمتع بما نطلق عليه تعبير : « الحس الجماهيرى » ومن ثم يتابعونه وتحظى كتاباته باهتماماتهم ، ويبحثون عنها وينتظرونها ، ليس لأنه وعلى طريقة بعض المخرجين السينمائيين : « الجمهور عايز كده » .. أو هذا « نجم شباك » وذلك نجم « رصيف » .. وما الى ذلك ..

ان الحس الجماهيرى هنا يعنى أولا ، وبإحدى ذى بدء ، هذه الأمور بعضها أو كلها أو أمثالها :

— ان يكون المحرر مع الجماهير فى افراحها واحزانها وربما معهم فى هذه الأخيرة أولا ..

— أن تكون قنوات اتصاله بهم وعلى جميع المستويات قائمة وقوية ودائمة ..

— أن تكون لديه فكرة كاملة ومعرفة طيبة ، عما يؤرق منامها ، ويطحن أحشاءها ، ويهدد يومها وغدا ..

— أن يقف الى جانب قضاياها بكل قوة ، لا سيما قضايا الضعفاء ..

- ٨٩ -

والذين ليس لهم سند ، والمظلومين ، والذين يعانون من النكران والجحود ،
أو يطبق البعض على أنفاسهم ، أو يضطهدهم لسبب من الأسباب . . .

— أن يحاول أن يأخذ بيدها ، ما وسعته في ذلك المحاولة ، وأن يفكر
لها وبها ومن أجلها ، وأن تكون هي مجال فكره ، ومقياس جهده ، ومعين
مادته ، كلما وجد الى ذلك سبيلا ، وأن يجاهد من أجل شق الطرق ، والحصول
على الفرص التي تتيح ذلك كله .

— أن يتمتعها ويؤنس وحشتها ويزيل صدا قلوبها ويبدد قلقها ، قدر
الطاقة ، وبمقدار ما تسعفه أدواته الى ذلك فكرا وتعبيرا . .
والى غير ذلك كله من جوانب تلقى بمسئوليات مضاعفة على كاهل
المحرر أو الكاتب ولكنها في مقابل ذلك كله ، تكتب له النجاح وتحقق لكتابته
الذيع والانتشار ، ويكون من ورائها العائد المناسب معنويا وماديا ، بل
لقد ترفعه الجماهير هنا الى مرتبة القادة — قادة التفكير — الذين تنتظر
كلماتهم وتوجيهاتهم وتأخذ بها ، وهكذا يكون أمثال هؤلاء ، محل ثقة القراء ،
ومحط أنظارهم ، ومبعث آمالهم وسعادتهم . .

٠٠ اننا نتبع هنا طريقة جديدة ، فمن رصيدنا الذي استطعنا جمعه
من هذا التراث الجاحظي نفسه ، نقدم صورا مما يعكس هذا الحس عند
الرجل ، مقداره ودرجته وربما ، مما خالف فيه كثرة من كتاب أهل عصره ،
الذين كان جل اهتمامه وغايته موجها الى الخلفاء والامراء والاثرياء ، ومن
إليهم . . . وصحيح أن ذلك كان هو طابع العصر ، وأن الأديب كان يقدم
شعره أو نثره ليعيش ، ولا اعتراض لدينا على هذا الواقع الذي أملت الظروف
نفسها ، ولكن ، في نفس الوقت فانه لا يسعنا الا ان نثبت ذلك للرجل ، ومن
بين صوره على سبيل المثال لا الحصر :

« سكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقنا له قميصا ، فلما صار القميص على
النديم خاف البدوات — من يبدى زايه — وعلم أن ذلك من هقوات السكر ،
فمضى من ساعته الى منزله ، فجعله ارتكازا لامراته ، فلما أصبح سأل عن
القميص وتفقده ، فقيل له انك قد كسوته فلانا ، فبعث اليه ، ثم اقبل عليه ،
فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ! . .

ويعد قاتنى أكره أن يكون لى حيد ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر .
فردة على حتى أهبة لك صاحيا عن طيب نفس ، قاتنى أكره أن يذهب شيء من
مالى باطلا ، فلما رآه قد صمم وأقبل عليه فقال يا هذا ان الناس يمزحون
ويلعبون ولا يؤخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله ٠٠ قال له
الرجل ، انى قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبى على الأرض حتى جيئته
لامراتى ، وقد زلت فى الكمين وحذفت المقاديم ، فان اردت بعد هذا كله أن
تأخذه فخذ ٠٠ قال نعم ! ، آخذه لأنه يصلح لامراتى كما يصلح لامراتك ،
قال فانه عند الصباغ ، قال فهاته ، قال ليس أنا أسلمته اليه ، فلما علم انه قد
وقع قال بأبى وأمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشر
كله فى بيت وأغلق عليه فكان مفتاحه السكر ، (٢٦) .

٥ - الحاسة الفكاهية :

وإذا كنا نرى أن كثيرا من الصحفيين الأدباء ، أو الأدباء الصحفيين ،
فى الماضى والحاضر يتمتعون بقدر لا بأس به من الحاسة الفكاهية ، التى نرى
مالا يراه الآخرون ، من جوانب السلب ، ومن الرقع الموجهة فى ثوب
المجتمع ، ثم تتبع ذلك نقدا لاذعا يهدف الى الاصلاح ، ويدفع الى العمل على
تقديم الحلول ، ويثير من يتناول هذا النقد بما يتضمنه من قدر كبير من التفكه
والتندر ، يثيره الى الحركة ، فى اتجاه تغطيه ما كشف وستر ما جرت عليه
هذه الروح ، وإذا كنا مع بعض كبار الممارسين فى قولهم بأن الكاتب ، لابد
أن يكون على قدر من الحس الفكاهى ، وأن محرر المقالات الصحفية بالذات
يحتاج الى هذا الحس أكثر من غيره من مؤلفى الكتب أو الباحثين ٠٠ إذا
كان ذلك كله هو ما يدور ، فمن المؤكد أن « رجلنا » لم تنقصه هذه الحاسة
أيضا ، بل كان له من طبيعه وطبيعته ، وتجاربه وثقافته ، وجلساته ومخالطته
الناس ، ومن عينه « الجاحظة » التى تطول المشاهد كلها ، ومن بصيرته
النافذة ، ثم من روح الدعابة المتأصلة فيه ، كان له من ذلك كله الرصيد الطيب
الذى يتصل بهذه الحاسة نفسها وما تستطيع أن تقدمه فى المجالس ، ودكاكين
الوراقين ، والمنتديات ، وعلى الورق ، مما يبهر حتى قارئ اليوم نفسه ،
ويدفعه الى تقبل نقاجها ، من ملح وطرائف ونوادر واللوان نقد وكاركاتير
جميعها قدمها قلمه فى أكثر من مجال ومقال ، اشرنا فى السابق الى بعضها ،
وسوف نشير فى اللاحق أيضا ، الى بعضها الآخر .

- ٩٩ -

ان هذه الحاسة نفسها ، وان هذا القدر الكبير من تمتع الرجل بها ، كان وراء هذا التناج المتميز مما اطلق عليه الباحثون تعبير « أدب الفكاهة » . . .
والذى نستطيع ان نقول أنه من أبرز كتابه العرب ، لا بل من أبرز كتابه فى العالم كله ، بل من رواده الأوائل كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ذلك لأن مستوى كتاباته الفكاهية ، ولأن كثرتها وتنوعها . . . جميعها تعطى له هذه المنزلة الرائدة ، فاذا أضفنا الى ذلك ان هذه الفكاهة ، كانت فى أغلب الأحوال ذات المضمون الهادف ، الذى يفيد منه الفرد والمجتمع ، فضلا عما كانت تزخر به من معالم هذا الحس نفسه ، لاسيما فى مجال اختيار وانتقاء هذه الصور والمشاهد والمواقف والشخصيات والافكار والقضايا ، التى تعرض لها قلمه اللاذع ، وتحويلها - جميعها - الى عمل فنى رفيع اذا أضفنا ذلك كله ، لعرفنا أى نوع من الرجال كان ، ولازدادت معرفتنا بهذه الحاسة ، . .

اننا نقرا - على سبيل المثال - لأحد المهتمين بدراسة هذا الجانب ،
دراسة جادة هذه السطور :

● « فالجاحظ كثيرا ما كان يستخدم الاطار الفكاهى ليوجه نقاداته الهادفة وسخرياته المرة الى الأدواء الاجتماعية والنقائص الأخلاقية التى يراها فاشية فى الناس من حوله ، فكان يعالج نكيره لها ، ويصب نقمته عليها فى ذلك القالب الأدبى الرفيع ، الذى رأينا أن نطلق عليه : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » (٢٧) . .

● ويقول المؤلف نفسه أيضا : « ويعد الجاحظ اسبق الكتاب العرب احتفالا بالفكاهة، وحشدا لها فى ثنايا مؤلفاته، وهو صاحب مذهب مشهور فى مزج الهزل بالجد ، والخروج بقارئه من أدق المسائل - فلا غرو اذا أن نجد الجاحظ رائدا للادب الفكاهى عند العرب بحسب أنه أول من ابتكر هذا الأسلوب المرح ، وأسبق من عنى بمراعاة ميول قرائه وتقنن فى امتاعهم ، وادخال السرور عليهم ، ابقاء على نشاطهم وابعادا للملل والسأم عنهم » (٢٨) .

واذا كانت هذه - بعون الله - ليست آخر كلماتنا عن هذا الجانب من جوانب الفكاهة عند صاحبنا ، فاننا نقول هنا أن ارتباط هذه الحاسة الشديد بكتاب المقالات ، وان اتصالها الوثيق بالأساليب التحريرية الصحفية الهادفة الى « كسر » حدة جمود مادة معينة ، ومساعدة القارئ على المتابعة ،

- ٩٢ -

والقبض على « حبل انتباهه » كما يقول المؤلفون الأجانب في موضوعات التحرير الصحفي، فضلا عن الرؤية الناقدة النافذة المحتجة المطالبة بالتغيير، نقول أن في ذلك كله ما فيه من جانب صحفي كان الرجل يتمتع به، إلى جوار هذا الجانب الأدبي.

وفي تعبير آخر، أن هذه الحاسة الفكاكية قد أنتجت أدبا صحفيا كذلك، مما يقف إلى جوار ما ندعو إليه من لقاء الضوء على « الجاحظ » الأديب الصحفي معا.

● ● هوامش هذا الفصل :

- (١) محمود أدهم : « فن الخبر » ص ٢١٠
- (٢) أخذ عنى هذا المصدر الخارجى الذى انفردت بذكره على هذا النحو وباستخدام هذه الكلمات ، ضمن كثير جدا مما أخذه من كتابى : « فن الخبر » دون اشارة الى ذلك الا مرتين « ذرا للرماد » وبطريقة خاطئة ، فى هامشه ، وثالثة بقائمة مراجعه التى أخذ كثيرا منها عن قائمة مراجعى بالكتاب المذكور ، وبوقوع الخطأ أيضا ، فعل ذلك مكتفيا بطريقة غير أمينة وسهلة الاكتشاف ، وترك بصماته تلمغه صاحب صفحات أطلق عليها اسم : « الخبر الصحفى » وضوابطه الاسلامية ، وقد آليت على نفسى التنويه بقولته كلما جاء ذكر ما نقله عنى دون اشارة الى اسمى ، حتى لا يعود اليها ، هو وأمثاله لما فى ذلك من تشييط للهمم واضعاف للمعنويات ومجافاة للروح العلمية وأمانة البحث وتعارض مع روح الزمالة ، بل ومع « الضوابط الاسلامية » التى غلف بها هذه الصفحات وظن أنها تعطيه الحق فى السطو على مجهود غيره وإبتزاز أفكاره .
- (٣) حسن السندويى : « أدب الجاحظ » ص ١٩٩ .
- (٤) الجاحظ : « كتاب البخلاء » ص ٢١ من المقدمة بقلم : أحمد العوامرى وعلى الجارم .
- (٥) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحريير الصحفى العام » ٢١٩ .
- (٦) من حديث خاص أدلى به الى الباحث المرحوم الأستاذ سليم اللوزى بالرياض ١٩٧٦ .
- (٧) للاستزادة ، انظر أحمد أمين : « فجر الاسلام » ص ٢٨٢ ومابعدها .
- (٨) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ » ص ٢٥ .
- (٩) الجاحظ : « كتاب الحيوان » من مقدمة المحقق عبد السلام هارون ص ٥ .
- (١٠) الجاحظ : « كتاب البخلاء » من مقدمة المحقق د . طه الحاجرى ص ١٥ .
- (١١) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ » ص ٥٢ .
- (١٢) أحمد كمال زكى : « الجاحظ » ص ٥ - ٦ .
- (١٣) جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ١/٢٢/١٩٨٥ ، من مقال بقلم توفيق الحكيم .
- (١٤ - ١٥) الجاحظ : « كتاب البخلاء » ص ١٢٣ .
- (١٦ - ١٧) حنا الفاخوزى : « الجاحظ » ص ٦٤ .

٩٤ - .

- (١٨) المصدر السابق ص ٤٦
- (١٩) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٣
- (١٠) المصدر السابق ، ص ١٦٤
- (٢١) محمد زغلول سلام : « دراسات في الأدب العربي » ص ٤٥٦
- (٢٢) الجاحظ : « الحيوان » ج ٦ ص ٣٤
- (٢٣) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع في جانبه الاخبارى
- « مقترح العودة الى كتابي : « فن الخبر » لاسيما ما ادرج تحت عنوائى :
- « مفتاح العمل الاخبارى » ، « الأخبار من الكبار والصغار أيضا »
- (٢٤) الجاحظ : « الحيوان » ح ١ ص ١٠
- (٢٥) حنا الفاخورى : « الجاحظ » ص ١٨ ، نقلا عن المسعودى
- (٢٦) الجاحظ : « كتاب البخل »
- (٢٧ - ٢٨) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ »
- ص ٥ ، ٦

الفصل الرابع

الحاسة الصحفية عند الجاحظ

خلال الفصل السابق ، تناولنا بالحديث بعضا من الحواس التى يقول
أساتذة الصحافة وعلمائها بضرورة توافرها بقدر طيب ، فى ذلك الشخص
الذى يرغب فى العمل المتميز ، وفى ارتقاء سلم النجاح فى بلاط صاحبة
الجلالة ، حتى يصل الى درجة «الكاتب الصحفي» المرموق ثم قدمنا عدة نقاط
توضح وجودها مجتمعة . مى صدر صاحبنا وفى فكره ٠٠

وبالمثل ، وخلال السطور الأخيرة من الفصل الثانى ، قدمنا عدة شواهد
على حاسة « الجاحظ » الاجتماعية ، وعلى حاسته الحافظة ، وكذا على
حاسته الاجتماعية ٠٠٠

وذلك كله فضلا عن حاستيه الأدبية والفنية ، ولنا معها وقفة أخرى ،
من الزاوية التى تعنى هذا الكتاب أيضا ٠٠

أقول خلال سطور عديدة سابقة ، رحنا نقدم هذا الحديث عن وجود هذه
الحواس جميعها عند الرجل ، وتمتعه بقدر كبير منها ، الى درجة يحسده
عليها العديد من كتاب وصحفيى هذه الأيام ، شرقا وغربا ٠

تحدثنا عن هذه ، وعن ازدهارها فوق صفحات الرجل ، وانسياب
ما يدل عليها بين ما يدل على ملكاته العديدة ، لكننا ، خلال هذه السطور
السابقة نفسها لم نتحدث عن حاسة أخرى هامة جدا ، بل لقد أغفلناها عن
عمد ، ذلك كله بينما يستطيع أن يدرك اغفالنا للحديث عنها ، أى طالب
اعلام ، أو أى محرر جديد ٠٠ حيث ترتبط بها بشدة هذه الحواس السابقة
كلها ، بل ونستطيع أن نقول أن محصلتها النهائية - محصلة هذه الحواس -
تصب فى بحرها الصاخب وفى عالمها المتجدد ، الذى يمزج بالحركة والحياة ٠٠
والذى لا يعرف السكون أو الركود أبدا ٠

أريد أن أقول ، ان هذه تصيب وتنتهى الى « الحاسة الصحفية »
والا أصبحت حواسا تعمل فى فراغ ، ولا تنتج عملا صحفيا جديرا بالنشر
والقراءة والمتابعة ٠٠

أى أننا هنا ، وخلال هذا البحث ، وبالإضافة الى ما سبق تقديمه من
صور عديدة ، نستطيع أن نقف شاهدة على هذا الجانب « الصحفى » عند

(الجاحظ)

- ٩٨ -

« الجاحظ » الأديب ، والتي كانت انعكاسا لدرجة طيبة من تمتعه بهذه الحواس كلها بالإضافة الى ذلك ، فاننا نواصل تقديم هذه الشواهد ، ولكن من زاوية أخرى وفي صور متجددة ، ترتبط هذه المرة ، بالحاسة الصحفية نفسها .

لكن من المؤكد ، أن ذلك يعنى أولا - وكما - بالنسبة للحواس السابقة أن نتوقف عند محاولة لتحديد « ماهية » هذه الحاسة نفسها ، ثم تقديم الصور والشواهد والدلائل الخاصة بها بعد ذلك .

ولن نجهد أنفسنا كثيرا في تتبع هذه الحاسة الصحفية في الكتب والمراجع العربية والأجنبية لأن كثرتها لم تتوقف عند تعريف لها ، وإنما سوف نختلص عدة نظرات سريعة الى ما يتصل بها ويصورها من هنا أو هناك ، بينما التجربة نفسها هي خير معرف لها ، ومن هنا نقول أن هذه الحاسة تظهر واضحة ، وتتمثل وتتجلى في أكثر من مشهد أو « محك » أو « اختبار » لوجودها من عدمه ، ولهذا القدر من الوجود نفسه - ودرجاته في صدر صاحبها وفكره . ومن بين صور هذه الحاسة وما يتصل بها مثلا « ١٨ صورة فقط » .

١ - فهي تتمثل في حاسة توقع الأخبار وأماكنها وإبطالها أو مواقعها وصناعاتها .

٢ - وهي تتمثل في حسن اصطفاء أو اختيار ما يصلح من بين هذا الكم الاخبارى الهائل ، للنشر والقراءة .

٣ - وهي تتمثل كذلك في حسن الانتقال والسعى وراء الصور والمشاهد الجديدة التي قد لا يهتم بها غير من يملك هذا الحس .

٤ - ثم في واقعية رصد واختيار وتحرير هذه كلها بأمانة وصدق .

٥ - وهي تتمثل كذلك في اختيار الأفكار والموضوعات الجديدة من تلك التي يمر بها الآخرون من كاتبين ومحررين مر الكرام ، ولا يحفل بها غير من يتمتع بهذا الحس نفسه ، حتى وإن بدا للناس تافها حقيرا .

- ٩٩ -

٦ - وهى تتمثل أيضا فى بحث الروح فى الصور والمشاهد والأفكار والموضوعات القديمة ، ووضعها فى اطر فنية وأشكال جديدة مبتكرة ورؤية معاصرة وصحيحة .

٧ - وهى تتمثل أيضا فى التناول العكسى للأفكار والموضوعات المطروقة قديما أو حال طرقها على يد الكاتبيين الآخرين أو الكاتب نفسه بما يشبه المعارضة أو المناظرة لهذه الأفكار والموضوعات نفسها « الشئ وضده » .

٨ - وهى تتمثل بعد ذلك كله فى تقديم الفكرة الأجنبية المترجمة أو المنقولة « معربة » ، ثم الوقوف منها موقف التأييد أو المعارضة .

٩ - وهى تتمثل أيضا فى ذلك التقديم الشمولى للفكرة المطروقة ، بما يعد سبقا لصاحب التقديم على غيره ، حيث يحيط بها من جميع جوانبها وزواياها القريبة والبعيدة وظلالها ونتائجها بما يذكر بكتابات الموسوعيين المختلفة .

١٠ - وهى تتمثل أيضا فى حسن اختيار زاوية جديدة فى الجانب المطروق ، أو الظاهرة المعروفة ، لكن لم يره أحد من قبل ، ولم يضع يده عليه ، بل ولم يشر اليه بنائه ، لكن الحاسة الصحفية هنا تعرف كيف تصيد ، وترى هذه الزاوية ، وتتناولها .

١١ - وفى الحس الفكاهى وروح الدعابة ، والقدرة على تجسيم العيوب نجدها كذلك .

١٢ - وهى تتمثل أيضا فى التركيز على جانب البطل ، لاسيما عندما يكون جديدا بصورته وشخصيته وعمله وتفرد به فى جانبى الايجاب والسلب .

١٣ - أو جانب المكان ، فقد يكون هو البطل ، وغيره انصاف ابطال ، أو ارباع ابطال ، أو على هامش البطولة .

١٤ - وفى حاسة نقدية تعرف كيف تفرز الجيد من الرديء والصحيح من الفاسد .

- ١٠٠ -

١٥ - وهى تتمثل فى حسن استخراج الشواهد والدلائل والبراهين والأمثلة ، لاسيما من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والسنة الكريمة ، وأعمال الصحابة ، وتوجهات أهل العلم والثقة ، ومن بطون الكتب ، وصور التاريخ .

١٦ - أو تكون فى براعة التوصل الى اللغة التى تكون أكثر صدقا فى تصوير ما كان وما يكون وأصديق تعبيراً عن الصور القائمة ، والمشاهد التى تجرى امام الناس ، حتى وإن اختلفت عما يكون قد عهده قراء ذلك الزمان ، بل ان فى هذا الاختلاف نفسه ما يؤكد حاسته ، وما يدعم تفوقه مادامت لغة صحيحة بغير خطأ أو لحن ، وبغير اسفاف أو تعال على القراء . . . وحيث يتعدى الحرر أو الكاتب بهذه اللغة ، حدود عالمه ، وأبعاد حاضره ، ويقفز فوق جوانب محدودية القراء .

١٧ - بل ان هذه الحاسة قد تتجلى فى حسن صياغة وحدة فنية واحدة أو أكثر من الوحدات التى يتكون منها العمل الفنى كله ، أو النص التحريرى كله - الصحفى هنا - فقد تكون فى جمال ودقة وواقعية وجاذبية العنوان ، أو فى براعة الاستهلال ، أو فى حسن التقسيم أو فى مؤثر ومؤكد ومقرر النهاية أو الخاتمة .

١٨ - تماما كما تكون فى حسن اختيار الكلمات الصادقة والمعبرة والدالة ، وبراعة نسجها وتحويلها الى جمل معبرة شكلا ومضمونا ، ثم فقرات متماسكة ، تعكس ما يريد الكاتب التعبير عنه من أفكار ، وتتشابك ، وتأتلف وتتوحد مع غيرها لتكون هذا النص كله . . .

٠٠ أى أنها فى النهاية وتقريبا تتمثل فى :

« حاسة التعرف على الأخبار والأفكار والموضوعات الجديدة ذات الصلة بجوانب الأهمية المختلفة ، ومواقع استقطاب الانتظار ، ومواطن الجمال والجانبيه ونواحي المجتمع والثقافة والفكر والعلم والدين والسياسة ورصد هذه كلها والتعبير عنها تعبيراً مفيداً واقعياً يقدمها ويبرزها ويحللها ويصل الى سبر أغوارها ، أو عرض أكثر من رأى أو موقف أو نتيجة بشأنها فى

أطار فنى معين بحيث تؤدي جميعها عدة أهداف حالية ومستمرة يقيد منها العام والخاص ، القارئ الحالى ، والباحث والمؤرخ » .

أو فى تلك الظواهر المتصلة بالحاسة التى ترى وحدها وترصد وتعبر عن هذه كلها . .

إننا هنا - فى واقع الأمر - لا نملك إلا الاعتراف بشيئين ، أو التوقف عند ملاحظتين هامتين :

● أما الملاحظة الأولى : وهى الأقل أهمية هنا على الرغم من جدارتها بالتوقف عندها ، فهى أن هذه الرؤية لما تعبر عنه هذه الحاسة وارتباطها بالنشاط الجاظى أدبا وصحافة ، تكاد تقترب كثيرا ، بل تتداخل وتتشابك أيضا ، مع تعريف لا نستطيع هنا التغاضى عنه ، أو تجاهله ، فى هذا المجال بالذات ، وهو تعريف التحرير الصحفى ، ذلك الذى يقول أنه :

« طريقة الكتابة الفنية ، التى تتيح للمحرر الصحفى ، استنادا الى فكر متميز ، ومن خلال قيامه بمسئوليات وظيفته ، تسجيل الأحداث المهمة الحالية والمتجددة ، ونقل الوقائع والتفصيلات والصور والمشاهد المرتبطة بها ، والتعريف بما أسفر عنه البحث وراء عللها وأسبابها الظاهرة والخفية ، وتقديم المعلومات والبيانات المفيدة ، وثبت ظواهر الأنشطة والمشكلات المختلفة والمؤثرة ، وعرض وتفسير ومناقشة الأقوال والتصريحات والأفكار والآراء والاتجاهات والمواقف والقضايا والحلول ذات الجدارة والنفع وتناول ما يستحق من تطوراتها ونتائجها المتتالية ، انطلاقا من صالح الفرد والمجتمع والانسانية ووسيلة النشر ، والتعبير عن ذلك كله ، تعبيرا دقيقا وموضوعيا فى أغلب الأحوال فى عبارات قصيرة ومتناسكة . وبواسطة لغة صحيحة سهلة واضحة وجذابة ، فى شكل عمل فنى صحفى ، يمثل رسالة اعلامية موجهة الى القراء ، تكون صالحة للطبع والنشر والتوزيع فى الوقت المناسب ، على صفحة أو صفحات جريدة أو مجلة » (١) .

وبصرف النظر عن استخدام المصطلحات الاعلامية لا الأدبية ، ومما يتصل بها من أطر وأهداف وكذا ، بصرف النظر عن طبيعة الفترتين وهى ضوء هذه الرؤية الجديدة لأدب الجاظر ، فإننا نقول أن هذا التعريف نفسه

المداخل مع تعريف هذه الحاسة الصحفية ، يصدق كثيرا على عدة ألوان من كتابات الرجل ، فهي أدبية صحفية ، أو صحفية أدبية ، معا ٠٠ ثم ماذا ؟

● وأما الملاحظة الثانية : وهي الأكثر أهمية هنا ، فهي تلك التي تقول ، بأن أكثر صور هذه الحاسة ، ما ذكرنا منها خلال النقاط السابقة ، وما لم نذكر ، جميعها لا يمكن لتابع مخلص ودقيق لكتابات الجاحظ ، وعلى اختلاف أنواعها ، بل ولانعكاس تأثيراتها في حياته وشخصه ٠٠ إلا أن يعترف بوجود ما يقترب من بعضها اقترابا شديدا حيناً ، وأقل شدة في حين آخر ، بل وما يكاد ينطبق على بعض هذه الصور تمام الانطباق – وكما يقول علماء الرياضيات – لتتجلى في صورة منها أو أخرى هذه الحاسة نفسها ونجد أثرها واضحا جليا في هذه الكتابات الجاحظية ، مما يؤكد وجودها ، هي والحاسة الأدبية معا ، في صدر هذا الرجل ٠

اننا ، خلال السطور القادمة ، سوف نتناول هذه الصور ، وأثارها ودلالاتها في بعض كتابات الجاحظ ، ولكن من خلال مستويين من مستويات التداول ، إذ من غير المعقول تتبعها كلها في هذه الكتابات جميعها على مستوى واحد ، أو من خلال طريقة واحدة ٠٠

أو – في أسلوب آخر – فأننا سنلقى على بعضها نظرة سريعة ، ومن عل ، تساعدا – وهي نظرة طائر محلق – على المرور بها مرا سريعا ٠٠ وأما بعضها الآخر فأننا سنقترب منه اقترابا شديدا ، الى حد التوقف عنده تماما ، ومحاولة سبر غوره ، من زاوية هذه الحاسة نفسها :

أولا : إشارات ودلالات سريعة

نعم ٠٠ عند إعادة استعراضنا لهذه الصور السابقة ، من تلك التي تؤيد أو تؤكد وجود الحاسة الصحفية ، عند أحدهم ، وهو هنا « الجاحظ » ومن خلال النظرة السريعة لوجدنا وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ – فالمتتبع لكتابات ، خاصة الاخبارية منها ، والتي تعكس جهده في

- ١٠٢ -

سبيل الحصول عليها ، وبالأذات ، عندما يكون من العاملين في حقل الأخبار الصحفية ، يدهشه حقا عندما يلمح - بخبرته أن الرجل قد توصل الى بعض مبادئ وأسس وقواعد « العملية الاخبارية » ، وإذا كنا قد اشرنا عند حديثنا عن « الحاسة الاخبارية » الى بعض هذه المبادئ والأسس ، فأننا نضيف اليها هنا جوانب « توقع » الحصول على مادة اخبارية ، وحديثه هو عن انتقاله أو ارتحاله طلبا لها ، أو كرد فعل لهذا التوقع في أماكن وجودها ومع صناعتها وأبطالها في المواقع المختلفة .

٢ - ثم في السعي وراء ثلاثة جوانب أساسية تعكس بعض صور هذه الموهبة نفسها ، وتلك الجوانب هي :

(أ) جانب انتقاء أو اصطفاء ما يصلح منها للنشر على قرائه (ليس كل مادة اخبارية تصلح للنشر في زمانه وظروفه وإن صلح بعضها للنشر في زماننا وظروفنا) .

(ب) جانب العناية بما وراء المادة الاخبارية المتقناة أو المصطفاة ، وعدم التوقف عند حدودها الاخبارية ، أو ما نطلق عليه اليوم الاهتمام « بما وراء الأخبار » ومن هنا كانت صوره القلمية ومادته التي اقتربت في أحيان كثيرة من الموضوعات والتقارير والتحقيقات الصحفية ، فضلا عن الدراسات والمقالات المعنى بها .

(ح) جانب استكمال هذه المادة أو تلك بما يضيف اليها الجديد المفيد من معلومات وتجارب وكتابات الآخرين .

ولن شاء أن يرى أو يقرأ مصداق ذلك كله ، فإن عليه بصفحات أو سطور فقط من أمثال هذه الكتب والرسائل والكتابات كلها : « الزيدية - الرافضة - الصرحاء والهجناء - الجن والانس - التاج في اخبار الملوك - النصارى واليهود ... الخ » .

٣ - وأما عن حاسة « بعث الروح في الصور والمشاهد والموضوعات القديمة التي كتب فيها من سبقه ، وتناولها بما يعكس هذه الموهبة نفسها ، فقد بدا في كتابات عديدة للرجل ، يستطيع القارئ أن يتتبعها في أمثال هذه

المؤلفات والرسائل ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر بالاضافة الى بعض ما ذكر منها سابقا : « الأصنام - الهاشميات - خلق القرآن - الحجة في تثبيت النبوة - الحنين الى الأوطان - الدلائل والاعتبارات على الخلق والتدبير ... » وغيرها .

٤ - ومن هذه أيضا ، ومما يعكس حسه الأدبي والصحفى معا ، هذه الصور باللغة الدقة ، صادقة التعبير ، واقعية النقل ، التى قدمها لعدد كبير من الأشخاص الذين عرفهم المجتمع العباسى عامة ، والبغدادى والبصرى خاصة ، أو من هؤلاء الذين طفوا على سطحه ، أو اشتهروا به ، وقد تناولها الرجل وكما نقول ، ليس تناولاً أدبياً فقط ، وإنما اختلطت فى سطورها مظاهر المناول الأدبى والصحفى معا ، لاسيما ما يتصل بجوانب المقال الصحفى ، والنقدى والفكاهى ، بل اقترب فى بعضها اقتراباً شديداً من « تقارير الشخصية » ، فضلاً عن جوانب الصورة القلمية الأدبية .. وأدب الرجل زاهر بهذه المعالم الصحفية لاسيما فى هذه المقالات والرسائل والتصنيفات كلها :

« البخلاء - الصرخاء والهجناء - الترييع والتدوير - فى الوكلاء - المؤلف المحسود - الجاحظ والمجوسى - القاضى والذباب - كتاباته عن العلماء »

ونكتفى بهذا القدر من تلك الاشارات والدلالات السريعة ، التى القينا خلالها نظرة الطائر على آثار هذه الحاسة عنده ، وننتقل الى جوانب أخرى ، مؤكدة لهذه الدعوى نفسها ، وبأسلوب « المتابعة البطيئة » هذه المرة ..

ثانياً :

شواهد صحفية مختلفة

٠٠ ونتوقف أخيراً عند عدد ثان من هذه الشواهد على قيام الحاسة الصحفية ، فى صدر هذا الرجل النايغة ، والذى قلنا أنه مكون من عدة رجال لعل أبرزها خلال هذا الحديث ، وبعد الجاحظ الأديب ، الجاحظ الصحفى ، وغيرهما أيضاً مما سنشير اليه بعد قليل ..

وكما قلنا ، فأننا سنتوقف عند كل نقطة من هذه النقاط ، أكثر مما

توقفنا عند النقاط السابقة ، ومن هنا ، فلن نتناول جميع ما تركنا ، وإنما بعضه فقط ، وقد نضيف إليه جديدا مؤيدا ، معبرا بالأسلوب نفسه عن صحة ذلك الذى ندعو إليه ، وفى هذا نقول :

(١) الأفكار الصحفية الجديدة

للصحفى الموهوب دلالات وإمارات ، وفى حياته وقراءاته ومتابعاته أكثر من شاهد على ذلك ، ولكن أبرزها خاصة فى مجالات ما وراء المادة الإخبارية ، من موضوعات وقصص وتقارير وتحقيقات ودراسات ومقالات صحفية بأنواعها ٠٠ أبرزها هنا هو ذلك القدر الذى يتمتع به من الحس الصحفى من زاوية العثور على الأفكار الجديدة ، غير المعروفة أو غير المطروقة ، أو التى تمر على غيره دون ادراك لجوانب أهميتها وفائدتها وجاذبيتها ٠٠ لكنه بحسه ، وما يتمتع به من موهبة ، يضع يده عليها ، ويقتنصها ، ويتوقف فكره العامل بجد عندها ، وحتى اذا كانت من تلك الأفكار القديمة ، التى سبق طرقها وتناولها على الصفحات ، فإن له من هذا الحس ما يدرك به كيف ينقذ الى زاوية جديدة فى هذه الفكرة القديمة ، لم ينقذ إليها أو يتناولها الآخرون ؟ أو كيف ينفض عنها الغبار ويقدم فى شكل واطار وتناول جديد يكون الفارق كبيرا بينه وبين تناول السابقين بتناولها ؟ وهكذا .

وإذا كنا قد أشرنا مجرد إشارة سريعة - الى مثل ذلك وفى كلمات قليلة جدا أيضا ، عند حديثنا عن معالم « الأدب الصحفى » (٧) ، فأننا نتساءل هنا: هل أسفرت الموهبة الجاحظية ، عن مثل هذه الافكار الجديدة ؟ هل وضع الرجل يده عليها ، بما لم يحدث من قبل عند غيره تماما ؟ أو بما لم يحدث بمثل أسلوبه ؟ وهل نجح الرجل فى تصيد بعضها ، وفى إزالة الغبار والصدا عن بعضها الآخر ؟ وفى تقديم البعض الثالث فى صورة جديدة كل الجودة ، أو من زاوية جديدة أو أكثر من زاوية جديدة ؟

قبل الاجابة عن ذلك كله وتقديم الشواهد والأمثلة على قيامه من عدمه؟ وأيضا ، قبل أن نقدم أقوال الذين عايشوه عن قرب ، مما يتصل بهذه الأفكار ٠٠ فأننا نقربها الى الأدهان ، عن طريق نقل سطور قليلة توضح ماهيتها ٠٠ وتلقى بعض الأضواء عليها ، ان هذه الافكار التى نقصدها بالدرجة الأولى هي :

- ١٠٦ -

— « الموضوع الجديد الذى يطرقه الاعلامى — الصحفى هنا — أو المادة أو البذرة أو الخميرة أو العنصر الأساسى الذى يقيم عليه جميع العناصر الأخرى ، تلك التى يقيم عليها بناءه الاعلامى — الصحفى هنا أيضا — ويشد إليها أركان عمله ، وتمثل هى جوهر هذا العمل ولبه وصميمه الذى تمتد منه خيوط نسيجه وتتشابك ويطول بعضها ويقصر البعض الآخر ولكنها — جميعها — تؤدى فى النهاية الى اقامة هذا الثوب الاعلامى ، أو البناء الاتصالى الذى قد يكون موضوعا أو تقريراً أو تحقيقاً أو تحليلاً أو تعليقاً اعلامياً عاماً ٠٠٠ الخ » (٣) .

— « جميع هذه الأعمال وغيرها ، وغيرها تولد أولا كبذرة ، كفكرة فى نفوس وصدور وعقول أصحابها ثم تتحول الى عمل يقرأ أو يسمع أو يشاهد » (٤) .

— « الحصول على الأفكار هو مسألة تعود الى الاعلامى نفسه بالدرجة الأولى » (٥) .

— « انها هذه الفكرة التى يمكن أن يتصيداها المحرر أو رئيس القسم أو رئيس التحرير الموهوب اللماح من بين ما يصله ومن حصيلة ما يتجمع لديه كل يوم من اكاداس الاخبار والموضوعات » (٦) ٠٠

٠٠ نقول أن الرجل ، بموهبته المنقطعة النظير ، بكل ما توافر له من خصائص الحاستين الأدبية والصحفية معا ، وبكل ما توافر له أيضا من عين بصيرة نافذة ، ونظرة لماحة وانخراط فى صفوف الطبقات المختلفة ، عليّة القوم ، وأواسطهم وعامة الناس ، وحتى « زعر الحارات الجوانية » كما كان يقول مؤرخنا « الجبرتى » ٠٠ وقبل ذلك كله ، باستقراء ما يصلح من الصور والمشاهد لكى يتوقف عنده ، ويقول : وجدتها ، وجدتها ثم يسرع بالقبض عليها حتى لا تطير أو تذوى ، أو تتبخر أو تكون كعرائس الأحلام بكل ذلك ، وبأكثر من كل ذلك ، نستطيع أن نقول أن حاسة الرجل الأدبية والصحفية معا كانت موجودة ، بكل ما فى الوجود من معنى الحيوية والتدفق والانطلاق ، وأنها أسفرت عن العديد ، عشرات ومئات من الأفكار الجديدة ، أو الغريبة على مجتمعه أو التى لم يتوقف عندها غيره ، أو لم يفلح فى تصيدها سواه ،

- ١٠٧ -

وكانت لذلك عدة امارات ودلالات من الفكر الجاحظى نفسه ، ومن خلال السطور الجاحظية ذاتها ٠٠

لكن هذه الأقوال لا تكفى وحدها ، وانما لنبحث معا عن الدليل ، وما يشير الى صحة ذلك ، خلال هذا التراث الأدبى الصحفى معا ٠٠

لقد اختلط الجاحظ بجميع الفئات الموجودة فى عصره ، وزار أكثر الأماكن والمواقع أهمية ، وهراً أكثر الكتب المعروفة فى زمنه ، أدبية وعلمية ، عربية ومترجمة ٠٠ وسمع وأخذ عن أكثر الرواة ، وأرسل طلباً للبحث والمعرفة والسماع وقد أسفر ذلك كله عن عدد كبير جداً من الأفكار الجديدة ، الأدبية والصحفية معا أو تلك التى يستطيع الأديب أن يعتبرها أدبا ، ويمكن أن نعتبرها صحافة ، أو ذات صلة كبيرة بالصحافة ، والفنون الصحفية ٠٠ وكان من بين هذه كلها على سبيل المثال لا الحصر ومما لم يعرف تقريبا قبل تناوله له ، ولم يلتفت اليه كثرة من كتاب عصره :

١ - فكرته بإفراد كتاب خاص غير مسبوق على المستويين العربى وغير العربى ، يتناول كله ، من الخلافة الى الخلافة « البخلاء » وصورهم وأبرزهم ، وأعجب حكاياتهم ونوايرهم وطرائفهم ، بحيث يمكن أن يمثل هذا الكتاب سلسلة موضوعات اخبارية كثيرة جدا عن هؤلاء القوم ، بل يرتفع بعضها الى مستوى التقارير والتحقيقات المركزة ، فإذا كان ينقصها عنصر : « الصورة الصحفية » فيكفى أنه صورها بقلمه أبدع تصوير ، وقدم لها الصور القلمية المختلفة ، التى لا تقل عن الصور الملتقطة بالكاميرا ، فى بعض الأحيان .

٢ - وبالمثل ، كانت هناك بعض الأفكار الجديدة تماما على « جمهور » هذه الفترات ، من قراء وكاتبين معا ، وهى هنا أقرب ما تكون الى أفكار التقارير والتحقيقات والدراسات الصحفية رفيعة المستوى ، من تلك التى يمكن أن تنشرها المجلات اليوم ، وكذا الصحافة الأسبوعية ، مع اختلاف فى الأسماء والمواقع والظروف وطرق ووسائل النشر ، وكان من بين هذه على سبيل المثال لا الحصر الأفكار الآتية كلها ، والتى تناولتها كتابات الرجل :

« حيل اللصوص - حيل لصوص الليل - حيل لصوص النهار - الفش والغشاشون - زنوج البصرة وعاداتهم وتقاليدهم - نخيل البصرة - أساطير

- ١٠٨ -

الصيادين ورجال البحر - الجواهر والأحجار الكريمة وما يتصل بالعاملين بتصنيعها والتجارة فيها - حياة البدو وحياة الحضر - عادات الأمم والشعوب التي دخلت الاسلام - نوادر القصور وحكاياتها الغريبة - أصحاب الالهام - الجوارى وأصولهن ومراتبهن وعاداتهن - العبيد - الأحلام والرؤى - الجن والعفاريت واتصالهم ببعض البشر - سرقات الكتاب والشعراء - الحب عند العرب وغيرهم - قصص وأخبار الملوك السابقين - الهدايا وقصصها وتاريخها وأنواعها - النرد والشطرنج » ٠٠

ويضيق بنا المقام ، لو حاولنا عمل احصاء لامثال هذه الأفكار الجديدة فى معظمها ، الأدبية والصحفية معا .

٣ - وحتى بالنسبة لكتابه : « الحيوان » فصحيح أن كثيرين من عرب وأجانب ، قد سبقوه الى ذلك ، ويمثل هذه الشمولية نفسها ، وقد قرأ هو وأخذ عن « أبى عبيدة » صاحب المؤلفات فى الحيوان والطير ، وكذا عن « الأصمعى » الذى تناول بعض هذه الموضوعات وغيرها ، كما قرأ ما كتبه « أرسطو » عن الحيوان أيضا ٠٠ قرأ الجاحظ هذه كلها ، وأفاد منها لكنه كان كالمحرر الصحفى الماهر ، الذى يذلف الى مركز معلومات الصحيفة ليرى هل تناول أحد قبله فكرته ؟ وكيف تناولها ، حتى يختلف عنهم ، وهو فى ذلك يجد عند موهبته ما يعينه على الاختلاف ٠٠ ومن هنا ، وعلى الرغم من سبق هؤلاء وغيرهم بالتأليف أو الكتابة فى موضوعات الحيوان الا أن رجلا :

— قام بتصيد افكار جديدة لموضوعات عن الحيوان لم تعرفها كتب هؤلاء .

— تعمق الأفكار القديمة المطروقة ، وتناولها من زاوية جديدة .
— وأحيانا من أكثر من زاوية جديدة .

— قام بـ « توليد » عدد من الأفكار الأخرى ، البعيدة تماما عن أفكار غيره فى نفس المجال والتخصص .

— قام بعمل جسر اتصال بين هذه الأفكار وما يجذب جماهير أكثر من القراء .

— وضعها فى اطار جديد ، وتناولها بأسلوب جديد ٠٠

- ٢٠٩ -

وهكذا وجدنا في النهاية ، أن كتابات السابقين عليه وكذا كتابات معاصريه في موضوع الحيوان ، تقترب أكثر من كتابات العلماء ، ويكون لها مثل خصائصها ، بينما نجد أن كتاباته تقترب أكثر من كتابات « المحرر المتخصص » في موضوع علم الحيوان ، عندما يكتب لصحيفة أو لمجلة عامة ، أو ذات اتجاه خاص ، وليست متخصصة تماما ، كان غيره يقترب من اللون العلمي ، قدر اقتراب الجاحظ من اللون الصحفي .

٤ - وأما عن التناول العكسي للأفكار والموضوعات القائمة ، وما يتصل بجوانب المناظرات وهي ذات صلة نسب وثيقة بأبرز أنواع المقالات النقدية والنزالية فقد استغرقت جانبا هاما من كتابات الرجل ، وبلت على تمتعه وإلى درجة قل أن تتوافر عند كثير من الكتاب بهذه الزاوية من زوايا الحس الصحفي المقالى ، بل أن تناول الرجل لهذه الموضوعات كان مشربا بطابعه الخاص الفريد أحيانا ، لاسيما وهو هو الذى يكتب عن الشيء ، ثم يعود فيكتب عن ضده ، بأسهاب وفهم كبيرين يدلان على ثقافته وشموليته وقوة حجته ، بل كثيرا ما كان يجمع بين الضدين ويؤيد ويعارض هذه من زاوية ، وتلك من زاوية أخرى ، في نفس حدود واطار المقال الواحد أيضا .

ولن يجهدنا البحث عن هذا الجانب الهام من جوانب « الحس الصحفي المقالى النقدي » عنده ، فهو منتشر في كتابات كثيرة ، من بينها على سبيل المثال لا الحصر هذه كلها : « مفاخرة السودان والحرمان - الرجال والنساء - الذكور والإناث - الجن والانس - الملائكة والجن - السرد على الجهمية - المحاسن والأضداد - في تفضيل النطق على الصمت - فى الحاسد والمحسود - سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف - العثمانية - فخر السودان على البيضان ٠٠٠ الخ ، كما انتشرت في بخلاته ، وغيرها من الكتب .

٥ - وأما عن « تصيد » الفكرة الخارجية ، أو الأجنبية المترجمة أو المنقولة والتصرف الايجابى معها ، بما يعكس جانبا آخر من جوانب هذه الحاسة الصحفية نفسها فقد ظهرت واضحة عند الرجل في مواقف كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مساهمته في نقل بعض أفكار الفلاسفة اليونان ، لا سيما هؤلاء الذين عرفوا باسم : السوفسطائيين ، ولا يعنى تلك

- ١١ -

انه كان مترجما لها ، وانما « منيعا » لمثيلات هذا الأفكار « ناشرا » لها فى كتاباته الجدلية وتلك التحليلية والنزالية ، وقد لاحظ كثير من المتابعين ذلك ، لكنهم - كالعادة - تناولوا مظاهرها على انها لغوية أدبية فقط ، وكان من بينهم على سبيل المثال « طه الحاجرى » الذى « لاحظ آثار السفسطة فى أسلوب الجاحظ البيانى » (٧) ٠٠ لكننا نراها أدبية لغوية صحفية مقالية معا ، تماما كما هى « فلسفية » الطابع ، كما نشير من بينها أيضا الى نقل بعض الأفكار الأخرى عن أرسطو ، وغيره ، حتى فى كتابه « الحيوان » نقل عن بعض هؤلاء ٠٠

لكن الملاحظ هنا - وهو ما يقترب بنا من معالم حاسته الصحفية أيضا - أنه لم يكن ينقل الفكرة المترجمة ، ويندفعها فقط ، وانما ، وعلى عادة كبار الكتّاب والمحررين المبتكرين :

— يتخذ منها ركيزة الى أفكار عربية مماثلة (ما هنا ، وما هناك)
— يتعمقها ويخرج منها بأكثر من فكرة جديدة مختلفة (توالد الأفكار)

— ينظر فى عكس هذه الفكرة (الشيء وضده)
— يتناولها تناولاً شمولياً غير مسبوق ، يسبر غورها ويقتلها بحثاً ، الى غير ذلك كله ، فهو ناقل ماهر ، ومنشئ مبتكر ، ومفكر مبدع ٠٠ وكل ذلك ظهرت آثاره واضحة جلية على مقالاته ٠٠

قبل أن نترك هذا الجانب الإبداعي الأدبي والصحفي معا ، أو « الأدبي الصحفي » ، أيضا ، جانب الأفكار المبدعة الجديدة أو المجددة ، التى لم يطرقها قبله كثيرون لغرابيتها أو لعدم قدرتهم على تصيدها ، أو استشعارهم لجوانب أهميتها ٠٠ نقوم بالتوقف عند عدد من الأقوال التى تشير الى ذلك ، ولو كانت من وجهة النظر الأدبية فقط ، بعد أن وضحت معالم ما ندعو اليه من قيام الجاحظ ، الأديب والصحفي معا .

● أن باحثاً كبيراً واستاذاً للادب يقول : « وهو أول من شف له الحجاب فرأى فى مخالفات العامة وعاداتهم وفى تقاليدهم ومعاملاتهم وفى أحاديثهم وأسمارهم فنا يستروح الخاصة به ويرى العلية فيه جماعاً من كدهم فى جدهم » (٨) ٠٠

● ويضيف قائلاً : « وهو أول من وضع الكتب والرسائل في المعاني والأغراض الغريبة عن متناول أفكار الكتاب كقوله في طبائع البخل وفي حيل اللصوص وفي أحوال المكئين وفي أصحاب العاهات الخلقية كالحول والعمور والعرجان والبرصان وكذلك ذوى العاهات الخلقية كالسكريرين والزناه والطفيليين والقحاب وقتيان السوء » (٩) .

● ويقول دارس آخر : « يتوخى التصنيف في الموضوعات الشبيهة اللذيذة أو التي لم يسبق إليها كاتب ، أو الأمور الحفيرة التي لا يخطر على البال أن يؤلف فيها كلام » (١٠) .

(٢) حول الأخبار الجاحظية

اقتربنا خلال صفحات سابقة ، من موضوع الأخبار الجاحظية من زاويتين (١١) أولاهما زاوية نوعية مصادره العامة - وليست الاخبارية وحدها - وثانيتها زاوية بعض جوانب الحس الاخباري عند الرجل . ويضيف هنا بعضاً مما يتصل بهذه الأخبار الجاحظية ككل ، ويعدد من الزوايا ذات الصلة الوثيقة بها على وجه الخصوص ، من تلك التي توقفنا عند عدد من جوانبها الأخرى ، أو لم نتوقف حتى الآن .

(١) الأخبار الجاحظية وعنصر الحقيقة :

في كلمات قليلة جدا المحنا في مجال سابق ، دون أن نقدم الدليل الذي أرجأنا تقديمه حتى هذه السطور ، الى اهتمام الرجل في مجالات بحثه وجمعه لمادته عامة ، ومن بينها المادة الاخبارية . اهتمامه بجانبى « صحة المصدر » ، و « ثبته » ، ونفسر هنا ذلك الكلام فنقول :

● ● عن صحة مصادره الاخبارية وثبته :

يستطيع القارئ - وليس الباحث وحده - أن يتبين بما لا يدع مجالاً للشك حرص « الجاحظ » الكبير على صدق أخباره وثبته وموضوعيتها ويتجلى ذلك من استقراء هذه المادة الاخبارية الواردة في كتبه المختلفة ، وفي كتاباته

— ١١٢ —

التي تناولت هذا الموضوع تماما كما يدرك ذلك الباحث عند محاولته النفوذ الى شخصية الرجل ، ومتابعة طريقته أو طرقه في جمع المادة ٠٠

— فهو عندما يروى خبرا ، فانما يعود به الى مصدره الحقيقي الذي سمع عنه أو أخذ أو نقل ٠٠

— بل انه أحيانا يرجع المادة الاخبارية الواحدة الى أكثر من مصدر واحد ، ولو على سبيل التأكيد ، وكأنه يطلع القارئ على ذلك ، ويلفت نظره اليه ٠٠

— ويتضاعف ذلك ، عندما يحس الرجل أن ما يروييه من الأمور التي قد لا يصدقها البعض بسهولة ، أو في بساطة ، ومن ثم يجد أن عليه واجبا أساسيا ، وهو إشعار القراء ، بأن هذه المادة مصدرها كذا وكيت ٠٠

— فاذا أحس الرجل أن هذه المادة الاخبارية غير دقيقة ، أو تنقصها الحيدة أو الموضوعية نبه الى ذلك وحذر منه ٠٠

— فاذا أحس أنها مادة غير صادقة ، وأن الكذب يلحقها ، وأن صاحبها يريد خداع القارئ أو المستمع ، نبه الى ذلك أيضا ، وذكر ما يحمل على شك القراء به ، وكأنه بذلك يريح ضميره من هذا الجانب ٠٠

— وأكثر من ذلك ، أنه كان في روايته الاخبارية ، لا يكتفى بذكر الخبر المجرد دائما ، وإنما كان وفي كثير من الأحوال يقدم قصة حصوله على هذه المادة ، وكيف بدأت أحداثها ، الى جانب صناعتها ، ومصادرها البشرية ، مع معلومات قليلة جدا لكنها مفيدة أيضا عنهم ٠٠

— بل انه كثيرا ما يضع الأخبار المتتالية نفسها ومع متابعتها خلال النص نفسه ، في مجال المقارنة من زاوية الصحة أو الصدق ودرجاتهما ، فينبه بذلك الى أن خبرا أكثر صدقا من خبر يسبقه ، وهذا بدوره أكثر صحة أو أقل من خبر يليه ، بل ان هذه المقارنة نفسها قد تمتد وتتصل لتكون بين المصادر المختلفة من بشرية أو مخطوطة ، فيقول ان ذلك المصدر أكثر صدقا من ذلك ، وهكذا ٠٠

٢٩٢

— كذلك فان الرجل لم يكن يهتم كغيره من الاخباريين والروائيين في عهده ، أو ممن سبق هذا العهد ، بجلب الشكل ، وجمال الأسلوب ، وناقية العبارة قبل غيرها ، وانما كانت تسبق ذلك عناية بالمادة الاخبارية نفسها والمضمون الاخباري ذاته ، ثم وضعه بعد ذلك في أبسط القوالب اللغوية ، وأكثرها سهولة في التعبير والايضاح ٠٠

— بل انه ليدهشنا حقا ، ويأخذ بلبنا أن يقوم الرجل وأكثر من مرة بحملة كبيرة على الرواة الذين يقومون بتلوين الأخبار ، أو باصطناعها ، أو بعض الفئات — كالبحريين مثلا — الذين يجيدون «فبركتها» ومزجها بالأسطورة ، مما يذكرنا بتلك الأخبار البحرية التي كان يتداولها بحارة الساحل الفينيقي ، وجاءت عندهم ممترجة بالأساطير البحرية للشهيرة ٠٠ حمل الجاحظ على هؤلاء حملة شعواء ودعا الى الشك الكامل في مادتهم ، والتأكد التام من صحتها قبل نقلها عنهم ٠٠

● ● من كلماته تأخذ :

ونكتفي بهذا القدر من الإشارة الى جوانب عنايته بدقة اخباره ، ولفت انظار القراء الى مستوياتها من الصحة ٠٠ ونقدم عددا من الأمثلة على ذلك من كتابه « الحيوان » بأجزائه المختلفة ٠٠

● فهو يبدأ بعض مادته الاخبارية مما لا يريد أن يتحمل مسؤولية صحتها بقوله :

« وزعم لي ابن أبي العجوز أن الدساس تلد » : الحيوان ج ٦ ص ٢٢

● أو تراه يقول أيضا : « والشائع أن ٠٠٠٠ » ولا يقول : والصحيح أن لأنه يدرك الفارق بين التعبيرين ، ويريد أن ينبه القراء الى ذلك ٠٠

● وفي مجال المقارنة التي أشرنا اليها يقول الرجل : « وليس الخبر عنه مثل الخبر عن الدلقين — وليس الخبر عن الكركدن أيضا مثل الخبر عن » الحيوان ج ٧ ص ١٢٨ ٠٠

● كذلك ، وكدليل آخر على أنه لم يكن يأخذ كلام مصادره الاخبارية (الجاحظ)

- ١١٤ -

على عواهنه أو يسلم بجميع ما يقوله المصدر مهما كان نصيبه من الصحة أو التصديق ، فإننا نقرأ له من أمثال قوله :

— فهو عندما يكتشف بعض الخطأ في الرواية يعلق قائلاً : « فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحرين ؟ » الحيوان

— وهو عندما يستمع إلى خبر مشكوك في صحته يكتب قائلاً : « قلت وما على أن سألته ؟ فانه يقال أن السائل لا يعدمه أن يسمع في الجواب حجة أو حيلة أو ملجأ » : الحيوان ج ٣ ص ٢٢ ٠٠

— ويقول في موضع آخر : « وزعم لي بختشيوخ بن جبريل انه عاين الخرق الذي في ابرة العقرب وان كلن صادقاً كما قال فما في الأرض أحد أبصر منه وانه لبعيد وما هو بمستكر » : الحيوان ج ٥ ص ٣٥٧ ٠٠

— ويقول في موضع ثالث : « وقد زعم البحريني أنهم يعرفون طائراً لم يسقط قط ٠٠٠ الخ » : الحيوان ج ٣ ص ٢٢٤ ٠٠

● . بل ان الرجل نفسه قد كتب كثيراً عن هذه المجالات ، مؤكدا ، أو منبها أو محذرا ، خاصة في مقدمات كتاباته ، أو فواتحها ، اقرأ له على سبيل المثال لا الحصر قوله :

— « وأما قرن الكركدن فقد خبرني من رآه ممن اثق بعقله واسكن إلى خبره » الحيوان ج ٧ ص ١٢٩ .

— « ٠٠ عن ثقات لا أشك في خبرهم ٠٠ » الحيوان ج ٣ ص ٢٢٦
 — « ٠٠ ولم أكتب هذا لتقريبه — وهكذا يقول — ولكنها رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانكار له ، ولكن ليكن قلبك إلى انكاره أميل » : الحيوان ج ٦ ص ٣٤

(ب) بعض أساليب ثبته لمصادره واسناد مادته الخيرية :

كذلك فقد حفلت مؤلفاته ورسائله ومقالاته عامة ، ومادته الاخبارية

خاصة ، بكثير من الأساليب التي يثبت بها مصدره ، ويشير بها الى أن هذا الخبر سمعه عن فلان ، أو قرأه لفلان ، أو وصل اليه من فلان ، وما الى ذلك كله وصحيح أن هذه قد تكون من نوع الوسائل «البدائية» من وجهة نظر صحفيي اليوم ، لكن المدقق فيها ، والمتمعن في جوانبها وأنواعها يجد أنها لا تختلف كثيرا عما يفعله المندوبون الآن في الصحف ووكالات الأنباء والاذاعات، من طرق وأساليب ذكر المصدر ، وعموما ، فقد وضعنا أيدينا على عدد كبير من هذه الأساليب ، وكان من بينها على سبيل المثال لا الحصر :

- « ونبدأ بالأخبار عن ... »
- « نبدأ بتمام القول في ... »
- « خبرني ... »
- « خبرني ... وخبرني ... وخبرني ... »
- « وروى لي ... »
- « وروى بعضهم لي ... »
- « وسمعت حديثا من شيوخ ملاحى الموضّل ... »
- « ... ورأيت الحديث يدور بينهم »
- « قال الشيخ الاباضى ... »
- « وكان عندنا ... فقلت له يوما ... فقال ... »
- « وقال لي ... »
- « وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار ... »
- « وحدثني شمشون الطيب قال : »
- « ودخلت على فلان فسمعتة يقول : »
- « وذكر ... عن ... قال ... »
- « وقال قائل من بنى ... »
- « من الاحتجاجات الطيبة ، ومن العلال الملهية ما حدثني به ابن المدينة قال : »

- « وسئل ... أجاب »
- « وسئل ... قال »
- « ... وقد علمنا أنه »
- « ... وقد علمنا »
- « وفلان قال ... وفلان قال ... وفلان قال »

١١٦ -

- «... وأن... وأن...»
 — «قال أصحابنا»
 — «نبتأ بأهل خراسان لاكثر الناس في أهل خراسان...»
 — «ورأيت أنا...»
 — هذه ملتقطات من أحاديث أصحابنا وأحاديثنا وما رأينا بعيوننا
 (... الأحاديث هنا بمعنى الأخبار ، ومفردتها أحديث)
 — «وخبرنا جاره...»
 — «والأعراب تقول...»
 — «والعامة تزعم...»
 الى غير هذه كلها ...

(٣) ... وشواهد أخرى

... ونواصل هنا هذه المحاولات لاثبات أن لنا - نحن رجال الصحافة - في هذا الرجل بعض ما لرجل الأدب فيه ، وربما - من خلال عدد من كتاباته - قدر ما لهم فيه أيضا ، ونقدم هنا أكثر من دليل جديد ، على هذا الجانب الصحفي في حياة الرجل ، وفي آثاره ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر:

● أنه في عدد من هذه الكتابات لا سيما تلك التي تميزت بجوانب الأخبار وما وراء الأخبار ، كان يجتهد وراء المصدر البشري أو المصادر البشرية ويسعى من ورائها سعيا حثيثا ... ذلك كله بينما كان يتجه في مقالاته الى المصدر أو المصادر المكتوبة ، من كتب لعرب ، أو مترجمة ، ويمكن للقارئ العادي أن يلمس ذلك ، وهو الأقرب الى الطابع الصحفي - طابع البحث الميداني عن المصادر والنقل عنها - من خلال كتب عديدة ، لا سيما تلك التي امتلأت بالمادة الاخبارية من أخبار بحتة ، الى مواد قريبة الشبه بالموضوعات والقصص والتقارير الاخبارية نفسها ، وقد وضع ذلك من رسائله العديدة التي أشرنا اليها ، ومن كتبه العديدة أيضا ...

وإذا كنا قد أشرنا من قبل الى أنه وصف البخلاء كما رآهم أو سمع من مصادره البشرية عنهم (١٢) ... فأننا نضيف هنا من اشارته الخاصة الى

مصادره التى جمع من أفواهها بعض جوانب الأهمية الإخبارية فى كتابه أو فى « سفره » الآخر : الحيوان .. حيث كان يسعى وراء هؤلاء الذين جرت لهم الحوادث مع موضوع كتابه : « .. وربما بل كثيراً ما ينتقلون بالناب والمخلب واللدغ واللسع والعض والأكل فخرجت بهم الحال الى تعرف حال الجنائى والجارج والقاتل وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول وكيف الطلب والهرب وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء » (١٢) :

● ان ذلك - فى واقع الأمر لينكرنا بأكثر من شيء لعل من أهمها وكما يحدث عند الصحفيين والباحثين المتميزين ، قبل أن يحدث فى مجال الأدب ، فى عهده - على الأقل - .. ومن بينها على سبيل المثال :

— ان سعيه وراء مصادره كان يتجاوز المكان الذى يقيم فيه
— أنه لم يكن يقنع بأى مصدر كان ، وإذا كان قد هاجم البحرينى والمترجمين فانه هنا يرسم صورة طيبة لما ينبغى أن يكون عليه المصدر البشرى ذلك الذى يكون عنده :

« .. قد ابتلى بالناب والمخلب واللدغ .. الخ أى « صاحب تجربة »
« .. فخرجت بهم الحال الى تعرف حال الجنائى .. الخ أى « متابع ودارس »
« .. لطول الحاجة ولطول وقوع البصر .. الخ أى « صاحب خبرة »
شخصية مكتسبة وموروثة ايضا .. »

فإذا أضفنا الى ذلك اشتراطه عنصر الصدق ومهاجمته للبحرينى وبعض اصحاب الأخبار لتغاضيتهم عن ذلك ، وسريان الأسطورة والأمور المؤلفة وشيوع « الفبركة » عندهم ، وإذا أضفنا هجومه على بعض المترجمين ممن لا يراعون الدقة لوضحت عندنا بعض معالم اختياره لمصادره البشرية ، والشروط التى ينبغى أن تتوافر فى هذا المصدر أو ذاك .

● اتنا نضيف هنا - على سبيل المثال ايضا - بعض هذه المصادر البشرية التى أخذ عنها ، مع تقويمه بمستوى كل منها ، وأين يقف من الزعم والتصديق ، وما هو منزلة كلامه ، ان من بينهم :

« كبار زنوج البصرة - رأس الأنباط بها - شيوخ الملاحين - أبو عبيدة

محمدر بن المثنى - أصحاب اللهور - محمد بن الأشعث - ثمامة - محمد بن أيوب
جعفر - شمشون الطيب - ابن الجهم - الشيخ الاباضى - داود بن المعتز -
هشام بن جسان - بختشيوخ - أبو هفان - أبو الحسن المدائنى ٠٠٠ الخ
وغيرهم كثير ٠٠

يل انه عند ذات مرة مصادر ، فبعد ذكر القرآن الكريم والحديث الشريف
والماثورات والأشعار والأمثلة قال : « ٠٠ أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ،
ومن قد أكثر قراءة الكتب أو بعض من مارس الأسفار وركب البحار وسكن
الصحارى واستدري بالهضاب ودخل فى الغياض ومشى فى بطنون
الأودية » (١٤) يريد من ذلك شهود العيان والتجربة والمتخصصين ، وماذا
يفعل المحررون ، غير السعي وراء أمثال هؤلاء من المصادر البشرية .

● : وإذا كنا قد اعتبرنا فى مجالات سابقة ، أن بعض كتابات
قديما المصريين والأشوريين والفينيقيين وغيرهم هى بمثابة لون من ألوان
الجنود الصحفية ، وإذا كانوا يقولون أنه لو عرفت الشعوب القديمة الصحافة
بمعناها الحالى لتضاعفت معرفتنا بهم وبحضاراتهم المختلفة ٠٠ وما يمكن أن
يستتبع ذلك ، من اعتبار بعض الكتابات الصحفية الحالية ، بمثابة تاريخ لهذه
الأيام ، يعود إليها باحث وقارئ وطالب ومؤرخ الغد ، بشرط الأناة والدقة
والمقارنة والحدس ، وإذا كان « ه . ج ويلز » صاحب المؤلفات الأدبية والتاريخية
الهامة قد صرح قائلا ، بأنه ليس أكثر من صحفى ومرة أخرى بأنه ليس أكثر
من صحفى يعشق التاريخ ٠٠ إذا كان ذلك كله قد حدث مما يؤكد الصلة الكبيرة
بين الصحافة والتاريخ ، وأن بعض كتاباتها - ولا أقول كلها - تصلح لأن تكون
تاريخا ٠٠ تماما كما أنه : « برغم التحفظات التى تحيط بالصحف كمصدر
للتاريخ ، وهى تحفظات تتعلق بالشائبات فى الرواية تبقى حقيقة لا خلاف عليها ،
وهى أن الصحف تقدم لنا نظرة شاملة للحياة وهذه النظرة ضرورية للمؤرخ
حتى لكأنه عاش العصر الذى يكتب عنه من خلال قراءاته لصفحه ، وهذه النظرة
الشاملة ، برغم كل ما فيها وما عليها تجعل الصحف مصدرا من مصادر
التاريخ » (١٥) .

أريد أن أقول من خلال هذه المقدمة الطويلة ، أنه وكما يحدث عندما يجيد
بعض الكاتبين تصوير عصرهم بكل ما فيه ، بجوانب الإيجاب والسلب ، حتى

لتصبح كتاباتهم تاريخاً له ، هذا الجانب التاريخي الصحفي ، أو التاريخي الذي توافر لبعض الزملاء من الصحفيين حتى اعتُبر من خصائص نشاطهم التحريري ، نجده قد توافر أيضاً وتاماً عند الجاحظ ، وربما بشكل يصعب أن نجد له مثيلاً عند أحد ممن سبقه من كتاب العربية ، ولم يتكرر الا قليلاً ، بعد الجاحظ بالنسبة لعصره وصوره ومشاهدته وأحداثه وأبطاله ومغامريه وساسته وعلمائه ومؤلفيه ووزرائه وغيرهم ، وغيرهم .

بل ان هذا الذي فعله الرجل يجعله الي الصحفي المؤرخ ، أقرب منه الى المؤرخ الصحفي ، ذلك لأنه اذا كانت أغلب كتابات الصحفيين الذين قلنا أنها ترتفع الي مستوى التاريخ ، أو تقترب منه حتى لتصبح تاريخاً كاملاً يعود اليأس اليه بعد حين قل أم كثر ، اذا كانت أكثرها تتجه الى الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية في معظم الاحوال - هـ - ج ويلز - مثلاً ، فإن كتابات الرجل - الجاحظ هنا - لم تقتف بذلك ، ولم تقتصر على هذه الجوانب وحدها ، وإنما - وهذا معنى قولنا أنها أقرب الى الصحافة التاريخية - كان لتعمدها الكبير ، وتنوعها الذي يجلب عن الحصر ، ووصولها الى سطح المجتمع العباسي ، والى قاعه معا ، ونقلها لجميع الصور من أول صور القصور الشامخة وما يدور داخلها ، والى الحارات الضيقة والقذرة ، من مجتمعات الخلفاء والأمراء والوزراء حتى مجتمعات اللصوص وحلبات الجولة والمشعوذين ١٠٠ أي أنه بالنسبة لهذا الجانب الصحفي التاريخي نجد له فيه باعاً طويلاً ، وقدماً راسخاً .

● ٠٠٠ هل كان الجاحظ عالماً ؟ بالمعنى الذي تتجه اليه هذه الكلمة اليوم ؟ وفي أسلوب آخر : هل ما كتبه الجاحظ عن الحيوان مثلاً ، يجعله عالماً في هذا التخصص مثل هؤلاء العلماء الذين نراهم في كليات العلوم وفي تخصصات علم الحيوان أو الحشرات أو غيرهما ؟

صحيح أن الرجل كان باحثاً من الطراز الأول ، ولكن هل كل باحث عالم ؟ وهل كل من يبحث ، يكون للفائدة العلمية المقتنة ، أو المنظمة والمرتبطة بطلاب العلم أو بباحثيه ؟

وصحيح أن الرجل قد يكون أكثر ثقافة في ميدان « علم الحيوان » من بعض علمائه الحاليين ، ولكن هل تكفي هذه الثقافة ليكون صاحبها عالماً بالمفهوم

الحالى للكلمة ، أم أن هناك أطر وأساليب ونظريات وتجارب معملية ومادة تصل للمتخصصين أو ينبغي أن تتخذ مسارها اليهم ؟

وصحيح أيضا أن كتاب الحيوان قد يشق جمع مثله - ولا أقول تأليف مثله - على عدد كبير من الباحثين في هذا الميدان ، فهل يعنى ذلك أنه عالم العلماء ، في هذا الميدان ؟ ٠٠ الحق أنني بعد تفكير ملي ، في مثل هذه التساؤلات وغيرها ، وباستقراء مواد كتيه ، وطرق الحصول على ما جاء بها ، وتوجهاتها وأساليب كتابتها ومواطن العناية الأولى بها ، وما يتصل بذلك كله ، وقد انتهيت الى رأى يقول أن الرجل لم يكن عالما بالحيوان ، ولا كان في ذهنه أن يكون كذلك ، وإنما كان يقرأ ويبحث ويتتقف وينقل للجميع ما قرأ وما جمع ويطلعهم عليه ، ويغلف ذلك كله بما يحب القراءة الى مادته ، ويضمنها للغريب والعجيب ، فهو جامع نعم ، باحث أيضا لكنه ليس عالما ٠٠ وإن قال كثيرون بذلك ونكرناه أيضا بشكل عمومى ٠٠ وإنما هو هنا أقرب الرجال الى « المحرر العلمى » فى مجال علم الحيوان وكذا المحرر صاحب الاهتمام العلمى ، وليس المحرر المتخصص ، أى أنه ليس متخرجاً فى كلية العلوم ، ولا يحمل درجات عالية فى هذا التخصص ، ولا يكتب أيضا كتباً علمية كاملة ودقيقة ، ولا يحرر أيضا مجلات علمية متخصصة تماماً ، وذات تخصص دقيق تماماً ، وإنما هو محرر مهم بتحرير الجانب العلمى فى :

١ - مجلات تخصص عام

٢ - مجلات عامة ٠٠

أى أن كتاباته وتوجهاته هي لعامة القراء ، وإن كانت ذات موضوع غالب هنا هو : « الحيوان » ٠٠ وهي فى ذلك أشبه أيضا ببرامج « عالم الحيوان » فى الإذاعة والتلفزيون بل من الذى يستطيع أن يقول أنها ذات موضوع واحد ، وكتاب الحيوان نفسه - أن غلب عليه هذا الطابع - إلا أن به الكثير من جوانب الأدب واللغة والتاريخ وغيرها ٠٠ ؟

وبالمثل ، هذه الكتب الأخرى الماثلة ، من لندن « البخلاء » و « البيان والتبيين » وغيرهما ٠٠ لكنها « العبقريّة الجاهليّة » المتعددة الجوانب ومجالات الاهتمام ٠٠

وهكذا نجد أنفسنا أمام جانب صحفي جاحظي آخر ، هو جانب الجاحظ
المحرر العلمى ، ٠٠ محرر الاختصاص العام فى مجالات عديدة أبرزها
الحيوان ٠٠

● وقد يؤكد ذلك - أولا - ما قلناه من أن هذا الكتاب كان من الممكن
قسمته ، على أكثر من عدد واحد من مجلة ذات تخصص عام فى مجال
الحيوانات ، مثل هذه المجلات العديدة التى نراها مهتمة بنفس الموضوعات ،
وتطرح للبيع على قارعة الطريق ، وفى الأكشاك ، وليس للمتخصصين وحدهم .

● وقد يؤكد ذلك - ثانيا - عدد من الأقوال المتصلة بهذا الكتاب نفسه
عن قرب تماما كاتصالها بصاحبه الصحفي المحرر العلمى المتخصص ، الأديب
معا ، وسبحان الله الذى يجمع كل هؤلاء فى رجل واحد ، لكنه الرجل الصحفي ،
أو - كما كانوا يقولون عن الصحفي - الرجل المكون من عدة رجال ٠٠ إذن هذه
الأقوال من مثل :

— ما يقوله الرجل نفسه فى مقدمة كتابه من طابعه فى كتابته ، بما
ينفى أنه قصد أن يكون عن الحيوان فقط أو للمخاضة وحدهم :

« وهذا كتاب يستوى فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم ، أى
أنه لجميع الناس ، ومن جميع الأجناس أيضا ٠٠ »

« فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة
وأشرك من علم الكتاب والسنة ٠٠ ويشتهي الفتيبان كما تشتهي الشيوخ
ويشتهي الغاتك كما يشتهي الناسك ويشتهي اللاعب ذو اللهب كما يشتهي المجد
ذو الحزم ويشتهي الأريب ويشتهي الغبى كما يشتهي الفطن » (١٦) ٠٠ »

أى أنه أيضا كتاب لعامة الناس ، فضلا عن تنوع مادته ٠٠ ومن هنا كان
قولنا باقترابه من مجالات التخصص العام ٠٠

— بل ٠٠ وأكثر من ذلك كله ، ومما يؤكد هذا المعنى الأخير نفسه ،
معنى اقترابه من أعداد لمجلات تخصص عام فى علم الحيوان ، ومن العجيب
أيضا ، أن يكون الرجل نفسه - الجاحظ - قد قام بتقسيم كتابه هذا الى أجزاء

أطلق عليها اسم « المصاحف » ٠٠ من الصحف هنا ، وهى ليست بمعنى المصحف الشريف كتاب الله ، وإنما مجموعة الصحف أو الصفحات ٠٠ اقرا فى ذلك قوله :

« كان العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادير الأشعار ٠٠ ويضيف محقق الكتاب قائلا :

« كان يسمى كل جزء من أجزاء الحيوان مصحفا ، وفى النسخة الشنقيطية من الحيوان نجد مكتوبا فى نهاية كل جزء : تم المصحف ٠٠ من كتاب الحيوان ، ويليه المصحف ٠٠ » (١٧)

● وقبل أن ننتقل الى مناقشة مسألة أخرى ، من تلك المسائل التى نقيم بها هذا الرأى فى كتابات الجاحظ ، نقوم بالقاء نظرة طائر سريعة أخرى ، على عدد من مجالات نشاطه وكتابات شخصيته - معا - نرى فيها ، من منطلق صحفى ، اقترابا من هذا الجانب الذى ندعو الى ملاحظته وتبيناته ، بل ودراسته أيضا . جانب الجاحظ الصحفى والأديب معا ٠٠ اننا نجد أن الرجل :

— كان من أوائل الذين استخدموا « وراقا » خاصا يكتب ما يمليه عليه ، ويقوم بنسخ عدة صـور مما يكتب ، مما يذكرنا بهؤلاء العبيد من الناسخين الذين كان يستخدمهم « باعة الأخبار » فى الموانئ الأوربية عامة والاطالقية خاصة ، ثم استخدمهم أصحاب الصحف المخطوطة ، وإذا كان محقق كتاب - أ - عبد السلام هارون - يقول فى هامش كتابه : (ما كان أجدر بهذه الكلمة أن تستعمل فى معنى السكرتير التى حيرت اللغويين) يريد كلمة «الوراق» ٠٠٠ فأننى أرى أن وراق الجاحظ لم يكن يقترب من السكرتير فقط وإنما من الكاتب والناسخ الذى تطور بعد ذلك الى جامع الحروف ٠٠ وهكذا ، عموما فقد كان هذا الوراق واسمه « زكريا بن يحيى » ٠٠ ينسخ من الرسالة الواحدة ، أو « المصحف » الواحد عشرات يبعث بها الى من يريد الجاحظ أن تصل اليه من علية القوم .

— وإذا كان بعض الكاتبين والنقاد - خاصة القدماء - يأخذ على الجاحظ أن كتاباته كان يعوزها الترتيب أحيانا والتعذيب فى أحيان أخرى ،

- ١٢٢ -

فاننا نرى أن لذلك أكثر من سبب يدخل ضمن الدائرة الصحفية أيضا ، خاصة دائرة كتابة المادة المقالية ٠٠ أى أن هذه الحاجة الى الترتيب والتهديب . كانت تظهر عندما يتعرض الرجل لكتابة مادة مقالية أولا ٠٠ وما ذلك الا :

● لأن الرجل كان موسوعيا يحتفظ فى ذاكرته وصدره بمئات من المعلومات المختلفة والمتباينة عن الموضوع الذى تتناوله كتابته ، ومن ثم فقد كان يواجه شأن كتاب المقالات من الموسوعيين ، صعوبة بالغة فى تنظيم تم ترتيب وتهديب ٠٠ هذا الكم الهائل من المادة المتجمعة لديه ، خاصة فى وقت لم تكن طرق التنظيم والفهرسة وحفظ المعلومات قد تقدمت كثيرا ٠٠

● لأن الرجل كان مشدودا الى جانب الهدف الثقافى الذى يريد تحقيقه من وراء مثيلات هذه المقالات ، ومن ثم فقد كان هذا التنوع الكبير فى مجال واطار ومضمون المادة المقالية الواحدة ، شأنه شأن بعض المتميزين من كتاب المقالات ٠٠

● ثم لأن طبيعة المقال نفسها ، وخصائصه التحريرية - منذ عرفت المقالات - وهى ترتبط بذلك النظام « اللاقاعدى » او بالحاجة الى « الاكتمال » و « النظام » فى آن واحد ، بحسبه مجرد « محاولة » (١٨) غير مكتملة او غير ناضجة تماما ٠٠ تؤكد ذلك بعض الأقوال التى تناولت هذا الفن الأدبى الصحفى القديم الجديد معا ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

— « المقال هو انشاء كتابى معتدل الطول فى موضوع ما ، وهو دائما يعوزه الصقل ومن هنا يبدو أحيانا انه غير مفهوم ولا منظم » (١٩)

— « وثبة عقلية لا ينبغى أن يكون لها ضابط من نظام وهو قطعة انشائية لا تجرى على نسق معلوم ولم يتم هضمها فى نفس صاحبها ، أما الانشاء المنظم فليس من المقال فى شيء » (٢٠) .

ان استقراء هذه التعريفات - خاصة الأخير منها - ليقدم الاجابة المنطقية على قلة ترتيب وتهديب مادته المقالية .

● وقضلا عن ذلك كله ، فقد كان فى جدة موضوعاته وافكاره وتنوعها

- ١٢٤ -

بالإضافة الى كثرة مادتها المتجمعة - وفي بعض ذلك الذي لم يساعده تماما على الترتيب والتخطيط والتهديب .. وقد أشار الى ذلك أحد كبار المتصلين به عندما قال عن حاجة كتابته الى هذه الخصائص : « .. فهو شأن كل كتابة جديدة في امر متشعب الأطراف ممدود النواحي » (٢١)

« .. في النهاية اقول ، أن حاجة كتاباته هنا الى مثيلات هذه الخصائص ترتبط أولا بالمادة الأدبية ، لا الصحفية ، أما وقد كانت هذه الى المقالات الصحفية أقرب فأننا لا نرى فيها عيبا ، أو تقصيرا من جانب الرجل ، فقد كانت تعود الى نصفه الصحفي لا الأدبي »

— وما يذكر باقتراب كتاباته من مادة الصحف والمجلات التحريرية ، فضلا عن ذلك كله (الأفكار الجديدة - التنوع - المادة الاخبارية - المصادر المختلفة والصادقة - الواقعية واعطاء صورة العصر - حسن الاختيار والاصطفاء - جوانب الأهمية والجاذبية في المادة) « .. الى غير ذلك كله مما ذكرنا ، ومما سنذكر بانن الله .. مما يذكر بهذا الاقتراب أيضا ، أن كتاباته ورسائله ومصاحفه وكتبه ، كانت تنتشر بين الناس بسرعة لم تعرفها كتب غيره من ناحية ، وتذكر بالانتشار والتوزيع السريع للصحف والمجلات من ناحية أخرى ، كانت الرسالة أو كان المصحف - الجزء من الكتاب بما يشبه مجموعة الملزم - وكان الكتاب نفسه سرعان ما ينتشر ، وينسخه الناسخون ، ويقبل عليه العامة والخاصة ويتنافس الجميع من أجل ذلك ، ولنا فيه أكثر من دليل على سرعة انتشار كتبه وشهرتها .. من بينها :

● قيل لأبي هفان - عالم وراوية معاصر له - لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقه ؟ فقال : أمثلني يخذع عن عقله ، والله لو وضع رسالة في أرنية أنفى لما أمست الا بالصين شهرة !

● وذات مرة ، أظهر أحدهم بعض الخطأ في كتابه « البيان والتبيين » قاسرع اليه حتى يقوم باصلاحه ، نظر الجاحظ اليه وكأنه يقول له ، لقد فات وقت الاصلاح .. وأصبحت النسخ بأيدي القراء .. قال له : الآن وقد سار الكتاب في الآفاق ، هذا خطأ لا يصلح ..

(٤) يؤلف فقط أم يجمع أيضا ؟

حتى نصل اخيرا الى نقطة أخرى هامة من النقاط المتصلة بهذه الدراسة
٠٠ والتي يمكن أن تضيف جديدا مفيدا الى موضوعنا ، بعد كل هذه الرحلة
للدلالة على أن الجاحظ له جانبه الصحفى ، كما أن له جانبه الادبى ، وان
اختلفت مستويات الجانبين من أن لآخر ، من كتابة لأخرى ، من مجال لمجال ٠٠

وهذه النقطة نقدمها هنا فى صورة سؤال أساسى يقول : هل كان ما يفعله
الجاحظ كله ، من أوله الى آخره ، بجميع جزئياته ، مما يدخل فى مجال
التأليف ؟ والتأليف الابداعى وحده ؟

وفى أسلوب آخر : هل كان هذا النتاج الجاحظى المتعدد والمختلف ، يأتى
من بنات أفكاره ، أو من بنات أفكاره وحدها ، مختلطة ومتشابكة مع مواهبه
التي منحها الله إياها ، تماما كما هو الحال عند الشعراء والقصاصين وغيرهما
من المبدعين ؟

● اتنا نقول أولا : لعل فى أكثر المقدمات السابقة ، ما يؤكد أن الرجل
كان مبلغ همه ، وكان أكثر نشاطه ، وكان جل اهتمامه موجها بالدرجة الأولى
الى :

— البحث عن موضوعات مهمة وجديدة وجذابة
— ليجمعها ولينقلها عن المصادر المختلفة ، خاصة المخطوطة ، مؤلفة
أو مترجمة ، ثم البشرية من الذين صنعوها أو عاصروها أو كانوا شهود
عيان عليها ، أو عن طريق روايتها ، أو تلك التى كان هو شاهدا عليها

— بعد أن يصورها فى يوتقة الجاحظية الخاصة من حيث شرحها
وتحليلها ومقارنتها بغيرها ، والخروج من كل ذلك بعمل فنى جديد يمكن أن
يصبح نتيجة لهذه المقدمات ، كما يمكن أن يصبح أيضا بمثابة مقدمة لأعمال
فنية جديدة وأخرى ٠٠

— مع تقديم كل ذلك بالطابع الجاحظى الخاص فكرا ولغة واسلوبا

- ١٢٦ -

● ثم نقول ثانيا : أن النقطة الأولى (البحث) والنقطة الثانية (الجمع والنقل) ٠٠ هما من خصائص الباحث والصحفي ، أو الباحث الصحفي ، أكثر من كونهما من خصائص المؤلف الذي يقدم بنات أفكاره الخاصة ، وابداعه الذي يعكس مواهبه .

— ان الجاحظ — مثلا — لم يترك لنا ديوان شعر كامرئ القيس أو كزهير بن أبي سلمى أو كالنابغة ، أو كحسان بن ثابت ، أو كالبحترى أو كأبي تمام أو كأحمد شوقي ٠٠

— ولا هو ترك لنا عدة خطب عصماء ، مثل تلك التى تركها قس بن ساعدة الأيادى أو على بن أبى طالب ، أو قطرى بن الفجاءة أو مصطفى كامل أو غيرهم ٠٠

— ولا هو بالذى ترك لنا بديع مقاماته العربية — ولم يعرف عنه أنه قام بتأليف قصة من القصص العربى ، الذى كان بعضه قد عرف فى عهده ، وقبل عهده ٠٠ وعلى الرغم مما جمع وروى من قصص العرب وأخبارهم وأنسابهم وتاريخهم الى غير ذلك كله ، من الوان النشاط الأدبى الفنى البحث ، وإنما أخذ هذه الفنون والأطر الأدبية التى كانت معروفة فى عهده أو على عهد سابقه ، (أى قام بجمعها) ٠٠ ثم روى بعضها لنا عندما كان المجال هو مجال الرواية ، وحكى بعضها الآخر عندما كان المجال هو مجال الحكاية ، ونقد بعضها الثالث عندما كان المجال هو مجال النقد ، وسخر من بعضها الرابع عندما كان المجال هو مجال السخرية ٠٠ وقل مثل ذلك فى أغلب ما قدم على صفحاته ، مختلطا بالطابع الجاحظى نفسه ٠٠

● ثم نقول ثالثا : وإذا كان « البحث » طابع العالم ، فهو ليس طابعه وحده . فهناك الباحث الصحفي ، والاجتماعى والقانونى والقرائى ٠٠ وغيرهم . لكن مادة الرجل المتنوعة والمتعددة ، وحسن اختياره للموضوعات التى تشبه موضوعات صحف اليوم ومجلاته — خاصة الأخيرة — وطرق وأساليب بحثه ، والقالب الذى وضع فيه مادته ، ولغته وأسلوبه ، تجذبه بشدة الى الجانب الصحفى . وإذا كنا نرى كثرة عديدة من الصحف والمجلات الآن . تبذل عنايتها الكبيرة من أجل انشاء أقسام « الأنباء » الصحفية ، وبعضها يضم « المكتبة الصحفية » وبعضها يضم « مركز المعلومات » كله حتى يكونا فى خدمة «البحث

- ١٢٧ -

« الصحفي » أو « الدراسة الصحفية » ٠٠ وصلتها كبيرة جدا بـ : « التحقيق الصحفي » أو « التحقيق الدراسي » الذي يقوم المحرر المناسب ، أو أكثر من محرر بتنفيذه على مهل ، ويستغرق منه - أو منهم - ذلك التنفيذ وقتا طويلا ٠٠

وإذا كان ذلك كله هو ما يحدث ، فلعله يذكرنا بموقف كتابات جاحظية كثيرة ، أن المحرر هنا لا يؤلف ، وكذلك الباحث ، ومثلها الجاحظ نفسه ٠٠

● وحتى في المجالات التي احتل الرجل فيها موقف « المؤلف » عن جدارة واستحقاق فلم يكن مثله مثل « المخترع » الكامل ، أو « الشاعر » أو « القصاص » الذي يبدع ويبتكر ، وإنما كان يستند إلى أصول وقواعد واقعية تعيش ويراهها الناس أو قصها عليه الرواة والقصاصون والأخباريون ومن إليهم ، لكنه - وكما قلت - صهرها في البوتقة الجاحظية ، مثل ما يفعله الأديب - نعم - ولكن ليس الأديب وحده ، فالكاتب الصحفي يفعل ذلك أيضا ، ويقدم للناس الصور والمشاهد والألوان والتجارب والمواقف والقضايا بعد أن تنصهر في بوتقته الخاصة ، وأصبحت مشربة بروحه الخاصة ٠٠ والالما استمق أن يكون مثل هذا الكاتب ٠٠ ضاحب القلم وهو نفس الشيء ، بالنسبة للخروج من نتائجها بمادة جديدة مفيدة ، للقراء والمجتمع كله في نهاية الأمر ٠٠

● وأما عن الطابع الجاحظي من حيث اللغة والأسلوب ، فسوف تثبت السطور القادمة - بإذن الله - أنه لغة الجاحظ وأن أسلوبه ذواتا صلة قوية ، بلغة الصحافة وبأسلوبها ، وأن « البيان الجاحظي » كان من أكثر بيان عهده قربا من اللغة الصحفية التي نستخدمها اليوم ، بقدر ما ابتعدت عن لغة معاصريه ، وأساليبهم ٠٠ وأذن ، ومن خلال المقدمات السابقة ، فقد كان الرجل يؤلف ويجمع معا ، أي أنه لم يكن مؤلفا فقط ، أو أديبا فقط ، وإنما كان جامعا ناقلا ، يلتقط بمهارة ويجمع في دقة ، وينقل لنا في بلاغة ٠٠ ليس كذلك ؟

● ثم اننا نتساءل رابعا : هل حميم الصحفيين من الجامعين الناقلين المتنقلين لما يقدمه غيرهم فقط ؟ أو - في أسلوب آخر - هل يقتصر دور الصحفي - كائنا من كان - وفي جميع الأوقات والأقسام والظروف والمستويات على مجرد النقل عن الآخرين ، والنقل وحده ؟ ٠٠

الحق أن هناك نماذج ومستويات كثيرة من العمل الصحفي ، والصحيفة

— كخلية نشاط — يوجد فيها من يجمع « الرحيق الاخبارى » ٠٠ من يقوم بجمع الأخبار ، ومن يقوم بصياغتها ، ومن يقوم باستكمالها ، ومن يقوم بكتابة ما يمكن أن تسفر عنه من موضوعات وقصص اخبارية ، ومن يقوم بكتابة ما تسفر عنه من تقارير وتحقيقات ودراسات وبحوث ، ومن يقوم بشرحها وتفسيرها وتحليلها وبيان ما تسفر عنه وتأييد ذلك أو تأكيده أو معارضته وهكذا ، وهكذا أيضا نجد أن هناك المحرر الذى يجمع وينقل عن غيره — وهم كثرة — ونجد كذلك المحرر الذى يجمع وينقل ويثبت ذاتيته وتقوده بما يقدم بعد الجمع والنقل ، تماما كما لا نعدم وجود المحررين المؤلفين ، أو المؤلفين من المحررين الصحفيين ، بعضهم يؤلف فى مجال السياسة ، وبعضهم الثانى يؤلف فى مجال الأدب ، وبعضهم الثالث فى مجال الفن ، والرابع فى مجال الاقتصاد ٠٠٠ وذلك كله فضلا عن الباحثين الصحفيين المتميزين من أعضاء أسرة قسم الأبحاث ، أو التحقيقات الصحفية أو غيرها .

بل اننا اذا نظرنا الى التأليف بمعناه القريب ، أو حتى معناه الأدبى — ودون اسراف منا فى ذلك حتى لا تختلط الحدود — فاننا لن نعدم وجود عدد من المحررين « الأدباء » بل والشعراء أيضا ، فهذه واحدة ، وتلك أخرى ، على الرغم من كل الفروق القائمة ، بين الصحافة الخبرية ، أو الاخبارية ، وبين الأدب ، ولا أقول بين غيرها من ألوان الصحافة ، وبين الأدب الصحفى ٠٠

● باختصار شديد أقول أخيرا ، خذ عندك أحد الكتب الجاحظية الشهيرة من أمثال : الحيوان — البخل — أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات — الزرع والنخل والزيتون والأعشاب — الملوك والأمم السالفة والباقية — الأمصار — رسالة فى الكيمياء — المعادن — رسالة فى الخراج ٠٠ تجد أن الطابع الغالب عليها هو طابع الجمع والنقل من هنا ومن هناك ، فهو بالنسبة لها جامع ناقل ، باحث ، أكثر منه مؤلف علمى ، أو فنى ، بالمعنى المتعارف عليه فى هذين المجالين ، وقد أشرنا من قبل الى أنه لم يكن عالما بالمعنى المعروف والقريب من الأذهان عندما يذكر تعبير العالم ٠٠ كذلك هو فى بعض أدبياته ، ولا أقول كلها بالنسبة لتعبير « المؤلف » ٠٠

● بل لفتنا للتسايل خامسا . واكثر من سؤال واحد :

— هل وصفه الحى الواقعى للبخلاء ، والزنوج واللصوص والحواء
كما شاهدها بعينه ٠٠ هل يعتبر ذلك أدبا ؟ أم صحافة ؟ أم هما معا ؟

— وهل يعتبر نقله لجميع الصور والمشاهد التى جرت أمام عينيه
فى البصرة وبغداد ، أيعتبر أدبا ؟ أم يعتبر صحافة ؟ أم هما معا ؟

— وهل فى عشقه للحرية ، ورفضه للمناصب الحكومية وزهده فيها .
ما يقربه ما طابع الأديب ؟ أو الصحفي ؟ أو من طابعهما معا ؟

— وهل فى كتاباته القائمة على الصديق أولا ، وعلى الدقة ثانيا ،
وعلى الموضوعية ثالثا ، ونبذه بذلك كل رواية مختلفة ، أو ملونة ، أو اضيف
اليهاكروايات بعض رجال البحر والسماكين وبعض المترجمات ٠٠ هل ذلك
كله يدخل فى عالم الأدب ؟ أم فى عالم الصحافة ؟ ، أم فيهما معا ؟

— وهل فى بعده عن الخيال ، الى حد كراهيته له وحديثه عن ذلك
كثيرا مما يقربه من الأديب أكثر ، أم من الصحافة أكثر ؟

للحق أن بعض هذه الصور والانشطة والمعطيات قد يأخذ من الأدب
بجانب ، ولكنه يأخذ أيضا من الصحافة فى مجموعه ، وعلى سبيل التركيز .
بالعملية التحريرية وما تتجه اليه من أطر وأنماط وأساليب ، تتوقف عندها
قليلا ، وعلى اثر رصدنا لبعض الأقوال التى تناولت الرجل ٠٠ مما يذكر
بهذه النقاط السابقة فى مجموعها ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

● ان بعض المؤلفين قد حاول الوصول الى جوانب هذا التعدد الذى
يؤكد وجه الجاحظ الآخر — وجه الصحفي هنا — فكتب يقول عن الجاحظ أنه :
تناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه ، مما وضع فى الاسلام ، أو
نقل عن الأمم الأوائل ، فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس ، أو
يخطر بالبال ، فهو راوية متكلم فيلسوف كاتب مصنف مترسل شاعر مؤرخ
عالم بالحيوان والنبات والموات وصاف لأحوال الناس ووجهه معاشهم
واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم ، (٢٢) ٠٠

(الجاحظ)

- ١٢٠ -

أى أنه ليس أدبيا فقط ، وإنما يجمع بين أكثر من نَزَجْل واحد ، لعل أقربهم إليه ، هو الصحفي ، الذى يتسع عمله فى أحيان كثيرة ، لبعض أعمال هؤلاء معا .

● ويقول آخر ، عندما رأى تعدد كتاباته ، حتى أنه لم يترك موضوعا ألا وكتب فيه ، حتى الشطرنج والتفاح والأصنام وأخلاق الملوك والجن والغول والطعام وغيرها ، وغيرها بما يؤكد طبيعة الرجل « الجامع » الماهر ، المجدد للفكر ومتعدد الجوانب أيضا : « لم تقف به همته عند إحدى تلك الغايات التى بلغ بها اكابر الكتاب ممن تقدمه أو عاصره فلم يشأ أن يتخصص كما تخصصوا ، ولم يرد أن يتميز بالأنواع التى بها تميزوا بل حمل نفسه على أن ييزهم جميعا - لأنك تراه لم يترك علما معروفا فى زمنه لم يضع فيه مؤلفا ، ولم يدع فنا لم يكتب فيه مصنفا ، وقد يكون هذا المصنف أو ذاك المؤلف رسالة موجزة ، وقد يكون سفرا متعدد المصاحف والأجزاء » (٢٢) .

هل يمكن - بعد ذلك كله - أن نقول ، أن للرجل أكثر من مستوى واحد ، من مستويات الكتابة ؟

— أما المستوى الأول ، فهو المستوى الأدبى الكلاسيكى ، الذى كان الرجل يقف فيه مبدعا منشئا مبتكرا :

— وأما المستوى الثانى ، فهو مستوى الباحث العام ، الجامع الناقل الدقيق والصادق .

— وأما المستوى الثالث ، فهو مستوى الكاتب الصحفى ، الجامع الناقل الدقيق والصادق أيضا ولكنه وبالإضافة الى ذلك ، مستوى مصور عصره ، فى واقعية ومطابقة لمقتضى الحال .

الأول ادیب والثانى باحث والثالث صحفى . لكن الباحث والصحفى يلتقيان فى مواقع عديدة ، وصفحات عديدة أيضا ، ومن هنا كان الرجل كل هؤلاء معا ، بل أن الصفحات القادمة سوف تثبت - بإذن الله - أن الرجل عرف مستويات التعبير الصحفى كلها . الأصلية والفرعية أيضا ، وليست هذه المستويات الثلاثة الأخيرة فقط .

- ١٣١ -

هوامش الفصل الرابع :

- (١) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحليل الصحفي العام »
ص ١٦ - ١٧ .
- (٢) خلال الفصل الأول من هذا الكتاب .
- (٣) - ٤ - ٥ - ٦ (محمود أدهم : « الفكرة الاعلامية » صفحات ٩ ، ١٠ ، ٤٩ .
- (٧) الأب فيكتور شلحت اليسوعى : « النزعة الكلامية فى اسلوب الجاحظ » ص ٨ .
- (٨ - ٩) حسن السندوبى : « أدب الجاحظ » ص ١٦٦ .
- (١٠) أحمد الاسكندرى وزميله : « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه » ص ٢٢٣ .
- (١١) رجاء العودة الى الفصل الثالث .
- (١٢) خلال الفصل الثالث أيضا .
- (١٣) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ١ ص ٢٠ .
- (١٤) المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٢ .
- (١٥) محمد سيد محمد : « الصحافة بين الأدب والتاريخ » ص ٢٢ .
- (١٦) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ١ ص ١١ .
- (١٧) المصدر السابق . ص ٢٧ .
- (١٨) "Essay"
- (١٩) عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحليل الصحفي » ص ٢٢٧
- (٢٠) عبد العزيز شرف : « فن المقال الصحفي » ص ٧ ، عن د. جونسون .
- (٢١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » من مقدمة ١٠١ عبد السلام هارون ج ١ ص ١٨ .
- (٢٢) أحمد الاسكندرى وزميله : « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه » ص ٢٢٢ .
- (٢٣) حسن السندوبى : « أدب الجاحظ » ص ١٩٧ .

الفصل الخامس

جذور الفنون الصحفية في أدب الجاحظ

بعد ذلك كله نتساءل : هل هناك صلة ما ، بين الفنون التحريرية
للصحفية وبين كتابات الجاحظ ؟ هل توجد هذه الجسور التي تمتد بين الأنماط
والأطر التحريرية المختلفة ، التي نراها فوق صفحات الجرائد والمجلات اليوم ،
وبين هذا النتاج الجاحظي المتعدد ؟ وأقول : الفنون والأنماط التحريرية فقط ،
وليس غيرها ، إذ المعروف أن الصحيفة أو المجلة تحتوى - أيهما - على مواد
أخرى عديدة ، بعضها تحريري ، وبعضها اعلاني وبعضها ترويحي ، وبعضها
مصور ، وبعضها جمالي ، وما الى ذلك كله .

•• فإذا عدنا الى أحد مؤلفاتنا السابقة ، لقلنا أننا خلال هذه السطور ،
نبحث عن تلك الصلات التي يمكن أن توجد أو أن نجد رابطة ما تقوم بينها
وبين هذا الجانب من جوانب « محقوى » الصحيفة أو المجلة الحديثة : لأنها :

« — مادة « تعريفية » بالصحيفة أو المجلة ويصفحاتها وأبوابها
وزواياها الخ :

— مادة « خبرية » أو اخبارية حديثة وقائعية مفردة أو موزعة أو
متشابهة .

— مادة تجمع « بين الرأي والخبر » أو تأخذ من كل منهما بنصيب .

— مادة « معلوماتية » متداخلة مع المواد السابقة أو مفردة .

— مادة « تقريرية » تسجيلية « تجمع بين أكثر من مادة من المواد
السابقة .

— مادة « توجيهية وإرشادية » مفردة أو متشابهة .

— مادة « تعليمية » .

— مادة « خاصة أو متخصصة » .

— مادة « مسلية » أو ممتعة ومؤنسة بالحرف والكلمة والسطر .

— مادة « متنوعة » تجمع بين أكثر من جانب واحد من الجوانب
السابقة « (١) .

وبطبيعة الحال ، فأننا لن نركز على جميع هذه المواد ، وما تعنيه بالنسبة
لتحرير الصحيفة أو المجلة من جانب ، ومن حيث الصلة بكتابات الجاحظ من
جانب آخر ، وإنما نركز على بعضها المهم أولا ، والذي تتضح هذه الصلة
نفسها في مجاله •• كما نشير هنا الى أن اعتمادنا الأول ، سوف يكون على

عدد من مؤلفاتنا السابقة سواء تلك التي تناولنا فيها هذه الفنون من جانب ، أو تلك التي اشرنا فيها الى الصلة التي قامت بين جذور هذه المادة التحريرية ، أو هذا الفن التحريري ، من جانب آخر ، أو ما استجد لدينا من خلال المادة الجاحظية ، مما يعكس هذه الصلة نفسها أو يقيم بينهما الجسور المختلفة ، ومن هنا نقول :

أولا : من حيث المادة التعريفية بالصحيفة أو المجلة .

إذا كنا قد اعتبرنا أن هناك أكثر من وجه من وجوه الشبه بين بعض كتابات الجاحظ ، لا سيما بعض رسائله ، وأجزاء كتبه الكبيرة ، وكتبه في مجموعها ، فإن هذه الصلة بين المادة للتعريفية بالصحيفة أو المجلة لم تكن قوية ، وذلك لأكثر من سبب :

— أن ارتباط التعريف هو أساسى بالصحيفة أو المجلة الحديثة ، وبدا منه ، فإنه يوجد لكل كتاب أو رسالة عنوان يكون أكثر ارتباطا به ، وقد كانت آثار الجاحظ الفكرية كذلك .

— أن صفة الدورية وتتابع الصدور لم تكن معروفة بالنسبة لهذه الآثار على النحو الذي تعرف به الآن بالنسبة للكتب الدورية ، أو للكتيبات أو النشرات الدورية مثلا .

— أن التعريف بالآثار الجاحظية ، كتابا كان أو كان مصحفا أو كانت رسالة ، كان يقدم فعلا ، ولكن من خلال « فاتحة الكتاب » أو مقدمته ، وكانت هذه أقرب الى المقال منها الى مجرد التعريف البسيط الذى يقدم كلمات قليلة جدا ، كما هو الحال بالنسبة للمادة التعريفية الصحفية أو المجلانية ، ومن ثم ، فإن تعريف الجاحظ بكتبه — كرائنا — هو أقرب الى المادة المقالية .

ثانيا : من حيث المادة الخيرية :

وأما من حيث المادة الخيرية ، وصلة الكتابات الجاحظية بها فقد تناولناها أكثر من مرة . خلال صفحات الكتاب ، ومن ثم فلا حاجة بنا الى اعادة ذلك التناول . وإنما نحن نقول فقط وباختصار شديد :

— ١٣٧ —

— أن الرجل كان جامعاً للأخبار من الطراز الأول . وضح ذلك من كتبه جميعاً ، فلم يك يترك المناسبة دون نكر ما يعرف من الأخبار الجديدة عنها التي جمعها أو أتاه بها مصدر ما من هنا وهناك .

— وأن المادة الاخبارية عنده بعضها كان مفرداً لحاله ، وبعضها يتشابه مع غيره من المواد ، شأنه في ذلك شأن كثرة من أخبار المجلات التي تأتي عبر موادها التحريرية وفي ثناياها .

— أنه عرف الأسس والقواعد الرئيسية التي تقوم عليها الأخبار ، بل ووضع الرجل رسالة في ذلك أطلق عليها اسم : « الأخبار وكيف تصح » . — أنه كان يسعى من أجل تطبيق عنصر « الانتقاء » لمادته الاخبارية فلم ينشر أى خبر كان ، ولم يورد أية مادة اخبارية بين ثنايا كتاباته على أى نحو تكون وإنما كان الرجل يصطفى من بين ما يتجمع لديه منها الجديد والمهم ، والصادق ، والجذاب ، والطريف . . قبل غيرها من أخبار قديمة أو معروفة ، أو غير مهمة ، أو جافة أو غير صحيحة .

— أن عنايته كانت تتجه الى أهمية الخبر في حد ذاته ، ومن حيث كونها مادة خبرية ، فلم يقدم مالا يستأهل التقديم من أخبار الحكام والأمراء ، في الوقت الذي قدم فيه ما يستحق من أخبار العامة . . الذين يقفز بعضهم الى قمة الأحداث ، فتتحقق لهم الشهرة من خلال الحدث نفسه — كزعيم الزنج مثلاً — وليس من خلال أى شيء آخر ، أى أنه كان ينظر الى عنصر الشهرة ، بتفاعله مع العناصر الأخرى ، وليس مجرداً ، وهى نظرة جديرة بالتأمل ، بل انها لتسبق نظرة كثير من صحف اليوم ومجلاته الى هذه الزاوية ، تلك التي تلهث وراء أى عمل مهما تكن درجة أهميته ، مادام أن صاحبه شهيراً ، أو أنه من النجوم ، بينما لا تهتم الاهتمام الخائل ، ولا نصفه ولا ربه أحياناً ، وقد تتجاهل تماماً عملاً كبيراً ، علمياً أو أدبياً مثلاً ، طالما أن صاحبه ليس له مثل شهرة هذا النجم .

ثالثاً : من حيث المواد التي تجمع بين الرأي والخبر وتلك التقريرية التسجيلية :

الحق ، أن هناك أكثر من مادة ، وليست مادة واحدة فقط ، هي التي

تدخل ضمن حدود هذا البند ، ولذلك ، فاننا سوف نتناول هنا من بين هذه المواد ذات الصلة بكتابات الرجل المختلفة ، هذه كلها ، من خلال استعانتنا بقراءة في بعض مؤلفاتنا السابقة •

(١) كتابات الجاحظ وجذور الحديث الصحفي :

لم ينتقل الجاحظ من مكان لكان ، ولم يلتق بالعديد من المصادر ، رواية وبحريين ومريدين ومسجدين وعلماء ، من أجل الارتحال فقط ، أو لمجرد اللقاء بهؤلاء ، تماما كما أنه ليس من أجل النزهة ، رحل الى هنا والى هناك ، وليس من أجل التعرف على هذه المصادر ، أو قضاء وقت فراغه بينها ، كانت جلساته الطويلة معها ، وانما كان ذلك ، وفي اكثر الأحوال :

- ليعلم عنها بعض ما تعلمه . مما كان يجهله أو يعلم غيره ، أو يعلم مثله •
- ليسمع منها الأخبار والقصص والتاريخ والانساب وغيرها •
- ليتأكد منها من بعض ما يريد أن يتأكد منه ، في موضوع يشغل فكره •
- لتصبح له بعض ما يريد أن يصححه •• لاهتمامها به أو تخصصها فيه •

— ليعرفها أكثر ، لأنها شخصيات جديدة بأن تعرف لذواتها أو أهميتها أو أنشطتها الى غير ذلك كله من أهداف •• حيث كانت « المقابلات » تجري بينه وبين هؤلاء ، ومعها تطرح الأسئلة ، وتدور المناقشات ، وتأتي الاجابات • ويتحول بعضها الى أسئلة جديدة ، تتتابع بالتالى اجاباتها •• كل ذلك بينما ذاكرته الحافظة تعمل ، وتسجيلاته أو تسجيلات وراقبه تتم ، وجميع حواس الرجل قائمة على قدم وساق ••

أى أن الرجل كان يسأل ••

وحتى ان لم يكن يسأل •• فقد كان يستمع ، ويعلم •• ولكن •• فى النهاية ، نقول : لم كان كل هذا الجهد •• وقبل ان نقدم

- ١٢٩ -

الإجابة تشير الى انه كان يفعل ذلك أكثر من غيره من أمثاله الكاتبيين ، خلال هذه الفترة ، وحيث كان أكثرها يعتمد على ما تقدمه له دكاكين الوراقين والمكتبات ٠٠ وما يستطيع الحصول عليه من مخطوطات ، وصحيح أن الجاحظ كان يستخدم هذا الأسلوب نفسه ، وربما بأكثر من بعضهم ، وقد أشرنا الى ذلك فى حينه ، لكن اعتماده على هذه المصادر المكتبية ، أو الوثائقية لم يكن دائما ولا كاملا وإنما كان يصحبه فى أوقات كثيرة اعتماده على عنصر السماع ، خاصة فى تلك الموارد التى تقترب من الطابع الصحفى لا الأدبى ، من ذات الطابع الحالى ، الاخبارى وما يتصل به من معلومات مختلفة .

مرة أخرى ، لم كان كل هذا الجهد فى السماع والتساؤل والمناقشة وما يتصل بهذه الأمور ؟ ٠٠

من البديهي ، ومن المؤكد ، أن حصيلة ذلك كله ، كانت تصب فى المعين نفسه ، معين نشر ما يتجمع لديه من مواد بعد تعرضها لجوانب الاختيار والاختبار والحذف والاضافة والصقل والتهذيب ٠٠ وما الى ذلك كله ٠٠

ونظرة على كثرة من كتابات الرجل التى ذكرنا والتى لم نذكر ، نجد عددا كبيرا منها :

- اما أنها تأتى كما تأتى الاحاديث ذات الأسئلة والاجابات الضمنية ، أى دون حاجة الى ذكر السؤال والاشارة الى طبيعة الجواب .
- واما بدون السؤال مع استخدام أكثر من تعبير دال على الجواب
- أو بذكر المصدر فى بداية الكلام على النحو الذى سبقت الاشارة اليه .
- أو باستخدام المداخل المختلفة ، الاشارية أو القولية أو غيرهما .
- وأحيانا باستخدام السؤال والجواب ايضا ،
- أو بجعل المادة كلها ، نصا واحدا بينما هو فى الواقع نتيجة لهذه التساؤلات وتلك المناقشات .

— أو بوضعها فى أشكال وقوالب أخرى ٠٠ كانت نتاجا لموهبته الكتابية الكبيرة ٠٠

- ١٤٠ -

بل ان هذه الموهبة نفسها هي التي تدفعنا الى القول - دون اسراف في تلك أو مبالغة - أن الرجل قد اقترب أحيانا في عرضه لمادته المتجمعة من وراء هذه الاحاديث والمناقشات ، من بعض قوالبها التي تعرفها صحف اليوم ، لاسيما قالب « العرض المباشر » ٠٠ الذي يضع المادة بين أطر كلمات من مثل : « أوضح - لاحظ - استهجن - أشاد - امتدح - ذكر ٠٠ الخ » وكذا اقترب من قالب « العرض الحوارى » الذى يضعها أو يقدم لها بالفعل « قال » ومشتقاته فى الأعم ، كما اقترب أيضا ، خاصة فى حالات وصفه لبعض الأفراد من قالب « العرض الوصفى » الذى يركز على تقديم صورة لهم وهم يتحدثون : « قال وهو - تمطى ثم قال - ثئاب وهو يقول - وهو يتعجب - ٠٠ الخ » ٠٠ وذلك كله فضلا عن اقترابه من بعض ملامح « القالب الاخبارى المباشر » كراوية واع وفذ ، لما كان يدور حوله أو يشارك فيه .

واذا كنا - خلال الكلمات السابقة - قد حاولنا أن نقرب بين طرقه فى كتابة أمثال هذه المواد المنقولة عن الغير عن طريق التساؤل والمناقشة والسمع والرواية . فانه يتأكد لنا من خلال ذلك كله ، كم كانت هذه المواد التى عاش الرجل مناخها وسمعها عن الغير وشارك فى مناقشات أو أخذها عن آخرين كم كانت قريبة من بعض ألوان الأحاديث الصحفية لاسيما والهدف كما قلنا ، هو النشر وإطلاع القراء عليها فى رسائل أو مضاحف أو كتب سرعان ما كانت تنتشر فى الافاق ، وتسير بذكرها السن الركبان ٠٠

أو ليست « الأحاديث الصحفية » أو « المقابلات الاعلامية » تعنى مثل هذا التسجيل الحى الواقعى فى أغلب الأحوال لما دار أو يدور من مناقشات تتزاحم فيها الأسئلة ، وتزخر بالاجابات ، وتتصارع فيها الآراء ، وتقدم المعلومات ؟ ٠٠ وجميعها لا تقوت على العين البصيرة ، والأذن الخبيرة والذاكرة الحافظة ، التى تعى وتظهم وتسجل ٠٠ ثم تعود وكأنها تكتب بذلك كله ، تقريراً عما حدث ، لتحمله بعد ذلك عدة صفحات تتناسب وطبيعة عصرها وامكانيات أصحابها المادية والفنية ٠٠

ولماذا - وقد فعل الرجل ذلك وقدمه بوسيلة النشر المتاحة له - لماذا نذهب بعيدا ، وهذه الأحاديث الصحفية نفسها ، هى وكما عرقها البعض (١) من لغويين ورجال اعلام معا :

— فصاحب « المصباح المفير » ٠٠ أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي يذكر في باب الحاء مع الدال وما يثلثهما قوله : « والحديث ما يتحدث به وينقل » (٢) ٠٠ أوليس هذا هو ما فعله الرجل ؟

— وصاحب « مختار الصحاح » ٠٠ الامام محمد بن أبي بكر الرازي يذكر في باب ح د ث ٠ : « الحديث الخبر قليلة وكثيرة ٠٠٠ » (٣) الم نشر الى أن أكثر مادته الاخبارية جاءت محصلة لأحاديثه ٠

— وترى مؤلفة مجتهدة مما يعبر عن المعنى نفسه : « الأحداث التي نشاهدها وبتشاهدها العالم طوال أيام السنة من صنع الأفراد ، وأهم عمل يقوم به الصحفي هو التحدث مع هؤلاء الأفراد الذين يصنعون أحداث الحياة » (٤) ٠

— ويرى أستاذ علوم الاتصال بجامعة ولاية بنسلفانيا : « في تعبير واحد ٠٠ ان مصطلح الحديث الصحفي يشير الى الطريقة الفنية التي تجمع بواسطتها أكثر الاخبار » (٥) ٠٠ وأقول والمعلومات والآراء أيضا ، وهو ما فعله الجاحظ منذ عشرة قرون ، بصرف النظر عن الاطار الذي كانت تجري فيه مقابلاته . وسرعة القيام بها ونشرها ، بسبب الظروف نفسها ٠

— وتقول باحثة شهيرة في هذا المجال : « ان الأشخاص يسألون من أجل الحصول على المعلومات التي يعرفونها أو من أجل آرائهم أو أفكارهم التي تتصل بمجالات اختصاصهم » (٦) أوليس ذلك ما كان يفعله خلال مناقشاته مع مصادره من أخباريين وقصاصين وعلماء ٠٠

— حتى نصل أخيرا الى تعريفنا الخاص لهذا الفن ، لنجد التماثل الكبير بين ما كان يفعله الرجل ، وبين هذا المفهوم ، باستثناء ما أوجده العصر نفسه من أطر فنية حديثة ، ووسائل اتصال ، وبعض الاهداف « العصرية » نفسها ٠٠ انه التعريف الذي يقول أن الحديث الصحفي هو :

« تقرير يكتبه محرر في لغة واضحة وجذابة لينشر في الوقت المناسب في صحيفة أو مجلة أو توزعه وكالة أنباء عن مضمون مقابلة حديثة أجراها وحده أو مع غيره نيابة عن القراء أو وكالة هاتفية طويلة أو بالاتصال بالبريد

فى أحيان قليلة مع فرد أو أفراد من المسؤولين أو أهل الثقة أو صناع الأخبار للحصول بالتساؤل والمناقشة على المعلومات والآراء والمواقف الخاصة بهم أو المتصلة بالأحداث والقضايا والأفكار الجديدة التى تهم القراء والمجتمع بهدف اعلامهم وتوعيتهم وتوجيههم وتنقيفهم وتعليمهم وتنمية مجتمعهم وتسليتهم وتحقيق الربح المادى لوسيلة النشر « (٧) » .

لا نترك ذلك كله ، وننتقل الى مادة جديدة قبل تقديم بعض النماذج للمقابلات والمناقشات والمحاورات الجاحظية ، التى قدم خلالها للقراء مادة اخبارية ومتنوعة ، وذلك بالاضافة الى ما سبق تقديمه مما يشير الى هذه الجوانب لاسيما خلال حديثنا عن مصادره البشرية .

● أما المادة الأولى فهى من « حديث رأى » موضوعه هنا لغوى الدرجة الأولى :

« .. وحدثني صالح بن خاقان ، وقال : قال شبيب بن شيبه : الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء ويمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع ويمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية ، وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت . ثم قال شبيب ، فإن ابتليت بمقام لا بد لك فيه من الاطالة ، فقدم احكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل ، قبل التقدم فى احكام البلوغ فى شرف التجديد ، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئاً فإن قليلا كامنا خير من كثير غير شاف .. ويقال انهم لم يروا خطيباً قط ٠٠٠٠ الخ » (٨) .

● وأما المادة الثانية فهى من « حديث خبر معلومات » موضوعه حيل الحيوان :

« حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوى العنبرى ، وأخوه روح الكاتب ورجال من بنى العنبر أن عندهم فى رمال بلعنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب صيد .. زعموا أنها إذا انتصف النهار وأشدت الحر فى رمال بلعنبر ، وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركز . أو عود ثابت فيجىء الطائر الصغير أو الجرادة ، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع .

— ١٤٣ —

على الرزمل لشدة الحر ، وقع على رأس الحية على أنها عمود ، فاذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فاذا كان جرادة ، أو جعلاً أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعتة ، وبقيت على انتصابها ، وإذا كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، (٩) ٠٠٠ الخ

ونكتفى بهذا القدر ، وننتقل الى فن تحريرى آخر ، وصلة الرجل به .

(ب) كتابات الجاحظ ، وفن التحقيق الصحفى :

لكن الرجل لم يستخدم أسلوب المقابلات . ولم يجلس الى مصادره ليناقشهم أو الى من سعى اليهم ليأخذ عنهم ٠٠ ولم يرتحل أيضاً ويجد فى طلبهم من أجل هذه الأنشطة الاخبارية وحدها أو لمجرد الحصول بالتساؤل والأخذ والرد ، على مثل هذه الاحاديث السابقة التى زخرت بها كتبه وكانت اطاراً للكثير من موادها التحريرية ٠٠ وانما نجح فى أن يستخدم السؤال والجواب ، والأخذ والرد ، والمناقشة والمحاورة حيث ينبغى استخدامها ليتجمع له منها بالاضافة الى بعض أساليب رؤيته الخاصة للناس والألوان والحياة فى عصره . تلك التى كان يضع يده على مشاهدتها من خلال انغماسه فى هذا المجتمع ، ودرايته بجوانب الايجاب والسلب فيه ، يتجمع له من وراء ذلك أكثر من مادة تحريرية أخرى ، ذات صلة وثيقة بتلك الفنون والأطر والأنماط ، التى تعرفها صفحات جرائدنا ومجلاتنا وكان من أبرزها ما يمكن أن يعتبر من جذور أو مقدمات فن « التحقيق الصحفى » .

استخدم الرجل أدوات التحقيق ، وعرف عدداً مما يعتبر الآن من أبرز عناصر هذا الفن ، نشير اليها هنا ، بعد تقديم تعريفنا الخاص لهذا الفن ، كما ورد فى مؤلفاتنا السابقة ٠٠ ان التحقيق الصحفى هو :

« تغطية تحريرية مصورة تضيف مزيداً الى خبر جديد أو يتناول موضوعاً قديماً أو مشكلة هامة ، وتكون أكثر من مجرد قصته أو تقرير عنه . مقدمة لظواهره ، رابطة بين أسبابه القريبة والبعيدة ، ونتائجه الحالية والمتوقعة ، مقدمة كذلك لآراء من يتصلون به عن قرب أو يثق القراء فى درايتهم بجوهره ، مع جواز تقديمها لرأى المحرر نفسه أو وجهة نظر وسيلة

النشر ، ضاربة المثل بوقائع مشابهة فى الداخل أو الخارج حديثة أو قديمة ، يقوم بها محرر يجمع بين صفات المخبر الصحفى والباحث وله دراية باللغة العربية وقدر من الذوق الأدبى ، ومعرفة بلغة أجنبية أو أكثر ومعرفة بالتصوير وبالاختزال . ويقدم بهذه التغطية مادة مفيدة ومشوقة ، وقد يوجههم بعدها الى وجهة معينة ، كما يقدم لصحيفته أو مجلته زيادة فى عدد النسخ المبيعة » (١٠) .

ولست هنا بمدح أن الرجل قد كتب تحقيقا صحفيا مكتمل البناء والمضمون ، انموذجى الطابع أو أكثر من تحقيق صحفى واحد من مثل هذه التحقيقات التى نشاهدها على صفحات الجرائد والمجلات عربية - على ندرة الجيد منها ولا أقول الممتاز - أو أجنبية ، على كثرتها ، خاصة على صفحات المجلات والصحف الأسبوعية ٠٠ لكننى أقول ، وفى ضوء المعطيات السابقة ، وباستقراء كثرة من كتاباته ، وهذا التعريف نفسه ، وباستثناء المسميات والتوجهات العصرية الحديثة نفسها :

١ - أما عن الأسئلة والاجابات فقد استخدمها الرجل بنجاح كبير فى مجالات عديدة تعتبر من خصائص أسئلة هذه المادة الأخيرة ٠٠

- فهو قد استخدمها فى جمع المعلومات الهامة واللازمة لمادته .
- وهو قد استخدمها فى التحقق من صحة ما يريد التحقق منه أو تثبته بين ثنايا مادته القريبة من هذا النمط التحريرى الصحفى .
- وهو قد طرحها على جميع أطراف النزاع أو الصراع أو المشكلة ليحصل على اجاباتهم التى تغطى موضوعه .
- وهو قد ناقش وناور وحاور ليحصل على ما لا يمكن الحصول عليه بالطرق العادية ، مما يعتبر من خصائص وتطورات الموضوع نفسه ، أو ما يتصل بالشخصيات ذاتها ، تلك التى كانت من صناع الحدث الذى يرتبط به موضوعه ٠٠

أى أن استخدامه لهذا العنصر ، يشكر تماما باسم استخدام « المحقق الصحفى » له .

٢ - وأما عن عنصر « الأفكار الجديدة والمستحدثة والمبتكرة » تلك التى

وضع يده عليها ، وراح يحققها أو يجمع ما يتصل بها ، الصحيح وغير الصحيح ، وينتقل بنفسه الى أماكن وجودها أو قيامها ، ليستمع ويحاور ويناقش ، فقد كان ذلك طبعه الذى جبل عليه والذى عرف عنه ٠٠ ونظرة على مثيلات هذه الأفكار كما ذكرت فى سطور سابقة ، لتؤكد موهبته فى هذا المجال ، سواء الأفكار الجديدة تماما ، أو تلك التى تناولها غيره دون أن يبقى هذا التناول أو يجذب أو يشد اليه أحد لياتى الرجل ويقدم الجديد بشأنها مما يلهب خيال معاصريه .

٢ - والقارئ لكتابات الجاحظ يدرك مما روى وقدم ووصف ونقل من الصور والمشاهد والألوان ، أنه لم يقدم الخبر الجديد فقط ، أو يلفت النظر الى موضوعه ويكتفى بذلك ، بل كان الرجل يقدم كل شيء عنه ، كل ما قرأه حوله ، وما سمعه من مختلف المصادر وما شاهده بعينى رأسه ، من مقدمات وظواهر وشواهد ونوادر وطرائف وأسباب بعيدة أو قريبة ، وقد يعرج على رأى قرأه فى مخطوط مترجم ، عن خبر أو واقعة أو قصة مشابهة ، حدثت فى بلاد الهند أو فارس أو رواها « أرسطو » الى غير ذلك كله ٠٠ من وقائع مشابهة ، حديثة أو قديمة ، فضلا عن العربية منها .

٤ - ثم - ومن خلال جميع المقدمات السابقة - من الذى يستطيع أن ينكر أن الرجل يجمع بين بعض صفات المخبر الصحفي والباحث ؟ وأما عن درايته باللغة العربية وعن ذلك القدر من الذوق الأدبى ، فلا ينكرهما الا غير سوى أو حاقذ ، وذلك كله بصرف النظر عن معرفة اللغة الأجنبية والتصوير والاختزال فهذه طرق وأساليب ترتبط بالحاضر أكثر من ارتباطها بالمناخ الذى عاشه الرجل دون أن ننكر قراءته النهمة لأغلب المترجمات المعروفة فى عصره .

٥ - أما وقد راح يقدم هذه « القفطية » التى « قتل » خلالها موضوعاته بحثا - وكما يقولون - وطاف وحلق وجمع وتناول أكثر ما كتب وقيل حولها ، من مصادرها المخطوطة ، والمتحدثة ، والمشاهدة ، فمن المؤكد أنه قدم لقرائه ، فى جيله ، وللاجيال من بعده ، الكبير والصغير ، العالم والمتعلم ونصف المتعلم ، تلك المادة المفيدة والمشوقة التى طوت فائدتها الحقب وقفز التشويق للمصاحب لها عبر القرون نفسها ، فهل يوجد بيننا من ينكر ذلك ؟

٦ - وأما التوجيه المثمر ، وأما الرأى القائم على معرفة خبير ، فجميعها (الجاحظ)

- ١٤٦ -

قدمها الرجل ، وان اختلفت طبيعتها من مادة الى مادة ثانية. ، الى الثالثة ، وفق نوعية هذه المادة نفسها وطبيعتها ، والهدف من تقديم التوجيه أو الرأي ..

٧ - تماما كما أن من المؤكد أن توافر هذه العناصر ، فى تلك المادة التى نقول باقترابها من فن التحقيق الصحفى ، والى حد احتسابها من جذوره الضاربة الأعماق فى الأدب العربى ، كان ذلك وراء سرعة انتشار كتاباته ، وترددها فى الافاق واقبال القراء عليها يستوى فى ذلك عامتهم ، أم خاصتهم ..

وهكذا نرى أن بالامكان أن تصدق جوانب كثيرة من تعريف هذه المادة، على بعض الكتابات الجاحظية المتميزة ، التى أقتربت بكل ذلك ، من خصائص التحقيق الصحفى .

ثم ماذا ؟ .. اننا نتوقف هنا عند عدة معالم أخرى ، مما يختص به هذا الفن لنرى انعكاساتها على مرآة الكتابة الجاحظية ، أو بعض ما يدل على وجودها فى سطورها المختلفة :

٨ - فاذا كانت أبرز أنواع التحقيقات الصحفية هى :

- التحقيق الخاص أو المتخصص : « علمى - عسكرى - رياضى - نسائى - اقتصادى .. الخ .
- التحقيق العام : « العام المشوق - المشكلات - الرحلات - دراسة الشخصية - الموسمى ..
- الدراسة الصحفية أو البحث الصحفى .
- الحملة الصحفية .

٠٠ اذا كانت هذه هى أبرز أنواع التحقيق الصحفى ، فاننا نرى من خلال تعدد كتابات الرجل ، القربية من التحقيق ، والتى تأخذ بعض معالمها ، وكذا من ضربها فى أكثر من مجال ، نرى أن هذه الكتابات الى الأنواع الآتية أقرب ..

● فكترة منها لا سيما تلك التى ترتبط بأمثال هذه الموضوعات :

- ١٤٧ -

« البحريون - الهدايا - السودان والبيضان - عجائب الحيوان - المأكول والمشارب - الجن والغول - حانوت العطار - أخلاق الشطار - أصحاب الالهام - حيل اللصوص - الجوارى - القيان - غش الصناعات - السماكين - زنوج البصرة » الخ ٠٠ هذه تكاد تكون الى « التحقيق العام المشوق » أقرب ويموضوعاته ومضمونه أكثر التصاقا ٠

● وبعضها الثانى ، يكاد يكون اقرب من غيره - وان اختلطت حدوده مع حدود أنواع من المقالات وهو أمر طبيعى بالنسبة لهذه المادة بالذات - يكون أقرب الى ٠

(أ) التحقيقات الخاصة ٠

(ب) الدراسة الصحفية ٠

انها الموضوعات التى جاءت طى كتب ورسائل ومصاحف عديدة تتناول على سبيل المثال لا الحصر : « طبقات المغنين - الأصنام - أخلاق الملوك - الأمصار - الملوك والأمم السالفة والباقية - جمهرة الملوك - النرد والشطرنج - النبات والشجر - الزرع والنخل - المعادن - ٠٠٠ » الخ ٠

● وبعضها الثالث يقترب من تحقيق المشكلات ، خاصة ذات الطابع الانسانى ٠٠ انها مثل تلك الموضوعات وغيرها : « العادات والتقاليد والمعاملات السيئة - أحوال المكدين - أصحاب العاهات الخلقية كالحصول والعور والعرجان والبرصان - السكبرون والزناة - الطفيليون - الغشاشون - فتيان السوء - الحمارة » الخ ٠

● وبعضها الرابع ، كان يأخذ أكثر من وجه من وجوه الشبه ، مع أكثر من نوع مختلط ، أو تختلط ببعضها ، من أنواع التحقيقات السابقة ، تباعاً كما يأخذ من أنواع مواد تحريرية أخرى ، لاسيما الأحاديث والمقالات ٠٠

● ويبقى بعد ذلك ، كلمات تتصل بكتابه الشهيرين « الحيوان والبخلاء » ما الذى يمكن ان نقوله عنهما ، فى ضوء هذا الفن التحريرى الصحفى نفسه ٠

- ١٤٨ -

— اما عن الكتاب الأول : « الحيوان » ، ٠٠ فان الطابع الغالب عليه بأجزائه المختلفة أو « بمصاحفه » كما كان يطلق عليه صاحبه ٠٠ هذا الطابع هو أن بعضه الأول يمثل لونا من المادة الاخبارية المتصلة بأحداث الحيوان وصدامه بالانسان ، وأن بعضه الثانى يغلب عليه التآرجح بين مادتين أساسيتين ، وهما الدراسة الصحفية أولا ، والمقالات الموضوعية المتخصصة ثانيا ، أما عن الدراسة الصحفية ، فقد قلنا أنها نوع متطور من التحقيقات الصحفية . لا سيما تلك التى تتناول موضوعات جذابة وشائقة ، وأما عن المقالات الموضوعية المتخصصة ، فنقول أنها هنا من نوع التخصص العام الذى نجده فى المجلات التى تحمل هذا الاسم « التخصص العام » وليس التخصص الدقيق أو الكامل . ومن هنا ، فان بعض هذه الكتابات كانت أيضا تقترب . وتقرب بشدة من التحقيقات الصحفية ذات اتجاه التخصص العام ، والى حد اعتبارهما مادة واحدة .

— وأما عن الكتاب الثانى : « البخل » ، فان الطابع الغالب على الحانب الأول منه يشبه تماما ذلك الطابع الغالب على مثيله فى الكتاب السابق — الطابع الاخبارى — كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ثم يأتى الخلاف بالنسبة للجانب الثانى الذى نجده يتميز باتجاهين ، ويقرب من نوعين صحفيين تحريريين ٠٠ النمط الأول هو نمط « المقال الكاريكاتورى » ، الذى سوف نتحدث عنه بعد قليل ، وأما النمط الثانى ، فيستحق أن يكون مثل أجزاء من « حملة صحفية » على هذه الطائفة الشحيحة ، لكنها حملة « متنوعة » المواد . ما بين خبر صغير وكبير وأحاديث قصيرة . وموضوعات اخبارية ، متوجة فى النهاية بهذه الطائفة من المقالات الكاريكاتورية نفسها ٠٠

وببقى أن نقدم عددا من الأقوال التى تؤكد صدق وقوف مثيلات هذه الكتابات الجاحظية ممثلة لجذور أو طلائع التحقيقات الصحفية ، ونكتفى هنا بهذه الأقوال .

● أما الأول فهو عن محرر التحقيق الصحفى ٠٠ ذلك الذى قيل فيه وفى مادته :

— « العالم كله ميدان كاتبها » ، (١١) ٠٠

— « ٠٠٠ فهناك مكتبة كاملة عن صيد الحيتان والموضوعات البحرية
قد تكون فى متناول يديك » (١٢) .

— « ٠٠ لنفكر فى عبارة التحقيق الصحفى كمصطلح مرن ، فنحن
نستطيع أن نجعله يمتد بحيث يشتمل على مواد صحفية كالمقالات والشعر
والأقصوصة والقصص المسلية والأعمدة والنماذج والصور والرسوم
الايضاحية والمقطوعات الهزلية » (١٢) .

٠٠ ونكتفى بهذا القدر ، لنقول :

● عما نقلناه عن المصدر الأول : أى لم يعتبر الجاحظ العالم كله
هو ميدان كتابته وأن قلمه قد امتد الى جميع الصور الموجودة فى مجتمعة ،
أى التى سمع أو قرأ عنها ، أو ارتحل فى طلبها ؟

● وعما نقلناه عن المصدر الثانى : ألم يحتفظ الكاتب لنفسه بمكتبة
تتضمن كل الكتب التى ترتبط بمثل هذه الموضوعات المختلفة ، فضلا عن
ارتياده للمكتبات البصرية والبغدادية ودكاكين الوراقين ؟ ثم من أين جاءت
كتاباته عن الأسماك والحيوانات البحرية ، تلك التى زخر بها كتاب الحيوان ،
ومنها ما جاء عن الحوت والدلفين وغيرهما ؟ ٠٠ ان ذلك يعتبر بمثابة
« أنموذج » لما يكون عليه أن يفعله « المحرر المثلث » للتحقيق الصحفى .

● وعما نقلناه عن المصدر الثالث : وليس هذا ما كان طابع كثرة
من الكتب الجاحظية تلك التى قلنا أن بعضها يمثل بصدق ، « جذور » وبعضها
الأخر يمثل « مقدمات » أو « طلائع » التحقيقات الصحفية ٠٠

● وأما القول الثانى ، فهو لرائد من رواد التاريخ الأدبى ، فنذكره ،
ليقرر كل منا بعد قراءته ، ما الذى يختلف بين الأقوال الثلاثة السابقة فى
مجموعها ، وبينه ، انه ذلك الذى يقول : « بالاضافة الى ما سبق من اقوال
مماثلة » .

« يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعا عاما الا وكتب فيه رسالة أو
كتابا . ومن يرجع الى رسائله وكتبه يجده قد ألف فى النبات وفى الشجر

وفى الحيوان وفى الانسان وفى الجد وفى الهزل وفى الترك والسودان وفى المعلمين والقيان وفى الجوارى والغلمان ، وفى العشق والنساء ، وفى السنة وفى الشيعة والعباسة والزيدية والرافضة ، وفى حيل لصوص النهار وحيل سراق الليل وفى البخلاء واحتجاج الأشقاء ، وفى هذا ما يدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات فى خلاصة وبيان عذب « (١٤) » .

وإذا كان بعض المؤلفين قد أخذ عنا هذه الأفكار التى طرحناها ونحن نتحدث عن قصة هذا الفن بل وما اخترناه من كلام المؤلف السابق ، وحذف ما حذفناه ، دون اشارة ، فاننا ننهى هذه الفقرة ، بسطور من هذا البحث السابق لنا ، الذى وردت به هذه الاشارات وغيرها فى تعليق على امثال هذه الأقوال نفسها :

« ... ليس معنى ذلك أنه من الممكن أن نعثر فيما كتب الجاحظ على بعض ما يمكن أن يقترب من التحقيق الصحفى ، أو ما يمكن أن نعهده تبعاً لمفاهيم العصر : تحقيقاً صحفياً ؟ كتب بلغة عصره دون استخدام لكلمة تحقيق صحفى أو مراعاة للاشكال المعينة التى يراعيها الصحفيون اليوم ، التى سبق الحديث عنهما ؟ وهل يكتب محرر التحقيق الصحفى أكثر من ذلك ، أو فى غير هذه الموضوعات ؟ » (١٥) .

● « وأما القول الثالث ، فهو لأحد المهتمين به ، وبكتابات ، وإن كان هنا يتناول أيضاً كتاب « الحيوان » ..

يقول الرجل عن هذا الكتاب : « إذا شاء القارئ أن يجد فيه مبحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه » (١٦) .

ويضيف قائلاً : « فالجاحظ لم يكن اختصاصياً بل عالماً موضوعياً يلم من كل فرع بطرف على نحو ما عرفه القرن الثامن عشر فى فرنسا مثلاً » (١٧) .
يقصد بذلك الطائفة المسماة بـ « الانسيكلوبيديين » : Encyclopediste
وهم الذين قلنا أنهم كتاب المجلات الأولى ..

نعم ، لن يجد القارئ مبحثاً علمياً بالمعنى المعروف ، وإنما سيجد

« مبحثاً صحفياً » أو « دراسة صحفية » .. وهى نتاج تطور طبيعى للتحقيق الصحفى المتخصص ، كما سيجد « مقال تخصص عام » أو « مقالة موضوعية ، وهى من جنس مقالات المجلات وبعضها تدوب الحدود بينه وبين التحقيق الصحفى تماماً ، والى حد اعتبار التحقيق والمقالة الموضوعية بمثابة اسمين لمادة تحريرية واحدة ، بل ان هذه المقالة وان التحقيق الصحفى لتختلط ألوانها اختلاطاً شديداً مع « مقالات التخصص العام » أيضاً ، لا سيما « التحقيقات العلمية » .. التى أشرنا إليها خلال السطور السابقة ..

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن « الجاحظ » ومقدمات وطلائع فن التحقيق الصحفى ، بعد أن تناولنا هذا الجانب أيضاً فى أكثر من كتاب سابق لنا ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نحيل القارئ العام أو الدارس الى عدد من كتاباته الاجتماعية ، وتلك التى تناولت صور ومشاهد عصره ومشكلاته أيضاً ، فسوف يجد فيها الكثير ، مما يقترب من هذا الفن « القياسى » فحسبنا ما ذكرناه منها .

(د) كتابات الجاحظ وفن المقال الصحفى :

(١)

ويبقى بعد ذلك ، هذا الجانب من جوانب الابداع الجاحظى ، أدبا وصحافة معا يبقى موقف كتابات الرجل من هذا الفن الصحفى المتقدم ، بأنواعه العديدة والمختلفة وأين تقع منها ؟ وما مستواها ؟ ، وما الخصائص التى ترتبط بها ؟ لكن من الطبيعى - قبل ذلك كله - أن نمر مرورا عابرا على بعض تعريفات هذا الفن ، وعلى ما تعنيه الكلمة نفسها ، واستخداماتها العربية ..

● ان المقصود بالكلمة .. الكلام المنطوق أو الشفهى الذى يقصد به أحداث تأثير معين ، ثم أخذت الشكل الكتابى أو المدون بعد ذلك ، للدلالة على ألوان الكتابات الأدبية المختلفة ، التى مارسها الكتاب خلال نهاية العصر الأموى ، وعلى مدى العصور التالية خاصة العباسى .. ومن هنا ، ومنذ العصر الجاهلى ونحن نطالع أمثال :

- ١٥٢ -

« مقالة صدق - مقالة حق - مقالة سوء - مقالة شر - ... الخ » .
وقد وردت شعرا من مثل قول أوس بن حجر :

« ويكفى المقالة أهل الدحا ل غير معيب ولا عائب »

وكذا قول شاعر آخر :

« ام تجحدون مقالة من ريكم جبريل بلغها النبي فقالها »

كما وردت في حديث « النبي محمد صلى الله عليه وسلم » وفي خطبة « عمر بن الخطاب » في بيعة « أبي بكر الصديق » حيث قال : « اما بعد فاني قائل لكم اليوم مقالة قد قدر لي أن أقولها » . الخ .

● وأما عن تعريف المقال الأدبي فهو :

— « فن من فنون التأليف الأدبي يكتب نثرا ويعطى افكار المؤلف ومشاعره في أى موضوع من الموضوعات » (١٨) .

— « شكل أدبي يستخدم النثر عادة في توصيل الفكر من خلال طول معتدل يدور حول موضوع محدد ، ويكون الموضوع عادة اخباريا أو تعليميا أو تحليليا أى أنه يجمع بين الراى والخبر » (١٩) .

● وأما عن تعريف المقال الصحفي فهو ، « بالإضافة الى ما سبق ذكره عنه :

— « المقال اسم يطلق على الكتابات التي لا يدعى أصحابها العمق في بحثها أو الاحاطة التامة في معالجتها ، ذلك لأن كلمة مقال تعنى محاولة أو خبرة أو تطبيقا مبدئيا أو تجربة أولية » (٢٠) .

— « انشاء متوسط الطول يكتب للنشر في الصحف ويعالج موضوعا معيناً بطريقة مبسطة على أن يلتزم الكاتب حدود الموضوع » (٢١) .

— « الأفكار والخواطر والآراء ووجهات النظر المتصلة بفكر الكاتب

من جهة وينبض القراء واهتماماتهم من جهة أخرى ، وهو يكتب للنشر فى الصحف والمجلات أولا ، فى وقت معين ، وتختلف اطواله من مقال الى آخر ، وفق نوعية وطبيعة المادة المطروحة به ، (٢٢) .

— « المادة التحريرية التى يقدمها كاتب صحفى استنادا الى فكرة يحصل عليها من خلال حضوره ذهنى الصحفى ومعايشته للاحداث وعلاقاته الاجتماعية واتصالاته وقراءاته وخطابات القراء ومكالماتهم الهاتفية وما يرد عبر الأثير وذلك فى اطار يفسرها للقراء ويحيطهم بأبعادها ويوجههم بشأنها وقد يقوم بتأييدها أو معارضتها بطريقة تحمل طابعه فى التفكير وأسلوبه فى التعبير وذلك للنشر فى الوقت المناسب متلائمة مع طابع الصحيفة او المجلة واهتمامات القراء وصالح الفرد والمجتمع » ، (٢٣) .

(٢)

أردت بهذه المقدمة الطويلة نسبيا أن أسجل هنا بعضا مما سبق تسجيله على صفحات كتاب لنا ، من تعريفات مختلفة للكلمة والنوعين من المقالات معا ، حتى يمكن أن نضع أيدينا على أهم معالمها معا ، وعلى الصلات القائمة بينهما ، لنرى بعد ذلك ، الى أى حد توفرت أمثال هذه المعالم للكتابات الجاحظية ، التى نقول أنها يصح أن تكون من جذور ومقدمات وطلائع مقالات اليوم .

اننا وبصرف النظر عن بعض ما يتصل بمعالم صحافة اليوم ، مما جاء فى هذه التعريفات وكذا ما يتصل باستخدام بعض المصطلحات الجديدة ، التى ترتبط بالجوانب الصحفية العصرية . وفى ضوء ما يقدمه لنا التراث الجاحظي ، المتعدد والوفير ، نستطيع أن نقول :

● انه بصرف النظر عن جذور بعض المواد التحريرية السابقة التى كان الطابع الانتاجي الجاحظي فيها يغلب عليه طابع الجمع والنقل ، وما يسبقهما من رصد ، وإثبات ثم تحرير فإن الطابع الانتاجي الجاحظي هنا يختلف كثيرا إذ هو طابع ذاتي تعبيرى كامل ، وصحيح أنه يقوم على نفس عناصر الانتاج والصادر المختلفة ، الخاصة (كدقة الملاحظة) ، والبشرية (من أخذ عنهم من علماء ورواة وقصاصين) والمخطوطة (القرآن الكريم

وللحديث النبوي والكتب والرسائل المؤلفة) . . . لكن تبقى بعد ذلك رؤيته الذاتية الخاصة في كل ما سبق وحصل عليه ، بل ولماذا لا أقول ، رؤيته الموضوعية أيضا ؟ . . . ومن هنا ، من خلال الرؤيتين ، الذاتية والموضوعية تحقق ما نقول من انتاج النوعين من المقالات معا ، الأدبية والعلمية لينبتق منهما في أحيان كثيرة - رغم نشر الصحف لهما أيضا - ما نطلق عليه تعبير مقدمات المقال الصحفي ، تلك التي ارتفع مستوى بعضها الى حد كبير . . .

● وفي تعبير آخر نقول ، أنه اذا كان الجاحظ في مادته التي اقترت من العنوان السابقة بمثابة هذا « الجامع الماهر » . . . فانه هنا ذلك الرجل نفسه وكذا المفسر والمعلق والمحلل والناقد والمؤلف معا .

● وأما عن كتابتها ننثرا وأنها تعطي أفكار المؤلف ومشاعره في أي موضوع من الموضوعات - كما يقول تعريف الموسوعة الثقافية - فقد كانت كذلك عند الرجل أيضا ، بل يمكننا القول ، من خلال النتاج الجاحظي أيضا ، أنها - المقالة الجاحظية - جمعت أبرز الخصائص التي جاءت ضمن التعريفات الأخرى ، التي تلت التعبير السابق بل وتجاوزتها الى غيرها من خصائص أخرى ومثال ذلك ، بالاضافة الى ما سبق :

- الطول المعتدل (في أحيان كثيرة والمتغير وفق الضرورة) .
- الموضوع المحدد (في أغلب الأحوال) .
- الطابع الاخباري والتعليمي والتحليلي (اضاف اليها الطابع العلمي والتفسيري والنقدي والفكاهي والطابع العام أيضا) .

— والرجل لم يدع العمق في بحثه دائما ، أو الاحاطة التامة به ، وإنما اشار الى بعض ما يكتنفه أحيانا من مثالب ، ونبه الى ما يمكن أن يقوم من ثغرات ، مرتبطة بمصادره ، خاصة البشرية ، والمترجمة . لكن هذه المادة المقابلة الجاحظية ، كانت أيضا وفي كثير من الأحوال تكاد تمثل « محاولة » لتناول موضوع جديد على الكاتبين من أمثاله ، أو لم تعرفه غير القلة منهم لصعوبته ، أو قلة مصادره ، أو غرابته ، أو توقع عدم احتفاء الناس - خاصة عليه القوم من أمراء ووزراء وأثرياء وهم السذنين يهيمون هؤلاء بالدرجة الأولى - بينما كان « جمهور » الكتابة الجاحظية يتكون من هؤلاء وغيرهم وحتى من عامة القراء أيضا ، الذين أقبلوا على اللون انتاجه لانه طرق

موضوعات تهمهم ، وهى فى نفس الوقت كتابة تعكس تجربة « ميدانية أولية »
أو « تطبيقا مبدئيا » كما يقول أحد التعريفات السابقة .

— وأكثر المواد الجاحظية التى اقتربت من هذه المقدمات والطلائع
المقالية الصحفية كانت كذلك مما استند الى فكرة حصل عليها من وراء هذا
الحضور الذهني الأدبي والصحفى معا ، وكذا من خلال معاشقته للآحداث
وعلاقاته الاجتماعية واتصالاته وقراءاته .. كما جاءت كذلك تحمل طابعه فى
التفكير وأسلوبه فى التعبير ..

ونكتفى بهذا القدر من الإشارة الى بعض خصائص المادة المقالية
الجاحظية ، فى ضوء التعريفات السابقة ، وننتقل الى موضوع آخر هو :

(٣)

٠٠ وقد يسأل سائل : ما هى أبرز أنواع المقالات الحالية ، التى تقترب
المادة الجاحظية منها ، حتى ليصبح أن تعتبر من مقدماتها أو طلائعها ، وليس
من جذورها فقط ؟ ... دعونا نتقدم خطوة نحو المادة المقالية الصحفية ،
فى ضوء هذه الكتابات الجاحظية ، ليكون السؤال هو : هل اقتربت بعض
أنواع هذه الكتابات اقترابا شديدا من مقالات اليوم وإلى الحد الذى يجوز
معه أن نطلق عليها أمثال هذه التعبيرات الحديثة ؟ ، وما هى هذه الأنواع ؟

٠٠ ومرة أخرى نعود الى المعين الجاحظى نفسه ، وبطبيعة الحال ، فلن
يمكننا العودة إليه كله ، وإنما نتوقف عند بعضه فقط لنقول :

إننا - كبداية - نستعرض معا أبرز أنواع المقال الصحفى ، لتكون
الخطوة القادمة هى رؤية أيها أقرب الى كتابات الرجل ؟ أو أيها كانت كتابات
الرجل أقرب إليه ، حتى لتصبح من جذوره ، أو تتجاوزها الى المقدمات
والطلائع ، أو يتجاوز هذه بعضها ، الى أن يصبح مثل مقالات اليوم ، شكلا
ومضمونا ؟

إن أهم هذه الأنواع هى « من وجهة نظرنا ومما قمنا بحصره
وثبته » (٢٤) .

- ١٥٦ -

- المقال الصحفي العام :
- المقال الافتتاحي أو الافتتاحية .
- مقال التعليق أو التعليق الصحفي .
- المقال التفسيري .
- المقال القائد الموقع .
- مقال العمود أو مقال الفقرة القصيرة .
- مقال التجربة الخاصة « اليوميات الصحفية » .. الضوابط والتأملات .
- المقال التحليلي .
- المقال العرضي أو الاستعراضي .
- المقال المختصر .
- المقال المتخصص .
- مقال الفكاهة .
- المقال المهني « في غير الافتتاحيات » .
- مقال المناسبات .
- المقال الاعلاني .

وإذا كانت هذه هي أهم أنواع المقالات الصحفية وليست جميعها ، وإذا كانت بعض هذه الأنواع ، تمثل أصدق تمثيل وأفضله ما أطلقنا عليه تعبير « الأدب الصحفي » ، وإذا كانت حدود بعضها تمتد وتتشابك مع حدود البعض الآخر ، حتى يصعب الفصل بينها ، كما يتفرع بعضها - من جهة أخرى - إلى أنواع جديدة إذا كان ذلك كله مما يتصل بهذه النوعيات المختلفة ، فإننا نقول :

● أما عن هذه الأنواع نفسها ، وأين تقف منها ألوان الكتابة الجاحظية . أو المادة الجاحظية المقالية ، فإننا نقول بشأنها ، أننا ومن خلال النظرة الفاحصة والدقيقة ، وفي ضوء أبرز خصائص كل نوع من أنواع هذه المقالات الصحفية . وما يتصل به من ملامح وأبعاد .. وما يفرق بين كل نوع منها ، نلاحظ أن بالامكان القول . بأن المادة الجاحظية لها وجودها ، ولها كيانتها ، ولها موقعها ضمن ما ورد بهذه القائمة السابقة لكن - من زاوية أخرى - فإن هذا الوجود نفسه ، وهذا الكيان ذاته ، وهذا الموقع الذي احتلته . لم يكن وفي جميع الأحوال وبالنسبة لجميع ألوان الكتابة الجاحظية على درجة واحدة . أو يحتل نفس المساحة ، أو يقترب اقتراباً نمطياً ، وفي جميع الأحوال من هذه الأنواع من المقالات الصحفية ..

هو وجود نعم ، اقتراب أيضا . لكنه اقتراب يختلف من مقال لآخر ؛
او من نوعية لآخرى ، شدة أو ضعفا ٠٠ ومن هنا يقول ، أن هناك أربع درجات
من الصلة القائمة بين أنواع هذه المقالات الصحفية من جانب ، وبين اللون
الكتابة الجاحظية من جانب آخر ، وهذه الدرجات هي :

● مقالات تفصل بينها وبين النتائج الجاحظية مسافة بعيدة ، وذلك
بوضعها الحالي ، وصورتها التي تعرفها عليها صحافة اليوم ، على الرغم
من وجودها في الدائرة الجاحظية .

● مقالات اقتربت منها الكتابة الجاحظية اقترابا معقولا وطيبا .
● مقالات وقفت الكتابات الجاحظية في نفس مواقعها واحتلت نفس
مساحاتها بحيث تعتبر هذه الأخيرة بمثابة مقدماتها أو طلائعها الكاملة ، أو
بدايتها الحقيقية ٠٠

● مقالات شكلت وضعا آخر ، حيث اختلفت صلتها بالكتابة
الجاحظية ، من مقال لآخر من بين نوعيتها الواحدة ٠٠

(٤)

لانتترك هذه الانواع ، ولا تلك الصلات ، دون وقفة أخرى تزيد الأمر
وضوحا وتحاول أن تضيف جديدا مفسرا الى الكلمات السابقة ، ومن هنا ،
وبدون أن تطغى نوعية على نوعية أخرى ، وبإعطاء كل ما تستحقه من اهتمام
ومساحة أيضا ، من هنا نتوقف لنقول :

● ● أما عن النوع الأول من أنواع هذه المقالات ، وهي التي تفصل
بين المادة الجاحظية وبينها مسافة بعيدة ، على الرغم من وجودها ، ر - على
الأصح - وجود ما يشبهها في الكتابات الجاحظية ٠٠ فقد كانت هي
وباختصار شديد يتلاءم مع هذه الصلة نفسها .

(أ) المقال المختصر :

ويعنى ما يقدمه محرر من المحررين أو كاتب من الكاتبين من تقديم لمادة
كاتب آخر بحيث يغلب عليها طابع الاختصار لأهم ما جاء بالمادة الأولى ،

وهى فى أغلب الأحوال ، كتاب جديد لكاتب عربى ، أو كتاب مترجم لأجنبى ، بحيث يقوم المحرر بتقديم أهم أفكاره ، وعرض أهم القضايا التى تناولها ، بينما يقتصر دوره عند هذا الحد ، ولا يتعداه الى نقد هذا الكتاب نفسه ، أو الحكم له أو عليه ، وواضح أن الهدف منه هو هدف تعريفى ثقافى بالدرجة الأولى . يرتبط ارتباطا شديدا بأحدى صور النشاط الصحفى الحديث ، فى مجال الأدب أو السياسة أو الاقتصاد أو الفن ، خاصة المجال السياسى ، لاسيما تلك الكتب التى تؤلف عن أحداث الساعة أو قصص حياة الزعماء ، أو مذكراتهم ، وما الى ذلك كله ، وفى الغالب يؤلفها أقرب الناس اليهم ، أو بعض من التقى به من الصحفيين أو هم أنفسهم . ومن هنا فأننا لم نجد - الا قليلا - أمثال هذه المقالات المختصرة ، فى ألوان الكتابة الجاحظية . وان وجد ما يشبهها فى بعض رسائله السياسية ، أو التى تناولت الشعوب والأقوام المختلفة . وواضح أيضا ، أن ذلك يختلف عن مجرد تقديمه لبعض أفكار الآخرين ، أو ما قاموا بطرحه أو تناوله من قضايا خلال كتبهم أو رسائلهم . مما كان يأتى عرضها ، فى ثنايا أو تضاعيف كتاباته المختلفة ، لأن الفرق كبير بين هذه الصور ، وبين المقالات المختصرة ، التى تفرد لحالها ، ويكون الاختصار هو الأصل والأساس فيها ، كما ترتبط هى بخصائص هذا المقال الفنية ، شكلا ومضمونا ، وجميعها كانت تفصل بينها وبين كتابات صاحبنا مثل هذه المسافة البعيدة .

(ب) مقال المناسبات :

وهو أيضا ، بالشكل الذى تعرفه به صحف ومجلات اليوم ، لم تعرفه الكتابات الجاحظية ، الا قليلا جدا . وحتى فى هذا القليل ، فانه كان يقف على هامش مناسبة سياسية ، أو تتصل بالفرق الاسلامية عامة ، والمعتزلة خاصة ، بينما تتعدد صور هذا النوع من أنواع المقالات وتتسع حتى لتغطى جميع المناسبات الموجودة فى العالم كله ، ولعل ذلك يعود الى سببين أساسيين ، أحدهما : سبب ظرفى ، زمانى ، حدث لم يعرف عصر الرجل ، مثل ذلك العدد الكبير من المناسبات التى نعرفها الآن ، والتى شاعت أيام الدويلات الاسلامية . ثم أضاف لها « العصر الفاطمى » كثيرا ، فضلا عن المناسبات « العصرية » القائمة اليوم ، أو « المواسم » التى تناولها كتابات الكاتيبين

مثل : « للربيع - الصيف - دخول المدارس - الأوكازيونات - الأعياد القومية - الأعياد الدينية - ٠٠ الخ ، وأما ثانيهما : فهو أن الصحافة مضطرة على سبيل التغطية الكاملة لمثلثات هذه المناسبات ، أن تتناولها بمختلف الأطر والأساليب التحريرية ٠٠ ومنها المقال ولم يكن الحال كذلك على عهد الرجل ، ولا كانت هذه اهتمامات أوعيتهم الصحفية التي انتشرت في عهدهم ٠٠ باستثناء الأعياد الدينية فقط التي كانت لها أطرها الروتينية المحدودة .

(د) المقال الاعلاني :

٠٠ وبالمثل كان عهد الرجل ، وعهد هذه الأوعية الكتابية التسجيلية أو الصحفية « جوازا » المعروفة في عصره ، وكان موقفه وموقفهم من هذا النوع من أنواع المقالات التي تكتب بهدف الاعلان عن نشاط أو مؤسسة أو جهاز أو سلعة معينة ، أو من أجل تسويق انتاج كل منها ، حيث لم تشارك هذه الأنشطة بالشكل الذي كان معروفا على عهدهم أو عرفه العصر العباسي وقت حياة الجاحظ ، ومن ثم فإن هذا النوع يخرج عن مجال النشاط الكتابي الجاحظي .

وواضح كذلك ، بالاضافة الى هذا السبب الزمني ، أن انتشار هذه الأطر الفنية التحريرية الاعلانية ، سببه الرغبة في الافادة من امكانيات وأساليب هذه الفنون والأطر في اجتذاب القارئ ، ورفع درجة قابليته للقراءة ، وازدياد بعض ملامح الفكر المقال على المادة الاعلانية ، كمحاولة لزيادة الاقبال عليها ، فتحدثت المادة أثرها ، في جمهور القراء والمستهلكين عن طريق اصطناع مثل هذه الأساليب .

● ● أما عن النوع الثاني من أنواع هذه المقالات ٠٠ المقالات التي اقتربت منها الكتابة الجاحظية اقترابا معقولا وطيبا ٠٠ فقد كان من أبرزها ، هذه كلها .

(أ) المقال الصحفي العام :

على الرغم من أن كتابات الجاحظ في مجموعها ، كانت تأتي ضمن

إطار كتاب أو جزء من كتاب أو رسالة أو ما شابه ذلك - وإن هذه كانت لها وحدتها الموضوعية كما يبدو لأول وهلة ، وكما هو المفروض أن يكون - استناداً إلى عنوان الكتاب ، أو عنوانات مصاحفه أو فصوله ، على الرغم من ذلك كله ، إلا أن المتتبع لآثار الجاحظ الكتابية في كثير من الأحوال يجد أنها كانت ترتبط بمثيلات هذه الخصائص :

— التنوع داخل إطار أو حدود المادة الواحدة . والخروج من موضوع إلى موضوع أو وكما يقول التعبير الصحفي الحديث من فكرة إلى فكرة .

— جعل الصور العديدة . القريبة والبعيدة ، المباشرة وغير المباشرة هي المجال الاطارى للمادة الجاحظية . والدائرة التي تدور فيها الكتابات ، على الرغم من ارتباطها الظاهر ، أو على الورق فقط ، بموضوع أساسي .

— التوالد الكبير للفكرة الواحدة ، وتفرعها إلى أكثر من فكرة جزئية . قد تؤدي بدورها إلى أفكار عديدة أخرى قد تجد لها مجالاً داخل المجال الاطارى للمادة الجاحظية الواحدة .

— اختراق ذلك كله ، بالتعبير المبدع عن الذات أحياناً .
— تقديم « استعراض » لثقافة الجاحظ وقراءاته من هنا وهناك .

— تقديم بعض الصور القلمية المرسومة جيداً ضمن إطار المادة نفسها لبعض الشخصيات التي يعرفها أو يتحدث عنها موضوعه أو يذكره بها

— المرور ببعض « المحطات » السياسية ، أو المذهبية . أو تلك التي تتصل بعدد من المشكلات القائمة والمحتملة .

— إعطاء الأمثلة والشواهد العديدة من تلك التي تسعفها بها قراءاته العديدة والمتنوعة ..

وليس شرطاً - بعد ذلك كله - أن تأتي هذه الموضوعات ضمن إطار مادة واحدة في جميع الأحوال . بل الحق يقال أن كثرة منها كانت تجيء ضمن

- ١٦١ -

اطار موضوعات جاحظية عديدة ، لتذكرنا بأن كتاباته كانت صورة عصره ، وأن العالم الذي عاشه الجاحظ ، كان هو ميدان قلمه الذي عبر عنه أصدق تعبير ، وانتقل خلال مدنه وقصوره ومساجده وحوانيته ودهاليزه وحضره ويدوه وصوره الوردية والبيضاء والرمادية ، بل والسوداء أيضا ٠٠

ولعل ذلك كله ، يتحدث ليقول لنا ، أن هذا النمط الكتابي الجاحظي - ويصرف النظر عن المسميات والأطر التحريرية الجديدة ومتطلبات الصحافة الحديثة - هذا النمط الكتابي الجاحظي ، قد اقترب كثيرا من ذلك الذي أطلقنا عليه تعبير « المقال الصحفي العام » ، الذي يعد الآن من أبرز أنواع المقالات الصحفية ، وأكثرها نشرًا وانتشارًا وسيطرة على الصفحات ، يكتبه محررون وكتاب وأدباء وعلماء ، لكنه لا يتوقف عند اهتمامات أحدهم فقط ، وإنما يضرب في ميادين عديدة ، ويخرج من موضوع إلى آخر ، وهكذا ، حتى في اختلاطه أحيانا بغيره من أنواع المقالات ، حتى في بعض جوانب الجاذبية ، حتى في عمومية قارئه ٠٠ كل ذلك نجده يتمثل إلى حد غير قليل ، في أمثال هذا النمط الكتابي الجاحظي ٠٠

(ب) المقال العرضي أو الاستعراضى : « الاستطراوى » :

ولا نقصد به هنا « المقال العرضى » بفتح العين والراء ، والذي يطلق عليه أيضا المقال « النزالى » بمعناهما المعروف والمتمجه إلى امتشاق القلم ومنازلة الكاتب الخصم ، وإنما نقصد المقالات « العرضية » بتسكين الراء ، أى بمعنى الاستعراضية وهى مقالات صحفية شهيرة ، تعرفها الصحافة الأجنبية ، خاصة صحافة المجلة ، وفيها يقوم الكاتب بعمل « عرض » للقارئ أو « استعراض » يقدم خلاله عرضا كبيرا لفكرة أو لأكثر من فكرة ، يتبعها بموضوع يتناول مشكلة أدبية أو ثقافية أو اجتماعية ، ثم يخرج منها إلى عرض مسهب لقضية من القضايا التى تشعل باله أو بال أحد القراء أو الأصدقاء أو المعارف ، وقد يعرج على جانب من الجوانب الانسانية أو السياسية أو المذهبية أو تلك التى تتصل بالشعر أو النثر ، أو بشاعر أو بناثر أو بشخصية ما ٠٠ وهكذا وقد يركز ولكن فى اسهاب واستطراك على صورة واحدة من هذه الصور ، أو مشهد أو شخصية أو قضية أو فكرة واحدة ، بحيث تستغرق المجال كله بمادتها المسهبه وجوانب الاستطراك فيها ، تلك التى (الجاحظ)

- ١٦٢ -

يكاد الرجل « يقتلها بحثا » لكن الرباط الوحيد الذى يربط بينها جميعا ، الموضوعات المختلفة أو الموضوع الواحد والذى تشد إليه أيضا ، ويحرص الكاتب عليه هو رباط العرض ، فهو يعرض لهذه كلها ويتوقف عند حد العرض ، دون أن يتعداه الى مجال آخر ، لكن من الطبيعى أن يتداخل العرض أحيانا مع غيره من « القوالب الفنية » ٠٠ أو يتشابه مع بعضها لاسيما « الوصف » فهما - تقريبا - وجهان لعملة واحدة ، لكن مع بقاء الطابع العرضي الغالب والمسيطر ٠٠

ومن الذى يستطيع أن يقول . أو يزعم ، أن كتابات الرجل قد خلت من هذه التى تقف بالقرب من هذا النمط المقاتلى ؟ وبالقرب الشديد أيضا ؟ أو من ذا الذى يمكنه أن ينكر وجود هذه الخصائص فى العديد من صور كتاباته ، تلك التى زخرت بها مؤلفاته العديدة ؟ ٠٠ بل لماذا لا نقول أن أكثر مادة الرجل الكتابية هى من هذا النوع الاستعراضى الاستطردى وإن نحن قمنا بـ « فك » عدد من اجزائها لوجدناها بهذه المقالات شديدة النسب !!

(د) المقال التحليلي :

والمتابع لكتابات الرجل ، خاصة فى رسائله المتنوعة ، وكتبه الأقل حجما من موسوعاته من مثيلات « الحيوان - البيان والتبيين - البلاء » وما شابهها ٠٠ المتابع لهذه النوعية من النتاج الجاحظى من لدن :

« الصرحاء والهجناء - مفاخرة السودان والحرمان - حق الخثولة والعمومية - أقسام فضول الصناعات - القحطانية - العدنانية - العرب والموالى - الزيدية - الرافضة - خلق القرآن - الوعد والوعيد - الحجة فى تثبيت النبوة - العثمانية - العباسية - فخر السودان على البيضان ٠٠٠ » وغيرها :

❶ يجد أن بعضها الأول ، وكما أشرنا الى ذلك من قبل يمت الى « الدراسة الصحفية » أو « البحث الصحفى » بصلته نسب قوية .

❷ ويحدث أن بعضها الثانى يمت الى « مقالات التخصص العام » يمثل هذه الصلة .

- ١٦٢ -

● ويجد - فى النهاية - أن بعضها الثالث ، لا يقل صلة عن سابقه،
ولكن بماذا ؟ بالمقال التحليلى نفسه . أو المقالات التحليلية ذاتها .

وإذا كان النوع الأخير من المقالات هو ما يهمنى بالدرجة الأولى خلال
هذه الفقرة ، فأننا نضيف الى ذلك قولنا ٠٠

ان من أبرز خصائص هذه النوعية من المقالات ما يلى :
— حاجة هذا الموضوع التى يستشعرها الكاتب هنا الى الإيضاح
والتفسير من جانبه ، لصالح هذا الرأى العام أيضا .

— أن الموضوع تكون له جذوره وامتداداته وأصوله كما تكون له
تشعباته العديدة التى يصعب على القراء فهمها دون قيام أحد المتفرسين
والفاهمين بشرحها والقاء أكثر من ضوء عليها ، فى صيغة العارف بها
وبتطوراتها وحقائقها ودقائقها أيضا .

— ان الموضوع يحتاج من كاتبه الى أكثر من إضافة أخرى بعضها
يقدم فيه مادة مقارنة بما حدث أو وقع فى مكان أو زمن آخر ، أو ما تناوله
كاتب أو مؤلف آخر ، بما فى ذلك من رؤية للواقع المكانى ،

— وانه يحتاج الى هذه المقدرة التحليلية من كاتب خبير يلم بأفكاره
كلها ويخرج منها بعدة شواهد وأمثلة تتصارع فيما بينها وتتشابك ، وتتوالد،
ثم تقدم صورا ومفاهيم وتوقعات جديدة ، فى صورة نتائج هامة ، أدت اليها
المقدمات التحليلية السابقة فى مجموعها ٠٠

— دون ان يتجاهل خلال ذلك كله ، تقديم رأيه فى ذلك الذى يتوصل
اليه ، وان يكون الخط التحليلى هو الهام والمسيطر من اول المقال حتى آخره .

هذه - باختصار - بعض معالم تلك النوعية من المقالات الصحفية
الحديثة ولعله مما يذكرنا بهذه الصلة بين بعض الكتابات الجاحظية وأمثال
هذه المقال ما تقوله أستاذة فى الفن الصحفى عن معرفة الصحافة العربية
بها « على يد الكاتب السورى فرح أنطون فى مجلة الجامعة . ومن
أمثلة ما كتبه تحت عنوان : مستقبل العامل والفلاح فى مصر ٠٠ حيث بدأ
بشرح سبب اختياره لهذا الموضوع فقال : لا تنصرف المجلات للسياسة البحتة،

- ١٦٤ -

ففى مباحث الجرائد الكبرى غنى عن مباحث المجلات فى هذا الشأن، (٢٥) ٠٠
انه يوضح الصلة بين الدراسات والبحوث الصحفية من جانب ، وبين هذه
المقالات التحليلية من جانب آخر ، وبدورنا نقول ، والصلة بالكتابات الجاحظية
من هذه النوعية أيضا ٠٠

وتضيف الباحثة نفسها عن محرر هذا النوع من المقالات ومما لا يتعد
كثيرا عن الجأحظ واستعداده لكتابتها وأغلبها - ولا أقول كلها - سياسى
الطابع :

• ما كل محرر صحفى يستطيع أن يقوم بهذا النوع من المقالات الصحفية
- لديه الكثير من المصادر الهامة فى مجال العمل الصحفى بداخل البلاد
وخارجها - المقدرة للادراك الكامل للبعد الحقيقى للاحداث وصانعها وأن
يدارم على القراءة والاطلاع لمعايشة أصول القضايا الهامة فى كافة المجالات،
خاصة مجال السياسة ومجال الاقتصاد - أن يكون ملما بأسس البحث العلمى
وأصول استخراج الحقائق من بطون مراجعها الأكاديمية ودورياتها
المتخصصة - بمعنى أن يكون فى المقال دسامة الابحاث العلمية - الخ، (٢٦) ٠

الا يأخذ الرجل - كما رأينا - من هذه الجوانب بنصيب كبير ؟
باستثناء هذه المسميات الحديثة ، التى لم يكن عهده أو عصره يعرفانها ؟ ٠٠
لكن ، اذا كانت الشواهد الجاحظية نفسها هى خير الأدلة على صحة هذا
الاقتراب الجاحظى من المقالات التحليلية ، فلا يسعنا الا أن نحيل القارئ ،
على مثيلات هذه الرسائل السابقة خاصة ذات الطابع السياسى والاجتماعى .
والآن نقدم جزءا من واحدة من هذه المقالات .

● ● جزء من مقال عرضى - استعراضى - فى بعض المسائل اللغوية،
ومحاولات أصحاب اللغات اخفاء عيوبهم واصطناع كلمات أخرى ، لا تظهر
هذه اللغة : « الجاحظ - البيان والتبيين - ١ » ٠٠ مختارات .

• ولما علم واصل بن عطاء أنه الثغ فاحش اللغ . وأن مخرج ذلك
منه شنيع وأنه اذا كان داعية مقالة ، ورئيس نحلة . وأنه يريد الاحتجاج على
أرباب النحل وزعماء الملل وأنه لابد له من مقارعة الأبطال . ومن الخطب
الطوال . وأن البيان يحتاج الى تمييز وسياسة . والى ترتيب وريضة . والى

تمام الآلة ، واحكام الصنعة ٠٠٠٠ - وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، لنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسايد ، مع لباس التقوى وطابع النبوة ، ومع المحنة والاتساع فى المعرفة ، ومع هدى النبيين وسمت المرسلين ، وما يخشيه الله به من القبول والمهابة ، ولذلك قال بعض شعراء النبى صلى الله عليه وسلم :

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة كانت بدايته تنبيك بالخبر

ومن أجل الحاجة الى حسن البيان ، واعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ، رام أبو حذيفة اسقاط الراء من كلامه ، واخراجها من حروف منطقة ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ، ويتأني لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل ٠٠٠٠ الخ . وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين ، فاذا حمل على نفسه ، وقوم لسانه أخرج الراء ، وقد ذكره فى ذلك أبو الطروق الضبى فقال :

عليم بابدال الحروف وقامع

لكل خطيب يغلب الحق باطله ٠٠

ثم يعود الى حديث واصل قائلا : « وكان اذا أراد أن يذكر البر قال : القمح أو الحنطة ، والحنطة لغة كوفية ، والقمح لغة شامية ، هذا وهو يعلم أن لغة من قال بر ، أفصح من لغة من قال قمح أو حنطة ٠٠ - وقال عمر بن الخطاب رحمه الله أترون أنى لا أعرف رقيق العيش ؟ لباب البر بصفار المعزى - وسمع الحسن رجلا يعيب الفالوذق ، فقال : لباب البر بلعاب النحل يخالض السمن ٠ ما عاب هذا مسلم - وقالت عائشة : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه البرة السمراء حتى فارق الدنيا - وأهل الأمصار انما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف فى الفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر ٠٠٠ الخ » (٢٧) .

● ● والآن يأتى دور حديثنا عن « النوعية الثالثة » من هذه المقالات ، وهى التى قلنا أن كتابات الجاحظ قد اقتربت منها بشدة ، والى أدنى حد ممكن . لتمثل بعض هذه الكتابات الجاحظية . الطلائع المتقدمة جدا لهذه

المسميات الحديثة . أو الأطر والأشكال المقالية التي تعرفها صحف اليوم ومجلاته ، على اختلاف أنواعها ، كما يكاد البعض الآخر من هذه الكتابات الجاحظية ، أن ينطبق على الحالى من نوعيته تمام الانطباق — كتعبير رجال المنطق — ولما كانت أكثر الشواهد تؤكد أن الرجل لم يسبقه الى هذه الكتابات كاتب آخر على عهده ، أو فى عهد قبل ذلك العهد ، بنفس القدر من الكم والكيف معا . أو بنفس الدرجة من الوضوح والاكتمال ، التى تبدو فى كتابات الجاحظ ٠٠ فانه لا يسعنا الا أن نشيد بهذه الاسبقية له أيضا .

على أن هذه النوعية الثالثة ، انما تتمثل فى :

(أ) المقال النقدي : « الصحفى »

ونعنى به هنا أولا ، وقبل غيره من الأنواع ، النقد الأدبى الصحفى أو نقد النصوص الأدبية ، أو القطع أو الأعمال الفنية الأدبية كما يظهر على صفحات الجرائد والمجلات وليس كما يقول « تاريخ الكلمة » ٠٠ وحيث كانت قبل هذه الاستخدامات . وما تزال أحيانا تستخدم « بمعنى الذم والاستهجان » (٢٨) ٠٠٠ بالاضافة الى معناها الأخير الشهير الذى وردت عليه فى المعاجم العربية أى بمعنى ، تمييز الصحيح من الفاسد والجيد من غيره من الأموال ٠٠ أو النقود ، بالمعنى « المصرى » ٠٠ قال الشاعر يصف راحلته :

تنفى يداها الحمى فى كل هاجرة

نفى الدراهم تنقاد الصياريف :

٠٠ « فالصيرفى عندما ينقد الدراهم يعزل الجيد عن الرديء ، والزائف عن غيره ولذا شبه الناقد بالصيرفى » (٢٩) .

٠٠ وهناك معان أخرى كثيرة ، واستخدامات عديدة لهذه الكلمة ، فحسبنا ذلك ، وحيث يقوم الكاتب الناقد بالنسبة للعمل الفنى الأدبى ، بمثل ما يقوم به الصيرفى بالنسبة للمجتمع لديه من الأموال والدراهم .

- ١٦٧ -

مقال النقد هنا بمعنى تلك الأفكار المكتوبة التي يتناول فيها الكاتب أو المحرر - الناقد هنا - عملاً فنياً أدبياً - أو غير أدبي - من خلال تسليط الأضواء على جوانبه وقياسه بمقاييسه ، واستخدام معاييرهِ الفنية المختلفة ، من أجل إبراز ما فيه من عناصر الإيجاب أو السلب ، والجمال أو القبح ، وتقدير ما لهذا العمل من قيمة استناداً إلى ثقافة الناقد ، ودراساته ومقدرته وحسه النقدي والتحليلي .

وإذا كان « جمهور المستمعين » للشاعر الجاهل يمثل طلائع النقد ، الذين كانت تحكمهم مقاييس خاصة ، تستند إلى المؤثرات البيئية ، وإذا كانت تلك المقاييس قد أخذت منحى إسلامياً بهدى من الدين الحنيف ، فأختلفت منزلة الشعراء والخطباء ، استناداً إلى المعيار الديني الإسلامي ، ومدى ارتباط العمل الأدبي بالدعوة الإسلامية فقد أضيفت إلى هذه كلها مقاييس ومعايير ومقومات جديدة ، ارتبطت بالفرق والأحزاب المتعددة ، وكذا بالمد الإسلامي عبر المسافات والدول ، فامتدت الدائرة النقدية وتعددت الاتجاهات والمذاهب ، لكنها لم تبلغ ذلك التعدد الذي شهدته خلال العصر العباسي ، انعكاساً للحياة الجديدة نفسها ، ومادخلها من عناصر وأقوام وثقافات وتقاليد ومظاهر وصور ، وما صاحب ذلك كله من تطوير للفنون الأدبية القائمة . بتأثير ذلك ومن نشأة فنون جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ثم تعدد الأفكار والموضوعات والأغراض والقضايا التي تناولها الكتاب والشعراء وإذا كانوا يقولون ، أن تطور الأدب يتبعه تطور النقد ، ذلك الآخر الذي يقوم على الأول ، فقد كان هذا هو ما حدث ، بينما وجدنا طوائف عديدة من « النقاد » كان من أهمهم ، ومما يقترب من النقد العلمي أولاً ، أو النقد الأدبي فقط ، وليس الأدبي الصحفي :

● النقد من « اللغويين » الذين اهتموا بالجانب اللغوي في العمل الأدبي وما يتصل به .

● النقد من « الكلاميين » أو « المتكلمين » الذين يجمعون بين الجانب السابق . وجانب الاحتكام إلى العقل وأعمال المنطق والحجة ، وفتح باب المناقشة الجدلية .

● وإلى جانب هؤلاء فقد كان هنا بعض النقاد من « الرسميين »

- ١٦٨ -

إذا صح التعبير ٠٠ ويمثلهم هنا بعض الخلفاء والأمراء والأثرياء وكبار التجار من أصحاب « المجالس الأدبية » ٠٠ الى جانب موظفى الدواوين الرسمية ، ممن كانت لهم صلة بالنتاج الأدبى والعلمى فى عصرهم ، من أمثال دواوين « الرسائل » و « الإنشاء » و « صاحب الخير » ٠٠ و « الترجمة » ٠٠

● ثم أخيرا هذه الطائفة من « الفواقه » الذين أظهروا عناية شديدة بارتياح هذه المجالس والمكتبات ودكاكين الوراقين يسعون وراء هذا النتاج ويرصدونه ، ويتناقلونه بروح الهاوى وعين الخبير ، وفكر الناقد فى أحيان كثيرة .

وهكذا وجد الأدباء من يتناول نتاجهم بالنقد ، ووجد من يطالب بأجادة الكتابة وبإعطائها - لغة وأسلوبا - حقها من جميع الوجوه خاصة من حيث اللفظ والمعنى ، ووجد من يشارك فى تقويم الخطباء ، ومن يعقد المجالس أو يؤلف الكتب لنقد الشعراء ، أو للموازنة بين شاعر وآخر الى غير ذلك كله .

والحق ، أن من يقرأ التراث الجاحظى . ليتوقف كثيرا عند أكثر من جانب من جوانبه ، لاسيما فى كتابه الأشهر « البيان والقبين » ، وفى عدد آخر من رسائله وكتبه ٠٠ حيث يجد أنها بدورها تمثل سلاسل منتظمة ، أو غير منتظمة من مقالات نقدية تناولت كافة هذا النتاج الأدبى الموجود فى عصره والتي تميزت - ومما يقربها هنا من مقالات النقد الصحفى ، وبشدة - بهذه الأمور :

— أنها جمعت بين المعايير العديدة التى كان يطبقها النقاد من الطوائف الأربع السابقة .

— أنها عكست ثقافة لعوية وأدبية عامة وليست متخصصة فقط ، كتخصص الناقد اللغوى مثلا .

— أنها عكست حسا صحفيا كبيرا ، فى اختيار مادة النقد ، وموضوعات هذه التناولات من المعين الأدبى ، قديمه ومعاصره ، وحيث كانت فى معظمها من الموضوعات النقدية الساخنة ، والتى تحد قبولها جماهيريا ، والتى لها قدمة مع غيره من النقد أو تلك الجذابة المسوقة .

- ١٦٩ -

— أنه لم يضح هذه المادة في أشبكها الكلاسيكية التي كان يضعها فيها غيره وإنما غلب عليها الطابع الجاحظ في الاسترسال وحسن العرض، والانتقال من الفكرة إلى الفكرة ومن الموضوع إلى الموضوع ، والتجديد في المادة من أن آخر بما يجذب القارئ ويمسك به حتى النهاية .

— أن « مقالاته » النقدية كانت تشهد كثيرا من التنوع في الموضوعات والطرق والأساليب النقدية ، بما لم يحدث عند « الناقد » المتخصص تماما ، أو عالم النقد ، إذا صح التعبير ، وبما يؤكد جانب نقده الصحفي .

— أن أغلب مقالاته النقدية كانت تتجه الاتجاه التطبيقي العام ، الذي يعنى بالحكم على المادة نفسها وما لها وما عليها ، على نحو ما يفعل نقاد الصحف الآن عند ظهور الإصدارات الجديدة .

— أنه لم يكن يهتم كثيرا بالجزئيات الصغيرة ، فلا يحكم لكاتب أو عليه من خلال فقرة أو عبارة ، أو عدة سطور ، ولا يحكم لشاعر من خلال بيت واحد أو قصيدة واحدة . على نحو ما كان يفعل النقاد في عصره ، وإنما كان ينظر إلى العمل كله ، أو إلى الأعمال في مجموعها ، ويصحح أن نقده للعبارات والفقرات والأبيات والقصائد وارد ، لكنه لم يكن الأساس ، وكان يعرض له على طريقة « الشيء بالشيء يذكر » .

— أنه في كتابه « البيان والتبيين » أيضا ، كان أول من استخدم تعبير « البلاغة » بمعناها الدقيق، كما يقول بذلك أستاذنا « شوقي ضيف » . وقد انعكست نظريته هذه على ما تناوله ، حتى يمكننا القول ، أنه ساهم في وضع معالم « المقال النقدي » الأدبي والصحفي معا ، . ولعله قد عبر عن ذلك ، في صياغة من الأدب الصحفي عندما قال في الكتاب السابق نفسه .

« قيل للفارسي ما البلاغة » قال : معرفة الفصل من الوصل ، وقيل للميوناني ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومي ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البدايات والغزارة يوم الإطالة ، وقيل

للهندى ما البلاغة؟ قال وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها الى الكناية عنها ، اذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الاضراب عنها صفحا أبلغ فى الدرك وأحق بالنظرة ، (٣٠) .

.. ونقدم هنا أجزاء أخرى من هذه المقالات النقدية « الصحفية » مما جمعناه من كتبه ورسائله :

فهو يقول مثلاً فى نقد لغة الأعراب : « ان الاعراب يفسد نواذر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع الكلام انما أعجبه تلك الصورة وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة ، فاندخلت على هذا الأمر - الذى انما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التى فيه - حروف الاعراب والتحقيق والتنقيل ، وحولته الى صور الفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » (٣١) .

ويقول كذلك بشأن الترجمة والمترجمين : « .. فمتى كان رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ، وابن ناعم ، وأبو قره - ابن قره - وابن قهر وابن الباهلى ، وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ؟ ومتى كان خالد مثل أفلاطون ؟ ولا بد للمترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى نفس وزن علمه فى نفس المعرفة ، ويتبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية ، ومتى وجدناه أيضاً تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها وتعرض عليها ، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة ، وانما له قوة واحدة ، فان تكلم بلغة واحدة ، استفرغت تلك القوة عليها وكذلك اذا تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ٠٠٠ الخ » من كتاب الحيوان ج ١ ص ٢٨ .

(ب) مقال التخصص العام « مقال مجالات التخصص العام » :

.. وذلك هو النوع الثانى ، من هذه الكتابات الجاحظية ، التى تمثل .

- ١٧١ -

أقرب كتاباته الى بعض أنواع المقالات الصحفية الحديثة ، تلك التي تكون من نفس النمط ، ومن نفس المعين ، وتأخذ نفس الطابع أيضا .

ويعود الأصل في اطلاق تعبير « التخصص العام » عليها . وكذا تعبير « مقالات مجلات التخصص العام » ، لعدة أسباب في مقدمتها .

— أنها متخصصة من حيث المعلومة ، أو المفروض أن تكون كذلك ولكنها ليست متخصصة من حيث القارئ .

— انها لا ترتفع بمستواها الى درجة التخصص العلمي الدقيق الذي نشهده في الكتب العلمية ، الجامعية مثلا ، أو في مجلات هذا التخصص الدقيق .

— أن أفضل مكان لنشرها هو « مجلات التخصص العام » أي تلك التي تقدم بعض جوانب التخصص مما يستطيع متابعته القارئ العام المثقف أو نصف أو ربع المثقف أيضا ، ثم المجلات العامة ، والصحف الأسبوعية ، خاصة على صفحاتها وأركانها الخاصة .

— أن كاتبها يوازن بين أشياء عديدة ، من بينها تقديم المعلومات العلمية غير المتعمقة تماما ، والتي لا تهم المتخصصين وحدهم ، وحتى هذه فانه يجيد اختيارها من بين أكدهاس ما يتجمع عنه ، ويقدمها في قالب مشوق ، وفي لغة واضحة ، وأسلوب جذاب .

— وهو يدعمها بالقصص والتشبيهات ، ويوالى الربط بينها وبين جوانب تهم الناس في عهده ، أو تهم قراء مجلته .

أي أنه يكون أقرب الى ذلك النمط الأسلوبى المقالى المسمى « العلمى المقارب » فهو علمى نعم ، لكنه يوضع في قالب أدبى ، ويعبر عنه بأسلوب أدبى . لكنه — مقال التخصص العام — ليس أدبيا تماما من حيث توجهاته الصحفية ، ولخته الأدبية الصحفية معا ، ومن حيث اهتماماته كذلك .

وإذا كانت هذه المقدمات كلها مما يتصل بعدد من خصائص هذه النوعية

- ١٧٢ -

من المقالات من جانب ، فانبها - من جانب آخر - مما يعتبر علما على هذه النوعية من المقالات الجاحظية ، التي عرفها الرجل ، وأجاد كتابتها وزخرت بها كتبه العديدة لاسيما كتابه الأشهر « الحيوان » . ولكنه ليس وحده وانما كانت هناك بعض الكتب الأخرى الماثلة ، أو في تعبير آخر - ومرد ذلك الى عبقرية الرجل نفسها - أن مقالات التخصص العام التي كتبها لم يكن مجالها علم الحيوان فقط ، وانما ضربت في أكثر من تخصص من بينها التاريخ والجغرافية والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق ، وحتى الطبيعيات والرياضيات أيضا . وما أكثر مادة هذه الكتب والرسائل الا مجموعات من مقالات من هذا النوع الأخير أكثر منها مقالات علمية كاملة .

— « كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية » تاريخ .
— « كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال - الاعتزال وفضله » في الفلسفة والاعتزال .

— « كتاب خلق القرآن - كتاب آي القرآن - كتاب الرد على اليهود في الدين الاسلامي » .

— « كتاب مراتب التجارات - كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعقاب » في الزراعة والاقتصاد .

— « رسالة في الكيمياء - كتاب « المعادن » في الكيمياء الى آخر هذه القائمة ، وغيرها من الكتب ، فضلا عن كون أكثرها ذات موضوعات متنوعة شتى . لكننا نقصد هنا - بالدرجة الأولى - تلك التي زخرت بهذه النوعية من المقالات . التي يطلق الآن على بعضها أحيانا « المقالات الموضوعية »

يؤكد ذلك كله ، وكما أشرنا الى بعضه من قبل :

● أن الرجل لم يكن عالما كاملا ، في علم بعينه من هذه العلوم التي تناولتها كتاباته ، على أي شكل من أشكالها ،

● أنه كان يعرف من هم قراء مادته ، انهم ليسوا طلاب العلم وحدهم ، وانما العامة والخاصة معا .

● ويمكن أن نضيف الي ذلك كله :

— حسن انتقاء الرجل لمادته التي تهم الجميع من بين عشرات المواد العلمية المطروحة أمامه .

— المزج في أحيان كثيرة بين هذه المادة وبعض المواد الأخرى بغية التخفيف من حداثتها والترويح عن القارئ واعطائه فرصة التقاط أنفاسه . . . حتى الملح والطرائف استخدمها أيضا ، وكان ذلك معنى قول من تناولوه ، وتكرار ذلك ، انه كان « يمزج الجد بالهزل » . . . حتى في كتاباته السياسية ، والعلمية ، كان يفعل ذلك .

— الأسلوب السهل الواضح الذي كان علما على هذه الكتابات . . . وهكذا على النحو الذي اصطنعه بعده بقرون طويلة عدد من الكتاب أو « المحررين العلميين » وكذا « الموسوعيين » . . . فنذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر ، وبعضهم من كبار العلماء : « يعقوب صروف - فارس نمر - د . أحمد زكي - د . عبد الحليم منتصر - د . عبد المحسن صالحي - د . أحمد أحمد بدوى - د . درويش القار - . . . الخ ، وغيرهم . . .

وحتى تقترب المسافة بين هذه الكتابات التي قلنا انها تتشابه كثيرا ومقالات مجلات « التخصص العام » ، وقبل أن نقدم طرعا منها على سبيل المثال ، نقرأ سطورا عن هذه النوعية من المجلات من كتاب آخر لنا - في عالم المجلة - تلك التي كان يمكن أن تتوزع عليها مثل هذه المادة الجاحظية ، أو كان يمكن - لو أن الرجل يعيش الآن بيننا - أن يصبح من أبرز محرري عدد كبير منها ، ولا أقول مجلة واحدة فقط ، كما هو الحال بالنسبة لمحرريها الآن . . . ان هذه المجلات هي :

« النوعية الثانية من عالم المجلات والتي أطلق عليها البعض - المجلات المتخصصة - لكننا نرى أن هذا التعبير تنقشه الدقة والواقعية ، وبالنظر الى مادتها المنشورة على الصفحات نفسها ، ومن أجل ذلك كان توقفنا عند مفهوم التخصص حيث نرى ان هذه المجلات : لا ترتفع بمستوى مادتها الى درجة أو درجات التخصص العلمي الدقيق والمنشود ، وحتى هذا المستوى نفسه من الاهتمام الخاص لا يكون على نفس الدرجة بالنسبة لجميع موادها - والطابع

الغالب على محررها أنه يكون من محرريّ المجلات عامة ، وفى الوقت نفسه من محرريّ المجلات من ذوى الاهتمام الخاص الذى لا يرقى فى معظم الأحوال الى مستوى التخصص أو التخصص الكامل - وهى أيضا لا تتوجه الى قارئ بعينه دون الآخر - وإن تسلل اليهم عدد من المتخصصين فى مادة المجلة ، فإذا حاول أحدهم أن يضع نفسه موضع القارئ العالم المتخصص وربما الدقيق فإنه سوف يكتشف أن المسافة بعيدة تماما بين مادة هذه المجلة التى تهتم بهذا الجانب وبين معارفه ومجالات تخصصه ،

إن الجاحظ هو مثل كتاب هذه المجلات ، هو كاتب « مهتم » وليس عالما ولا مؤرخا ولا جغرافيا . . وهكذا تقول كتاباته . لا أقول المتخصصة ، ولكن من ذوات التخصص العام ، الذى تمثل هذه المقالات ، أهم أنواعه . .

وربما كان باستطاعة الرجل أن يكتب كتابة متخصصة دقيقة التخصص ونحن لا ن فكر عليه ذلك ، ولا امكانية قيامه بها ، أو استطاعتها . . لكن الرجل كان يعرف كيف يختار وماذا يقول ولأن يتوجه وخصائص قرائه . . وهذه أخرى تؤيد دعوانا على قيام جانبه الصحفى ، الى جانب شخصيته الأدبية . .

والا فلماذا لم يكتب المقال المتخصص الدقيق ، مادام يستطيعه ؟ لماذا لم يتجه الى علم واحد فقط ؟ لماذا لم يصبح عالما فقط ؟ أو فيلسوفا فقط ؟ أو جغرافيا دون غيره من الرجال ؟ أو مؤرخا دون الاقتراب من مجالات أخرى ؟ أو من علماء اللغة ؟ أو من رجال السياسة أو الاقتصاد أو الزراعة أو الكيمياء المعدودين ؟ وقد عرف كل ذلك ، وتناوله ، وكان باستطاعته التخصص فى أحد فروع

قد يقول قائل - ردا على ذلك - أنه أحد هؤلاء الموسوعيين المعروفين ، والذين يجمعون بين معارف عديدة وعلوم متنوعة ؟

وأقول أولا - ليس الى هذا الحد من الكثرة والتعدد .
وأقول ثانيا - وماذا عن حسن اختياره وتوجهاته واهتماماته ولغته ، وكلها تؤكد جانب صحافته . .

وأقول ثالثا - وحتى هؤلاء من الموسوعيين ، فإنهم لم يكونوا علماء فقط ،

— ١٧٥ —

ولكن على أكتافهم وبمساهماتهم العديدة ، قامت المجلات ، أو قامت «صحافة
المجلة » ٠٠ كما يحدثنا تاريخها ، وقبل أن تتداخل عوامل التطور والتشاكك
العديدة ، التي أثرت في مسيرة المجلة . شكلا ومضمونا :

على أن العودة الى الينابيع الجاحظية ، نغترف منها بعضا مما ينكرنا
بهذه النوعية هي عودة واجبة :

● ● جزء من كتاب « الحيوان » يقدم بعض مآثره التي تقرب كثيرا
من مقال « التخصص العام » أو « مقالات المجلات » ذات التخصص العام
أيضا « الجاحظ : الحيوان — كلمات مختارة » .

(الورل وعدم اتخاذه بيتا)

« ومن كلام العرب أن الورل إنما يمنعه من اتخاذ البيوت أن اتخاذهما
لا يكون إلا بالحفر ، والورل يبقى على براتنه ، ويعلم أنها سلاحه الذي به
يقوى على ما هو أشد بدنا منه ، وله ذنب يؤكل ويستطاب ، كثير الشحم » .

(قول الأعراب في مطايا الجن من الحيوان)

والأعراب لا يصيدون يربوعا ، ولا قنفذا ولا ورلا من أول الليل ، وكذلك
كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء .

ولا تكون الأرنب والضبع من مراكب الجن لأن الأرنب حيض ولا تغتسل
من الحيض ، والضباع تركب أيور القتلى والموتى إذا جيفت وانتفخوا
وأغظوا ثم لا تغتسل عندهم من الجنابة . ولا جنابة إلا ما كان للأنسان فيه
شر ، ولا تمتطى القرود لأن القرد زان ولا يغتسل من جنابة

فإن قتل أعرابي قنفذا أو ورلا من أول الليل ، أو بعض هذه المراكب لم
يأمن على فحل إبله ، ومتى اعتراه شيء حكم بأنه عقوبة من قبلهم ، قالوا :
ويسمعون الهاتف عند ذلك بالنعى ، وبضروب الوعيد .

(قول الأعراب في قتل الجان من الحيات)

وكذلك يقولون في الجان من الحيات ، وقتل الجان عندهم عظيم ، ولذلك

الجاحظ أول كاتب اسلامى عالٍ فن الكاريكاتور فى تاريخ النثر العربى ، وقد ترك لنا الجاحظ أعظم رسالة أدبية كتبت فى هذا الفن ، ولعلها أعظم رسالة الى اليوم ، فنحن لا نعلم لها نظيرا فيما كتبه أهل هذا الفن - سواء فى الأدب أو فى الصحافة - حتى اليوم ٠٠ وموضوع رسالة الجاحظ هو السخرية من كاتب من كتاب الديوان اسمه أحمد بن عبد الوهاب ٠٠ (٣٢) . ويضيف هذا الرائد قائلاً فى مقدمة تناوله لهذا النوع من المقالات : « ولا يتسع المقام لذكر شيء عن هذه الرسالة التى كتبها الجاحظ ، وان كنا نعتقد أن الكاتب العباسى الكبير - يعتبر بحق - واضعاً لاساس الكاريكاتور فى الأدب العربى » (٣٣) .

● والى مثل هذه الرسالة أيضا ، وصلت بها بهذا الفن ، اشار كاتبنا الكبير « توفيق الحكيم » أكثر من مرة ، فى كتبه ومقالاته ، وكان من بينها - مثلاً - هذه الكلمات : « ٠٠ ومن مفاخر تراثنا أن نرى الجاحظ يرسم بنثره ما يرسمه هذا الفن المعاصر الذى نسميه الكاريكاتير » (٣٤) .

٠٠ ويعد أن يقدم لنا سطوراً من هذه الرسالة - التريخ والتدوير أيضا - يضيف قائلاً : « ٠٠ وعلى هذا النحو يمضى الجاحظ يصور لنا ذلك الرجل تصويراً لا يريد به هجاءه بقدر ما يريد اضحاكنا منه ، وهذا هو روح فن الكاريكاتير » (٣٥) .

● ٠٠ وفى كتاب سابق لنا - المقال الصحفى - أشرنا الى هذه النقطة ، وكان من بين ما قلناه عن كاتب المقال الفكاهى والكاريكاتورى : « ٠٠ وحيث يكون لمكاتبه أن يفعل كما الرسام الكاريكاتيرى ٠٠ أى لا يكتفى بإظهار العيوب ووضع يد القراء عليها ، وانما يقوم بتوضيحها وإبرازها وتجسيما والمبالغة فيها والتهويل من شأنها أيضا ، وذلك على النحو الذى وضعه رائد هذا الفن الأدبى الصحفى - معا - الأديب الصحفى الجاحظ ٠٠ وعلى نحو ما فعله من كتاب الجيل السابق : عبد العزيز البشرى - فكرى أباطة - أحمد حافظ عوض » (٣٦) الخ .

● وفى كتاب آخر لنا أشرنا الى هذا اللون من الكتابية الجاحظية بقولنا :

« البساطة والسهولة والظرف وخفة الروح والظلال ، جميعها من لزمومات (الجاحظ)

أكثر المجالات العامة ، ومن خصائص أساليب كتاباتها ، ومن صور طبائعها البارزة ، أو التي ينبغي أن تبرز على صفحاتها وبين سطورها - أى أن الكاريكاتير هنا ليس رسماً بقلم الفنان أو ريشته واللوانه ، وإنما هو مقال تعبيرى ساخر متهم ، وما أحرأه بذلك أن يكون مادة هامة من مواد المجالات عامة والسياسية والأدبية والفكاهية خاصة - نعود فنقول أننا لا نعرف كاتباً تميز بها ، وأصبحت كتاباته هى المقدمة فى هذه الأنواع ، وارتبطت به وارتبط بها مثل الكاتب الباحث المحقق الصحفى أبى عثمان الجاحظ « (٣٧) » .

• • ولعل من خلال كل ما تقدم ، يتضح لنا ، بما لا يدع مجالاً للشك ، هذا الدور الرائد للكتابات الجاحظية ، بالنسبة لهذه النوعية الأخيرة من المقالات ، ومن ثم ، فلا مجال للقول بأن هذه الكتابات تعتبر من قريبات الشبه بمادة اليوم ، أو أنها تعتبر من مقدماتها ، فهذا القول ، أو ذلك لا يمثلان حقيقة موقع المقال الكاريكاتيرى عند أبى عثمان ، ولا أهميته التاريخية الأدبية والصحفية معا ، بل الصحيح أن يقال أنه « مبتكره » وأنه « رائده » وأنه ينطبق على مثيلاته الآن، تمام الانطباق، بل لعل كتابات الرجل فى هذا المجال، تكون أفضل بكثير ، من العديد من تلك الكتابات الكاريكاتورية التى نطالعها اليوم ، وذلك من زاوية الحس الأدبى والصحفى والفكاهى معا ، فضلاً عن خصائص عديدة أخرى ارتبطت بها هذه المقالات ، وكانت علماً على كتابات هذا الرائد • • وحيث يأتى الآن دور التوقف عندها ، عند خصائص المقال الكاريكاتورى الجاحظى ، وذلك قبل أن تنتقل لتقديم إحدى صوره ، أو أجزاء من هذه الكتابات نفسها •

خصائص المقال الكاريكاتورى عند الجاحظ :

نعم • • ارتبطت مقالات الجاحظ الكاريكاتورية ، بعدة خصائص مميزة ، وملامح تعرف بها ، قبل أن نتحدث عنها ، نقول ، انطلاقاً مما سبق ، واستكمالاً له أيضا • • أن هذه الخصائص نفسها ، ولكونها ترتبط بالمقالات الرائدة من هذه النوعية ، فإنها تمثل - حتى الآن - أبرز الأسس والمبادئ ، التى ينبغي أن يراعيها كاتب مثل هذه المقالة ، وكذا ما ينبغي أن تشملها المقالة نفسها من مضمون • • أن أهم هذه الخصائص هى :

١ - حسن اختيار الأشخاص والموضوعات والصور التى تستحق التوقف

- ١٧٩ -

عندها وتناولها على هذه الصورة من المقالات ، فلا بد من أن يكون هناك ذلك « الشيء » الذى يستأهل أن يكتب عنه ، وأن يتكلم به ، وأن يسخر منه ، وأن تبرز تفاصيله ، وأن يجرى تجسيم عيوبه ، وتضخيم ثغراته فالمقال الفكاهى الكاريكاتورى عنده ، لا يتناول أى شيء ، ولا أى انسان وانما لابد أن يكون هناك السبب والدافع والمؤثر .

٢ - أن الضحك ، ولو أنه ركن أساسى فى المقال ، الا انه لم يكن الهدف الوحيد له ، وانما كانت تتشابه معه فى أحيان كثيرة ، وتتقدمه فى أحيان أخرى عدة أهداف رأى الرجل بحصافته وخبرته وحسه ، أنها يمكن أن تتحقق بهذا الأسلوب ، فهو يضحكنا من الأشخاص حتى لا يكثر أمثالهم ، ويضحكنا من الصور والمشاهد حتى تبرز ويضخم جانبها السلبى فيرعى أصعابها ، ويوجه سخريته الى النقائص والعيوب والمثالب ، فالضحك عنده أسلوب وطريقة ووسيلة فهو نوع من « النقد الاجتماعى » لا الأدبى هنا ، وكثيرا ما اتجه الى هذا المعنى ، وفى ذلك يقول أحد الذين اقتربوا من هذا الجانب ، أكثر مما اقتربنا « ٠٠ فلم تكن فكاهاته عارية عن الهدف أو فارغة من المضمون بل كثيرا ما كانت تأتى مصحوبة بالتلميح الهادف أو التعريض اللاذع ، مما يجعلها تأخذ طابع المعالجات الفكرية المحبوبة ، والتي تسمو - فى جوهرها - على اللهو الفارغ أو العبث الرخيص » .

٣ - دقة التوجه لما يتناول وبراعة تصويره مجسما : فهو - كرسام الكاريكاتير الماهر - كان يحسن التقاط ذلك الجانب فى صورة الشخص ، أو تلك الزاوية فى الموضوع ، أو هذا الركن من أركان المشكلة أو القضية ، قبل غيرها من الجوانب أو الزوايا أو الأركان الأخرى ، ثم يتوجه إليها بقلمه ، ليصورها فى براعة ، من حيث التجسيم والتكبير والمغلاة ، حتى وإن كانت هذه كلها تتصل بهيئة رجل ، أو تصرف كاتب ، أو سلوك أحد العمال ٠٠ ثم إن التصوير هنا يحسن اختيار ما يشبه به هذا العضو ، أو تلك الهيئة ، حتى يبعث على الضحك ، والضحك الكثير أيضا .

٤ - أنه لا يوجد فى الأشخاص من لا يمكن أن يناله قلمه بهذا الأسلوب ، طالما أن به ما يستحق أن يضحك منه القارئ ، وأن يتكلم عليه الناس ، فلا فرق هنا بين غنى أو فقير ، أو وزير أو حقير ، فالجميع - إذا صح التعبير - سواسية أمام ذلك القلم الكاريكاتورى ، وعلى هذا فقد وجدنا أن الجاحظ

قد تناول في مقالاته هذه بعض ذوى المناصب العليا في مجتمعه ، ولم يخش يسهم ، ولا سطوتهم ، طالما ان فيهم هذه الزاوية التى تستأهل ، تماما كما تناول غيرهم ممن كان يحفل بهم المجتمع البصرى ، والمجتمع البغدادي على عهده ٠٠ وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فقد قدم فى كتابه « البخلاء » عدة صور لرجال نفهم منه أنهم كانوا فى مرتبة الوزراء ، لكن شحهم كان الزاوية التى نفذ منها الى تناولهم ، وبالمثل رسم لنا صورة رائعة لقاضى البصرة - وكان الناس يرتعدون منه خوفا - فكان كسله هو الجانب الذى رآه جديرا بتناوله ، كما كانت أعمال والاعيب وأكاذيب بعض القصاص هى المنفذ اليهم ٠٠ ولا ننسى أن رسالته الرائعة فى « القريب والبعيد » قصد بها اضحاك الناس من « أحمد بن عبد الوهاب » وهو كاتب الديوان فى عهده ، أى بمنزلة « وزير الثقافة » أو « الاعلام » أو هما معا ٠٠ الآن ، وربما اقترب من منزلة رئيس الوزراء ، أى كان على رأس الجهاز الادارى التنفيذى بالدولة ، فى عهد الخليفة العباسى الواثق ، وصحيح أنها لم تكن السخرية فقط ، وانما للمرسالة جوانبها الأخرى ذات القوائد الأدبية والعلمية ، التى جاءت ضمن سطورها ، ولكن ما كان الرجل ليكتبها الا لأنه وجد فى هيئته ، ورأى فى تصرفاته ما يستأهل هذا التناول الفكاهى ٠٠ بعد أن يمر خلال البوتقة الجاحظية طبعا ، أو « يصهره » كاريكاتوريا ٠٠

ومن الغريب هنا ، أن الجاحظ قد تهكم حتى على نفسه أيضا ، وأكثر من مرة بسبب نتوء سواد عينيه ، وعندما كان يقوم ببعض الأعمال متسرعا أو مضطرا ، وتكون نتيجتها من النوع السلبى ، أو عند تعرضه لما يستأهل ذلك ٠٠

٥ - براعة الوصف : فانت تقرا هذه المقالات ، أو حتى أجزاء منها ، فيدهشك حقا ، أن يكون الرجل - والموضوع فكاهى - على هذه الدرجة الكبيرة من براعة الوصف ، خاصة وهو يركز على هذه الناحية بالذات ، أو هذا الجانب البارز من الصورة ، أو هيئة الرجل ، أو صفاته ، ليتخذ منها مدخله الى الاضحاك والتهكم والسخرية ، ثم تأخذ بك تلك التشبيهات الكثيرة والدقيقة معا ، التى تصاحب هذا التناول ٠٠ مما أسعفته فيه موهبته العجيبة ، ومقدرته الغريبة ، على تقديم هذه الأوصاف كلها ٠٠

٦ - ثراء المضمون وتنوعه : والى جانب ذلك كله ، وعلى الرغم من أن

عنصر الفكاهة كان هو الجانب المسيطر على أمثال هذه الكتابات ، إلا أنه - شأن كل كاتب ماهر - كان يقدم خلال هذه الكتابات الجاحظية بعض ما يعكس ذلك القدر الكبير من الثقافة ، العامة واللغوية والفلسفية والتاريخية .. خلال مسطورها ، بل كان - كطريقته - يخرج أحيانا الى بعض الجد ، أو يتناول بعض الأمور الجارية ، ممترجة بهذه الفكاهة نفسها أو يعود الى إطلاق النكات التي يعرفها أو سمع بها ، أو راح هو يؤلفها مما يتناسب واللحظة التي يصورها ، أو الشخصية التي يتناولها ، بل لقد كانت بعض هذه المقالات ، تحتوي على كثير من الأفكار الجانبية الجادة التي تدهش القارئ ، بل أنه - حتى في هذا الجانب - كان يغلب طريقته بالاستطراد ، والخروج من موضوع الى موضوع ومن فكرة الى فكرة - دون اعتداء على الشكل أو الإطار المقالى ، ومن هنا ، فقد عاشت هذه المقالات وسوف تعيش ما أراد لها الله ذلك بينما اختفت كتابات فكاهية أخرى ، ولم يبق منها شيئا ، لأنها لا تستحق البقاء ، ومن هنا أيضا .. فقد قيل عن رسالة « القريض والتدوير » كثيرا . حتى وصفها بعض المستشرقين - وهى أنموذج للمقالة الكاريكاتورية الطويلة - بأنها « أشبه ما تكون بدائرة معارف » (٣٩) .. هكذا قال عنها البارون « كراي فو »

٧ - واقعية اللغة وجاذبيتها : وان كنا لا نريد أن نسترسل الآن فى ذلك كثيرا ، إلا أننا نشير الى أن هذه الواقعية التعبيرية ، وان كانت عنصرا جوهريا من عناصر كتابته كلها وعلما عليها خلال جميع مراحلها وأغراضها ، إلا أننا نشير اليها هنا بالذات ، لأنها تمثل جانبا من هذه الجوانب الهامة التي تؤكد عبقرية الرجل ، وزوايا مقدرته الأدبية والصحفية معا ، فأمر عادى أن يكون الرجل واقعيا فى لغته عندما يكتب مادة اخبارية ، أو تلك التي تقترب من التحقيقات الصحفية ، أو الأحاديث ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ولكن أن يعود الرجل ليكتب كل هذه الملح والطرائف ، والفكاهات وحتى النكات الممتعة ، لأن المقام هو مقامها والمقال هو مقالها ، والمجال هو مجالها أيضا ، فإن ذلك - ولا ريب - يكون مبعث دهشة و إعجاب معا ، فهل يكون صاحب « الحيوان » و « البيان والتبيين » و « الاعتزال وفضله » و « أى القرآن » و « الرد على اليهود » و « الاستبداد والمشاورة فى الحرب » .. وغيرها ، هو نفسه صاحب هذه الواقعية التعبيرية التي جاءت ضمن مسطور كتاباته الفكاهية والكاريكاتورية ؟

ولعل ذلك يكون سببا فى أنه راح يحشد لها من جوانب الجاذبية

— ١٨٢ —

والطرافة والمتعة الذهنية الشيء الكثير ، مما أكسب هذه الكتابات شهرة منقطعة النظير ، حتى اعتبرت أفضل ما صور جوانب عصره السلبية ، والماجنة ، والفكهة ٠٠ معا ٠٠

٨ — ٠٠٠ وخصائص أخرى عديدة ، ارتبطت بهذه الكتابات المقالية الكاريكاتورية الجاحظية نفسها ، لا يتسع المجال هنا لذكرها على وجه مسهب ، لكننا نشير إليها في عجالة ٠٠ ان من أبرزها :

— النزوع في بعض الأحيان الى تحدى الخصم الذى يضحك القارئ منه ، ودعوته الى نزاله ٠٠

— تقديم بعض المحاورات الفكهة التى تثرى المضمون ، وتزيد من جرعة الاضحاك ٠٠

— حسن اختيار اللحظة والموقع من المقال الذى يقدم فيه جوانب التجسيم والتهويل ، أو جوانب السخرية المباشرة ، أو جوانب النكتة المؤلفة ، أو التى ترد على ذهنه ٠٠

— الاستعانة دائما بالمقصص القصيرة والأقاصيص والمادة الاخبارية التى تتصل بهذه الشخصيات ومواقفها وتصرفاتها ، وحسن صياغتها في أسلوب قصصى وفكه معا ٠

— الوضوح الكامل الذى يعين على الفهم السريع والاستمتاع بجوانب مقالته الكاريكاتورية والتى تدخل الى عقل القارئ من أقصر طريق ٠

— تقديم ما يعكس ظرفه وخفة ظله ، وما يصور طابع المرح الذى يتمتع به الرجل من آن لآخر ، وبطريقة محببة ، يقبل عليها القراء ، دون مبالغة أو ادعاء أو تكرار ممل ٠٠

— الاشارة الى القارئ ببعض جوانب المبالغة المستعصية فى ذلك الذى ينقله عن آخرين الى غير هذه كلها من خصائص ومعالم وأساليب كتابية ٠٠

وقبل أن نقدم مختارات مختصرة من هذه المادة المقالية الكاريكاتورية ،
نشير الى أنها - موضوعا - تناولت هؤلاء جميعا : (فى جوانب السلب
والإضحاك عندهم) .

(المعلمون للصناعات المختلفة - البحريون - البخلاء - الإخباريون -
القصاص - الوعاظ - الحمقى - الكتاب - الطفيليون - الأدعياء - فكاهاث
بدوية - مفارقات عن الجوارى والغلمان - المتنظرون) . وذلك كله الى
جانب شتى الموضوعات الأخرى ، التى امتدت اليها كتاباته .

.. وقد كان من هذه الكتابات كلها وعلى سبيل المثال لا الحصر
« مختارات فقط »

● ● مقال من الجزء الثالث من « الحيوان » .. عن « الذبان » أو
الحاح الذباب على « قاضى البصرة » .. جاء فيه قوله :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكما
قط زميتا ، ولا ركيئا ، ولا وقورا حليما ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته
مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من
مسجده فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يتكئ . فلا يزال منتصبا لا يتحرك له
عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحل رجلا على رجل ، ولا يعتمد على
أحد شقيقه ، حتى كأنه بناء بنى أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى
يقوم الى صلاة الظهر . ثم يعود الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم
الى العصر . ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب . ثم
ريما عاد الى محله ، بل كثيرا ما كان يكون ذلك ، اذا بقى عليه من قراءة
العهود والشروط والوثائق . ثم يصلى العشاء ، وينصرف . فالحق يقال :
لم يقم فى طول تلك المدة والولاية ، مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ،
ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى
قصارها وفى صيفها وفى شتائها . وكان مع ذلك ، لا يحرك يده ولا يشير
برأسه ، وليس الا أن يتكلم .

فبينما هو كذلك ، ذات يوم ، وأصحابه حواله ، وفى السماطين بين
يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب . فاطال المكث ، ثم تحول الى مؤق عينه .
فراى الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاد خرطومه ، كما رام من

الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضن وجهه ، أو يذب بأصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله ، وأوجعه ، وأحرقه ، وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض . فدعاه ذلك الى أن يوالى بين الاطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه . ثم عاد الى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطوميه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك . فكان احتمالاه أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد فى شدة الحركة ، والح فى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والاطباق . فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد الى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من أن يذب عن عينيه بيده ففعل ، وعيون القوم اليه ، ترمقه ، وكانهم لا يروونه . فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته . ثم عاد الى موضعه . ثم ألجأه الى أن ذب عن وجهه بطرف كفه . ثم ألجأه الى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمثائه وجلسائه . فلما نظروا اليه قال : « أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، وأزهى من الغراب . وأستغفر الله ! فما أكثر من أعجبتة نفسه فأراد الله ، عز وجل ، أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا ! وقد علمت أنى عند نفسى من أضعف الناس ، فقد غلبنى وفضدنى أضعف خلقه » . ثم تلا قوله تعالى : « وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ! » وكان بين اللسان قليل فضول الكلام ، وكان مهيبا فى أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه فى نفسه ولا فى تعريض أصحابه للمنالة » (٤٠) .

● ● ٠٠ وعن الموضوع نفسه ، ومما يتصل بكاتبنا هو شخصيا ، نقرأ هذا الجزء من مقاله يصف فيها واقعة حدثت له مع الذباب أيضا :

فأما الذى أصابنى أنا من الذبان ، فانى خرجت أمشى من عند ابن المبارك أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة . فمررت فى عشب ونبات ملتف كثير الذبان ، فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنفى . فطرדתه ، فتحول الى عيني . فزدت فى تحريك يدي . فتنحى عنى بقدر شدة حركتى وذبى عن عيني - ولذبان الكلا والعياض والرياض وقع ليس لغيرها - ثم عاد الى ، فعدت عليه . ثم عاد ، فعدت بأشد من ذلك . فلما عاد استعملت كمي . فذبيت به عن وجهي . ثم عاد ، وأنا فى ذلك أحث السير ، أوّل بسرعتى انقطاعه عنى

فلما عاد نزع طيلسانى من عنقى ، فذبيت به عنى بدل كى . فلما عاود ، ولم أجد له حيلة ، استعملت العدى ، فعدوت مذ شوطا لم أتكاف قتله مذ كنت صيبا . فتلقانى الأندلسى فقال لى . « مالك . يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ » فقلت : « نعم ! أريد أن أخرج من موضع للذبان على فيه سلطان » . فضحك حتى جلس . وانقطع عنى . وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جدا (٤١) .

● ● ٠٠٠ ولا نترك هذا المجال تماما ، دون الإشارة الى جزء قليل ، من كم كبير ، ورد ضمن صفحات كتابه « البخلاء » مما يتصل بهذا المجال أيضا ، ومما اتبع فيه أسلوب « المحاوراة الفكاهية » ٠٠ انه مقاله عن « تمام ابن جعفر » ٠٠ أحد البخلاء المعبودين فى عصر الجاحظ :

« كان تمام بن جعفر بخيلا على الطعام ، مفرط البخل ، وكان يقبل على كل من أكل خبزه بكل علة ، ويطالبه بكل طائلة ، وحتى ربما استخرج عليه انه كان حلال الدم ، وكان ان قال له نديم : ما فى الأرض أحد أمشى منى ، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر منى ، قال : وما يمنعك من ذلك وانت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل الا البطن ؟ لا حمد الله من يحمك . »

فان قال : لا والله ان أقدر أن أمشى لأنى اضعف الخلق عنه ، وانى لانيهر من مشى ثلاثين خطوة ، قال : وكيف تمشى وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالا ؟ وهل ينطلق الناس الا مع خفة الأكل ؟ وأى بطين يقدر على على الحركة ، وان الكليظ ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشى الكثير ؟ فان شككنا ضرره وقال : ما نمت البارحة مع وجعه وضرباته ، قال : عجبت كيف اشتكتك واحدا ولم تشتك الجميع ؟ وكيف بقيت الى اليوم فى فيك حاكاة ؟ وأى ضرر يقوى على الضرر والطحن ؟ ٠٠٠ فان قال : والله ان اروى من الماء ، وما أظن أن فى الدنيا أحدا أشرب منى للماء . قال : لابد للتراب من ماء ، ولابد للطين من ماء يبلله ويرويه ، أو ليست الحاجة على قدر كثرتة وقتله . والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرت لك ، مع ما أرى من شدة أكلك وعظم لقمك .

فان قال : ما شربت اليوم ماء البتة ، وما شربت أمس بمقدار نصف رطل ، وما فى الأرض انسان أقل منى شربا للماء . قال : لأنك لا تدع لشرب

الماء موضعا ، ولأنك تكنز في جوفك كنزا لا يجد الماء معه مدخلا فان قال :
ما أنام الليل كله وقد أهلكنى الأرق • قال : وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة
أن تنام ؟

فان قال : ما هو الا أن أضع رأسى فانما أنا حجر ملقى الى الصبح •
قال ، ذلك لأن الطعام يسكر ويخدر ويختل وييل الدماغ وييل العروق ويسترخى
عليه جميع البدن ، ولو كان فى الحق لكان ينبغى أن ننام الليل والنهار ، (٤٢)

● ● ••• وأخيرا ، وقبل أن ننتقل الى نوعية أخرى من أنواع هذه
المقالات ، نقدم طرفا من رسالته « الترييع والتدوير » •• ليعود اليها من يشاء
وحيث تتمثل فيها هذه الخصائص المقالة الكاريكاتورية الجاحظية مجتمعة ••
ومن ثم فمن غير المعقول الا ننقل عنها هذه السطور القليلة :

« اطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك • قد علمت ، حفظك الله ،
أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حور
العين وجودة القد ، وعلى طيب الأحداثو والصنيعة المشكورة • وان هذه
الأمور هى خصائصك التى بها تكلف ، ومعانيك التى بها تلهج •• وبعد ،
أبقاك الله فأنت فى يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حد لا يقل ،
وغرب لا ينتهى ، وهو قياسك الذى اليه تنسب ، ومذهبك الذى اليه تذهب ، أن
تقول : وما على ان رآنى الناس عريضا وأكون فى حكمهم غليظا ، وأنا عند
الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق • وقد علموا ، أبقاك الله ، ان لك
مع طول الباد راكبا طول الظهر جالسا • ولكن بينهم فيك اذا قمت اختلاف ،
وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل ، ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت أنا
لم تر مقدودا واسع الجفرة غيرك ، ولا رشيقا مستفيض الخاسرة سواك ،
فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب • فيا شعرا جمع
الأعاريض ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهمك من أقاريلهم
ويتعاطمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن
استقاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك
عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا • ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى
عرضك ، واذ قد سلموا لك بالمرغم شطرا ومنعوك بالظلم شطرا • فقد حصلت
ما سلموا وأنت على دعواك فيما لم يسلموا • ولعمري ان العيون لتخطيء

- ١٨٧ -

وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن . وما الاستبانة الصحيحة
الا للعقل ، اذ كان زماما على الأعضاء وعيارا على الحواس .

وبعد حديث طويل على هذا النسق يوجه الجاحظ الى خصمه اسند
واليك بعضها منها : « وهى من أصل مائة مسألة »

خبرنى عن معنى الفرات على حقه وصدق ، وعن نضوب البحر وعن
تنقص الأرض . ولم عمل الفلك فى هذا العالم وليس بينهما شبه ، وهلا
عمل فيه بقدرة منه ، وهل يجوز أن يعمل شيء فى شيء الا والاخر يعمل فيه؟
وخبرنى مذكم كان الناس أمة واحدة ، ولغاتهم متساوية ؟ وبعد كم بطن اسود
الزنجى وأبيض الصبلى ؟ ولم صار اللون أسرع تنقضا من الجمود ؟ ولم كان
الولد يجيء على شبه ما فى أبيه من الأمور الحادثة فى بدنه عن غير القديمة
فى أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبى قط فى العرب مجنونا .

جعلت فداك أيما أطول عمرا الناس ، أم عير العانة ، أم الحية ، أم
الضب ، ومتى تستغنى الحية عن الغذاء ، ومتى ينتفع الضب بالنسيم ؟ (٤٢)

● ● حتى نصل الى هذه النوعية الأخيرة من المادة الجاحظية ، تلك
التي كان لها وضعها الخاص بالنسبة لمثيلاتها من مقالات اليوم ، فبينما نجد
بعضها يبتعد عن احدى نوعياتها الحديثة ، نجد البعض الآخر وهو يقترب
كثيرا من نوعية أخرى ، من هذه النوعيات التي تعرفها صحافة اليوم .
وهكذا اختلفت أوضاعها قريبا أو بعدا من هذه المادة . على أن أهم فواصل
هذه النوعية هي :

(١) المقال الافتتاحى أو « الافتتاحية » :

لو رحنا نبحث عن « المقال الافتتاحى » . فى كتابات الجاحظ ، فأننا
دون شك سوف نجد أنه يتجاذبنا شعوران ، أو يأخذ بنا احساسان ، يقومان
على ملاحظة هامة . تلك هي أنه اذا كنا نقصد المقال الافتتاحى الحديث،
بالمصورة التي تعرفها الصحف والمجلات اليوم ، وجميع خصائصه المرتبطة
به ، أو أكثرها - على الأقل - فان مطلبنا يكون عسيرا بعض الشيء ، وذلك
لاختلاف الظروف والأحوال والطبائع ، ولكن اذا كنا نريد هذه « الفواتح »

- ١٨٨ -

أو « المداخل » التي تشبه مقدمات الكتب أو الرسائل ، فسوف نجد الكثير منها مما يزخر به التراث الإبداعى الكتابى الجاحظى ٠٠

ومن هنا نقول :

(١) أنه اذا كنا نقصد بالمقال الافتتاحى أنه وكما نعرف : « المقال الذى يحمل رأى الصحيفة أو المجلة وموقفها من القضايا والمشكلات والاتجاهات الهامة داخلية وخارجية » (٤٤) ٠٠ أو أنه « المادة التحريرية الهامة التى تنشر يوميا أو أسبوعيا محددة موقف الصحيفة أو المجلة من القضايا الهامة، والمشكلات والمواقف والأفكار التى تتصل بمجتمع ما أو المجتمع الانسانى ، والتى تنشر تحت عنوان ثابت وغفلا من التوقيع باسم كاتبها وفى مكان بارز وثابت فى أكثر الأحوال » (٤٥) ٠٠ وأنه لا يوقع باسم محرره لأنه لسان حال الصحيفة » (٤٦) ٠٠ أو كنا نقصد هذا الذى تطلع به علينا الصحف والمجلات مراعية فى تحريره ونشره خصائص عديدة من بينها :

— النشر اليومى أو الأسبوعى الدائم تحت عنوان لاقتى ثابت ودال .
— تعدد الكتاب وتنوعهم .

— الارتباط الكامل بسياسة وسيلة النشر وما يتصل بذلك من التعبير عن رأى الصحيفة ، وجهة نظرها ، وما أسفر عنه ذلك من اتجاهات عديدة واجراءات مختلفة .

— عدم التوقيع باسم المحرر ، بل الصحيفة ، كوسيلة اتصال .
— الجدة الزمنية الكاملة ، والارتباط بمادة حديثة ساخنة وملتهبة .
— المكان والحجم المحدد تقريبا وفى أغلب الأحوال ٠٠
— التوفيق بين سياسة الصحيفة والصياغة واهتمام القراء وصالح الوطن والانسانية .

٠٠ اذا كنا نقصد هذه النوعية ، فأننا نقول ان الكتابات الجاحظية لم تعرقها وليس لنا ادعاء ذلك ، أو الزعم بهذه المعرفة ٠٠ وواضح ان أسباب هذه الحالة تتصل بالمطابع الصحفى الحديث والكامل ، والذى أسفر عن وجود هذه النوعية من المقالات لاسيما هذه الأسباب : « تعدد الحياة وتشابك

المشكلات والتوتر السياسى القائم وحاجة القراء الى الشرح والتفسير والمساعدة على اتخاذ المواقف وايجاد رأى عام فى مواجهة المشكلات داخلية وخارجية وانتظار رأى الصحيفة المعاون للقارئ فى كل ذلك الخ»

ان رجلنا ، لم يكن يكتب فى صحيفة يومية أو أسبوعية ، ليعبر عنها ، ولم تكن الحياة بكل هذا التعقيد والتشابك والتوتر القائم ومصرعات الحدود والحروب الداخلية والأزمات الاقتصادية والسياسية ولم يكن هناك القارئ الفزع الذى ينشد المعرفة الكاملة لما يدور حوله ، أو ينشد الخلاص الى غير ذلك كله ، فضلا عن الاتجاهات الصحفية الجديدة التى لم يعرفها الجاحظ ولا عصره .. ومن ثم لم يعرف ما يرتبط بها من اجراءات وتنظيمات تهدف فى النهاية الى أن تصل هذه المادة قبل غيرها الى القارئ فى سهولة ويسر ، وأن تقع تحت بصره دائما ، حتى تقوم بدورها ، وتحقق الهدف من وجودها ..

هذه واحدة ..

(ب) وأما اذا تجاوزنا عن ذلك كله - خاصة الاتجاهات والمطالب والأساليب العصرية - ونظرنا الى هذه المقالة نفس نظرنا الى مقدمات الكتب وفواتحها . بل ونظرنا الى بعض أنواع هذه المقالات نفسها لاسيما « المقال الافتتاحى المهنى » وبالتركيز الشديد على بعض أنواع « مقالات المجلة » الافتتاحية ، لوجدنا اننا نقرب أكثر من خطوة واحدة من النتائج الجاحظ فى مثل هذه المجالات .. ولكن كيف ؟

ان أكثر ما كتبه الجاحظ رأيناه يقدم له ، أو يفتتحه بعدة سطور اختلفت أطوالها من مادة لأخرى ، لكنها فى أحوال غير قليلة أيضا كانت « فى مجموعها » .

— ذات صلة وثيقة وأساسية بمضمون المادة التى تفتتح بها .

— تقدم بعض ما يتصل بها من مصادر أو أشخاص .

— تلفت النظر الى أهميتها .

— ١٩٠ —

— تتحدث عن بعض الكتابات السابقة فى نفس الموضوع له
أو لغيره .

— وقد تحيل القارئ الى هذه الكتابات .

— وقد تتحدث عن بعض الجهد الذى بذله فى الحصول عليها لاسيما
ان كانت تتصل بانتقاله الى أماكن أخرى .

— أو تنبه الى بعض « المثالب » أو « الثغرات » وتقدم بعض
« المحاذير » .

— وقد تتضمن ذلك الاهداء الى شخص ما وما يتصل به .

— وكثيرا ما تضمنت السبب الرئيسى لكتابتها .

— وربما الاعتذار عن أى تقصير يبدو خلال سطورها .

الى غير ذلك كله ، من أفكار وقضايا . نعود فنقول بشأنها انها —
بصرف النظر عن العناوانات خاصة الاشارية المفتاحية والثابتة ، وعن
التوقيع ، وعن تتابع الصدور ، وما يتصل بعد ذلك بالتعبير عن سياسة المجلة ،
أو الصحيفة الأسبوعية نقول انها تقترب أكثر من خطوة من ذلك النوع من
أنواع المقالات الافتتاحية التى تعرفها المجلات أولا ، والصحف الأسبوعية
ثانيا ثم اليومية فى أحوال قليلة جدا ، والتى تركز على إحدى هذه الأفكار
أو الموضوعات : « تجربة مثيرة لمحرر — مشكلة مادية أو فنية واجهت صدور
العدد — موضوع يتصل بصدور هذا العدد — قصة حصول محرر على سبق
صحفى منشور بنفس العدد — خطاب هام من قارئ — خطاب هام من المحرر
الى القارئ بشأن مادة ما ، أو تطوير ما أو ما شابه ذلك . . . الخ » .

. . كل ذلك اقتربت « الافتتاحيات الجاحظية » منه . . فإذا علمنا أن
الرجل قد قدم للمكتبة العربية ما يزيد على ثلاثمائة مصنف ، بعضها فى أكثر

من كتاب أو جزء أو نسخة وكثير منها ارتفعت فوقه تقدم له مثل هذه « الفاتحة » ٠٠ وبجسبة بسيطة ومن خلال مقالات المجلات الافتتاحية ، أو هذا النوع من أنواعها على وجه التحديد ، لوجدنا أن النتائج الجاحظ في هذا السبيل كان يتسع ليغطي افتتاحيات عدة أعوام كاملة لا تقل بحال عن أربعة أعوام ، من أعداد هذه المجلات (٥٢ افتتاحية سنوياً) ٠٠ هذا كله مع علمنا بأن بعض هذه المجلات الحديثة لا تنشر افتتاحية واحدة من هذا النوع في جميع الأحوال ، وإنما تنشر الى جوارها أحياناً ، افتتاحية عادية كاية افتتاحية أخرى ٠٠ فإذا كانت لمجلة شهرية فإن ما نشره الحاحظ يغطي افتتاحيات اعداد ما يزيد على ٢٥ سنة منها ١

وكان من بين هذه المقدمات والفواتح الجاحظية ، التي تقرب من هذه المقالات الافتتاحية للمجلات والصحف الأسبوعية ، خاصة دوريات التخصص العام ، ما يلي :

« ولعل هذا الجزء الذى نبتدىء فيه بذكر مالنا فى الحشرات والهمج ، أن يفضل من ورقة شيء ، فرفعه ونتمه بجملة القول فى الطباء والذئاب ، فانهما بابان يقصران عن الطوال ويزيدان عن القصار ٠٠

وقد بقى من الابواب المتوسطة والمقتصدة المعتدلة ، التى قد اخذت من القصر لمن طلب القصر بحظ ، ومن الطول لمن طلب الطول بحظ . وهو القول فى البقر والقول فى الحمير والقول فى كيار السباع واشرافها ورؤسائها وذوى النباهة منها كالأسد والنمر والبيبر واشباه ذلك - وسنذكر تسالم المتسالة منها ، وتعادى المتعادى منها - وقد شاهدنا غير هذه الاجناس يكون تعادىها من قبل هذه الامور التى نكرناها ، وليس فيما بين هذه السباع باعيانها تفاوت فى الشدة ، فتكون كالأسد الذى يطلب الفهد لياكله والفهد لا يطعم ولا يأكله ، فوجدنا التكافؤ فى القوة والآلة من أسباب التماسد ٠٠٠ وسنذكر علة التسالم وعلة التعادى ، ولم طبعنا رؤساء السباع على القفلة. وبعض ما يدخل فى باب الكرم - ولم نذكر بحمد الله تعالى شيئاً فى هذه الغرائب ، وطريقة من هذه الطرائف . الا ومعها شاهد من كتاب منزل . أو حديث مأثور ، أو خبر مستفيض ، أو شعر معروف ، أو مثل مضروب . أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب ، ومن قد أكثر قراءة الكتب ، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى واستدري بالهضاب ودخل

- ١٩٢ -

فى الغياض ومشى فى بطون الاودية - ونحن حفظك الله اذا استنطقنا الشاهد
وأحلنا على المثل ، فالخصومة حينئذ انما هى بينهم وبينها ، اذ كنا نحن لم
نستشهد الا بما ذكرنا ، وفيما ذكرنا مقنع عند علمائنا ، الا أن يكون شيء
يثبت بالقياس ، أو يبطل بالقياس ، فواضع الكتاب ضامن لتخليصه وتلخيصه،
ولتثبيته وإظهار حجته ، (٤٧) .

هوامش الفصل الخامس :

- (١) محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحليل الصحفي العام » ص ٧٠ ، ٧١ .
- (٢) أحمد بن علي المقرئ الفيومي : « الصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي » ص ١٧١ .
- (٣) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : « مختار الصحاح » ص ١٢٥ .
- (٤) إجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحليل الصحفي » ص ٢٥ .
- (٥) C.H. Brown : "Informing the people" p. 205
- (٦) H.M. Patterson : "Writing and Selling Feature Articles" p. 61.
- (٧) محمود أدهم : « المدخل في فن الحديث الصحفي » ص ٤٠ .
- (٨) الجاحظ : « البيان والتبيين » ص ١١٢ .
- (٩) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٤ ص ١٠٢ .
- (١٠) محمود أدهم : « التحقيق الصحفي » ص ٢٤ .
- (١١) محمود أدهم : « فن تحليل التحقيق الصحفي » ص ٨ ، نقلا عن H.M. Patterson
- (١٢) دافيد بوتز ، ترجمة محمد مصطفى غنيم : « مخبر والصحف » ص ٢٣ .
- (١٣) ف. فريزرينوند ، ترجمة راجي صهيون : « مدخل الى الصحافة » ص ٢٠٧ .
- (١٤) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٠ - ١٦١ .
- (١٥) محمود حسين أدهم : « فن التحقيق الصحفي المصور » رسالة ماجستير في الصحافة طبعت بعض أجزائها ، المجلد الثاني ، ص ١٠٤٠ .
- (١٦ - ١٧) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » ص ٧٦/٧٥ .
- (١٨) حسين سعيد وآخرون : « الموسوعة الثقافية » ص ٩٣٥ .
- (١٩) نبيل راغب : « دليل الناقد الأدبي » ص ١٨٩ .
- (٢٠) تعريف معجم « لاروس » .
- (٢١) تعريف دائرة المعارف البريطانية .
- (٢٢) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ١٣ نقلا عن « أحمد رسدي صالح » .
- (٢٣) المصدر السابق ، ص ١٤ ، احد التعريفات الخاصة بالمؤلف .
- (٢٤) المصدر السابق ص ٤٤ .

(الجاحظ)

- ١٩٤ -

- (٢٥ - ٢٦) اجلال خليفة : « اتجاهات حديثة فى فن التحرير الصحفى »
 ص ١١٤ - ١١٨ .
- (٢٧) الجاحظ : « البيان والتبيين » د ١ صفحات متعددة .
- (٢٨) شوقى ضيف : « النقد » ص ٩ .
- (٢٩) أحمد يوسف محمد خليفة : « نشأة النقد الأدبى حتى نهاية القرن الأول الهجرى » ص ٩ .
- (٣٠) شوقى ضيف : « النقد » ص ٥٧ .
- (٣١) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ١٢٠
 نقلا عن « كتاب الحيوان » .
- (٣٢ - ٣٣) عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحرير الصحفى »
 ص ٢٥٢ .
- (٣٤ - ٣٥) توفيق الحكيم ، حديث الثلاثاء - فى الوقت الضائع -
 جريدة الأهرام ، العدد الصادر فى ٢٢ يناير ١٩٨٥ + أنظر له أيضا : « فن
 الأدب » ص ٣٣ .
- (٣٦) محمود أدهم : « المقال الصحفى » ص ١٨٥ .
- (٣٧) محمود أدهم : « التعريف بالمجلة » ص ١٩٧ ، ١٩٩ .
- (٣٨) أحمد عبد الغفار عبيد : « أدب الفكاهة عند الجاحظ » ص ٥ .
- (٣٩) المصدر السابق ص ١١٣ .
- (٤٠ - ٤١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » د ٣ ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ .
- (٤٢) الجاحظ « البخلاء » ص ١١٦ .
- (٤٣) الجاحظ : « التريب والتدوير » تحقيق فوزى عطوى ص ٩
 وما بعدها .
- (٤٤ - ٤٥ - ٤٦) محمود أدهم : « المقال الصحفى » ص ٥٩ .
- (٤٧) الجاحظ : « كتاب الحيوان » د ٦ ، ص ١١ .

الفصل السادس
عن
الأسلوب الجاحظي
« الجاحظ ولغة الصحافة »

- ١٩٧ -

بعد هذه الرحلة الطويلة ، مع « **النتاج الجاحظي** » المتعدد الألوان والأشكال ، وعلى أثر تقديمنا لهذه الشواهد العديدة ، على أن للرجل جانبه الصحفي ، أو ذلك الجانب الذي يمكن النظر اليه من زاوية صحفية ، فلا نجد بعيدا عن « **صحافة اليوم** » بموادها وأنماطها وفنونها التحريرية ٠٠ وبعد أن أقمنا الجسور بين هذا النتاج الذي اعتبرنا بعضه أدبا صحفيا ، وبعضه الثاني بمثابة جذور لفنون التحرير ، وبعضه الثالث بمثابة طلائع متقدمة لها ، بينما انطبق بعضها الرابع عليها تمام الانطباق ، لاسيما من زاوية المقال الصحفي ٠٠ وهو ما سبق به أدياء عصره ، والعصور السابقة عليه فجاز أن يكون بذلك كله أول الصحفيين الذين عرفتهم لغة العرب ٠

بعد هذه الرحلة الطويلة ، يكون علينا أن نتوقف مرة أخرى - ولا أقول أنها الأخيرة - عند جانب آخر من تلك الجوانب التي عرف بها الرجل ، وارتبطت به وبأدبه ارتباطا وثيقا ٠٠ لنرى ماذا تعنى ملامحها ومعالمها وصورها وشواهدا ، بالنسبة لهذا الجانب الصحفي من جوانب الرجل ، من ناحية ؟ وبالنسبة للصحافة نفسها من ناحية أخرى ؟ فلعلها - بما يمكن أن نتوصل اليه بشأنها - تقدم دليلا جديدا ، مفيدا ، يؤيد هذه الدعوى ، ويقف الى جوار الأدلة السابقة ، في مجموعها ، التي تشير الى « **الجاحظ** » من زاوية صحفية ٠٠ أو - على الجانب الآخر - ترفض هذه الزاوية ، وتقدم دليلا مختلفا ، أو يقلب ما توصلنا اليه حتى الآن ، راسا على عقب ، ويصير بذلك علينا ، وليس لنا ٠٠

أما هذا الجانب الذي قد يكون عاملا مؤيدا ، بنفس الدرجة التي قد يكون فيها عاملا معارضا ، أو ربما يكون هذا العامل الأخير ٠٠ فهو ما نطلق عليه تعبير « **الأسلوب** » وعن هذا الجانب ، أو العامل ، أو العنصر نقول :

أولا - **الأسلوب** : ماذا يعنى ؟

وبطبيعة الحال فأننا لن نقفز الى « **الأسلوب الجاحظي** » مرة واحدة ٠٠ وإنما ومن زاوية تعريفية ، سنحرق طريقنا اليه بعدد من « **الملاحظات** » الصغيرة ، التي تعطى للقارئ فكرة سريعة عنه ، تقود بدورها الى الهدف المنشود : الأسلوب الجاحظي بين الأسلوب الأدبي ، والأسلوب الاعلامي الصحفي ٠٠

- ١٩٨ -

ولعل « المحطة » الأولى التى ينبغى أن نتوقف عندها ، هى تلك التى تجيب فيها على سؤال يقول : ما الأسلوب ؟ ٠٠ وذلك من خلال جولة مع اصحاب هذا الجانب ، وأهله ، ومتخصصيه ٠٠

● ٠٠ ان هناك شبه اجماع على أن الأسلوب هو طريقة معينة فى التفكير والتعبير حسب مقتضى الحال .

● وان أحد رواد هذا الفن يقول أن الأسلوب هو : « طريقة التفكير والتصوير والتعبير » (١) ٠٠ ويضيف قائلاً : « ان أبرز صفاته ترجع الى ثلاث : أولا الوضوح ، ثانيا القوة بقصد التأثير ، ثالثا الجمال لعقد الامتاع والسرور » (٢) ٠٠ ويقول آخرون أن الأسلوب هو الطريق والمذهب ، وهو اللفظ والمعنى والقدرة على تقديمهما فى أحسن صورة ٠٠

ويقينى أن الجانب الأول من ذلك التعريف ، يصدق تماما بالنسبة لآى أسلوب كان أو أى مستوى تعبيرى ، ومن بين ما يصدق عليها ٠٠ الأسلوب الصحفى ، أو المستوى التعبيرى الصحفى ٠٠

لكن بالنسبة لهذا الجانب الثانى ، الذى أورد فيه هذا الرائد خصائص الأسلوب ، فأننى أستطيع أن أزعم أنه كان يقصد الأسلوب الأدبى ، أو بلاغة التعبير الأدبى ، أو المستوى الأدبى من التعبير ، قبل أن يقصد غيره ٠٠

٠٠ ومن هنا ، وإذا صح اتخاذ هذه المحطة « التفسيرية » لمعنى الأسلوب ، كمنطلق لنا ، فأننا لابد أن نشير الى جوانب أخرى هامة ، تتصل بموضوعها عن قرب ، وبموضوعنا أيضا - الأسلوب الجاحظى - لعل فى مقدمتها :

● ما يتصل بمستويات التعبير من حيث هى :

فنحن نعرف أن هناك ثلاثة مستويات تعبيرية ، تختلف فى موقفها ونظرتها الى المادة ، وفى لغتها وأساليبها ، وبلاغتها ، ويلاحظ ذلك - كل الملاحظة - هؤلاء الذين يتصدون للكتابة ٠٠ أو « يتعاطونها » على حد قول الكاتبين فى عصر الرجل موضوع حديثنا ٠٠ وعموما ، فنحن نترك رائدا من رواد الصحافة يتحدث عن هذه المستويات نفسها - د. عبد اللطيف حمزة - أستمع اليه وهو يقول ، أن هذه المستويات هى :

— ١٩٩ —

« المستوى الأدبي : وهو المستوى الذى يقف فيه الأدباء للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم وتجاربهم الانسانية بوجه عام ، ولهم فى هذا التعبير طرائق تختلف باختلاف الأشخاص ، واختلاف العصور واختلاف البيئات .. »

والمستوى العلمى : الذى يقف فيه العلماء ليعبروا عن الحقائق العلمية، سواء اكان ذلك فى العلوم الكونية ، أم التاريخية أم الأدبية ، وهم فى هذا التعبير يلتزمون لغة تمتاز بالوضوح واستخدام الألفاظ التى تكون على قدر المعانى ، واصطناع المصطلحات التى اتفق عليها اهل كل علم من هذه العلوم على حدة ، ومعنى ذلك أن العلم مادته الحقائق وحدها فى حين أن الأدب مادته العواطف والصور والأمثلة ..

والمستوى العملى : .. وهو المستوى الذى يقف فيه الصحافى لينقل للناس اخبار البيئة التى يعيشون فيها والبيئات التى يتصلون بها وليقوم للناس بتفسير هذه الاخبار فى اثناء نقلها وبعد نقلها وذلك عن طريق التعليق عليها ، والاستنارة بأراء الممتازين من القراء فى بعضها وهو فى سبيل ذلك يستخدم لغة عملية يفهمها القراء ، ولا يشترط فيها ما يشترط فى لغة الأدب من خيال أو جمال أو ما يشترط فى لغة العلم من دقة بالغة فى تحديد معانى الألفاظ ، (٢) .

« .. اقول ، نحن مع هذا الرائد جملة فى تقسيمه هذا ، وإن كنا لسنا معه تماما أو بنفس القدر فى بعض التفصيلات .. خاصة :

— وهو يجعل كل مستوى من هذه المستويات كلا كاملا بحيث تصدق هذه الخصائص على جميع الفنون الأدبية ، أو العلمية أو الصحفية بنفس الدرجة .

— وهو يكاد يجرد النوعين الاخيرين من أن تتمتع بعض انماطها ببعض صور ولسات الفن والجمال ، أو يجعلها بلا بلاغة أو يعثرها الجفاف دائما مع أن لكل منهما بلاغته المرتبطة به .

— وهو يكاد يقصر أو يركز المستوى العلمى على الصحافة وحدها، مع أن له صوره العديدة « التعاملية » و « الوظيفية » التى يعرفها العاملون فى كل مجال .

— ٢٠٠ —

— وحتى وهو يقصر المستوى العملى على الجانب الصحفى وحده،
فإننا نراه يكاد يركز تركيزا شديدا على ما يتصل بلغة الأخبار أولا والمزاد
أو الأنماط الوثيقة الصلة بها ثانيا .

ذلك كله ، بينما هذا المستوى الأخير ينقسم الى أكثر من مستوى فرعى،
أو قسم على النحو الذى سوف توضحه فقرة قادمة بانن الله .

ولكنه — على الرغم من ذلك — يبقى تقسيما طيبا ومعقولا ، لا يتبقى
بالنسبة لنا ، الا أن نعود فنوضح ، أين يقف الأسلوب الجاحظى منه ؟

● ما يتصل بكتابات الرجل ، وهذه المستويات :

نعم : أين يقف الأسلوب الجاحظى ، أو — بطريقة أخرى — المستوى
البيانى التعبيرى الجاحظى — من هذه المستويات السابقة كلها ؟

اننا — والحق يقال — لتعلو وجوهنا الدهشة الكاملة ، وربما « تجحطه
عيوننا أيضا . . عندما نتأكد من أنه كان للرجل ذلك الموقع الفريد الذى يقفه
— بلغته وأساليب كتابته — من هذه النوعية السابقة فى مجموعها . . والذى
أزعم أنه لم يشاركه فيه كاتب آخر فى عصره ، و فى مجتمع العباسيين من
جانب ، ومن جانب آخر نجد أن هذا الموقع الفريد من هذه المستويات تقترب
به تماما من مواقع « الكتاب الصحفيين » الذين نقرأ لهم الآن . . ولكن كيف؟

● فى البداية نقول أن الرجل قد حطم سببه قاعدة تاريخية أدبية ،
أو من قواعد التاريخ الأدبى ، أو تاريخ التحرير ، يعترف بها عدد كبير من
الكتاب ، هذه القاعدة هى التى عبر عنها الرائد السابق نفسه بقوله ؛
« . . ولعلنا حين نمعن النظر فى تاريخ الكتابة الفنية ، فى أية أمة من الأمم
نجد انها تمر بالمستوى الأدبى أولا ، فالمستوى العلمى ثانيا ، فالمستوى
الصحفى فى نهاية الأمر . . . فى الأول تكون الكتابة ذاتية ، لأنها أدبية ،
وفى الثانى تكون الكتابة موضوعية لأنها علمية ، وفى الثالث تكون الكتابة
عملية لأنها صحفية » (٤) .

« ويضيف الرائد قائلا . . حدث هذا فى أوروبا ، فظهرت الكتابة

الذاتية عند الكاتب الفرنسي مونتاني ١٥٣٣ - ١٥٩٢ ، ثم ظهرت المقالة الموضوعية عند الكاتب الامجايرى بيكون ١٥٦١ - ١٦٣٦ ، وأخيرا ظهرت المقالة الصحفية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة على ايدى كتاب كثيرين ، مثل الكاتب الانجليزى « ديفو » و « ستيبل » وغيره من كتاب القرن الثامن عشر الذين أدركوا الفرق بين هذه المستويات الثلاثة التى تحدثنا عنها (٥) .

كانت هذه هى المقولات التى تمثل شبه القاعدة التى حطمها الرجل .. اما عن السبب فى ذلك ، وكيفية وقوعه ، فببساطة شديدة نقول أن كتابات الرجل قد قدمت هذه المستويات الثلاثة معا ، الأدبى والعلمى والعملية ، وأنها وسعتها جميعها ، ومرت بها كلها ، والدليل على ذلك ، ما ذكرنا من مثيلات هذه الكتابات ، فهل يعنى ذلك أن الرجل كان « محررا » أو « كاتبا » أو أدبيا ، لكل العصور ؟ أو - على الأقل - لهذه العصور المتنوعة التى شاهدهت تلك المراحل الثلاث ، التى مرت بها عدة أمم ، فى تاريخها الأدبى ؟

● وفى ظل هذه المقولة أيضا ، ومن خلال هذه الزاوية الزمنية نفسها ، نجد أن دهشتنا لتزايد أكثر عندما نعرف أن هذا الكاتب العربى ، قد تناول هذه المستويات التعبيرية الأسلوبية الثلاثة خلال بعض كتبه ، بل خلال كتاب واحد من كتبه فقط ، مثل تلك التى أشرنا اليها .. بل انه يمكننا القول ، أن بعض رسائله أيضا ، وليست كتبه فقط من تلك التى أشرنا اليها عند حديثنا عن « مقالات التخصص العام » أو « المقالات الموضوعية » ومع ما فيها من اقتراب شديد من بعض التحقيقات الصحفية العامة المتخصصة هذه أيضا - وبعضها لم يتعد الخمسين صفحة أحيانا - كان يجمع بين هذه المستويات ، جمعا ذكيا لكاتب يستطيع ويقدر وله أقلامه المتعددة ولا أقول قلمه الواحد ، تلك التى يملك ناصيتها كلها ..

● وإذا كان ذلك كله ، يؤكد ما أشرنا اليه سابقا ، من جوانب موسوعية الرجل وشمولية فكره ، الرجل المكون من عدة رجال ، الأديب صاحب الاهتمام الكبير بالتاريخ والعلوم والفلسفة واللغويات والأخبار والمادة الأخرى التى وجدناها تقترب فى أحيان كثيرة من أنماط التحرير الصحفى المعاصرة ، فانه - بالتالى - يؤكد أن الرجل قد عرف وخبر وكتب بكل هذه المستويات التعبيرية ، وأن تلك المعرفة كانت نتيجة طبيعية ومنطقية لهذه الاهتمامات كلها . ومن ثم ، فقد جمع بينها ، وكان من بين مستويات تعبيره ، هذا

- ٢٠٢ -

المستوى الذى تقدمه له خلال هذه الفقرة ٠٠ المستوى العملى ، أو الصحفى ٠٠
كما نقول الآن ٠٠

ثانيا - عن الاسلوب الصحفى

٠٠ ثم ماذا ؟

كان ذلك عن الأسلوب من حيث هو ، وعن مستويات التعبير الكتابى ،
فماذا عن الأسلوب الصحفى نفسه ؟ أو عن هذا المستوى الأخير « العملى »
ذاته ؟ وأين يقف الجاحظ - بكتاباته المتعددة - منه أيضا ؟

اننا نقترّب فى هذه الفقرة ، من ذلك كله ، فنترقب فى البداية عن بعض
الأقوال التى تتصل بهذين الجانبين ، من تلك التى وردت بعدة كتب ، مباشرة
أو غير مباشرة ثم نحاول - معا - أن نحدد موقع الكتابات الجاحظية منها ٠٠
ترى ، ما هى أهم هذه الأقوال ؟

● ان عددا من المؤلفين ، قد ذكر قول أبى الصحافة الحديثة
- داتيل ديقو - ذلك الذى يقول فيه : « اذا سألنى سائل عن الأسلوب قلت
انه الذى اذا تحدثت به الى خمسة آلاف شخص ممن يختلفون اختلافا عظيما
فى قدراتهم العقلية - باستثناء البله والمجانين - فانه جميعا يفهمون
ما أقول » (٦) .

● وكان الاستاذ الدكتور « محمود عزمى » يردد على طلاب معهد
الصحافة قوله : « الأسلوب الصحفى هو أكثر أساليب الكتابة تعبيرا وأقربها
الى عقول الناس كما أنه أقصرها وأوضحها كلمات ، ويمكن أن نضيف الى
ذلك دلالاته المتعددة » .

● ويتحدث أحد الباحثين عن هذا الأسلوب من أكثر من زاوية ننقل
هنا بعض كلماته عنها : « يسمى بعض أساتذة الأدب العربى الحديث لغة
الصحافة بالنثر العملى للتمييز بينها وبين النثر الفنى والنثر العادى - ليس
معنى هذا أن محرر الصحافة يستلزم اتباع أسلوب النثر العملى فحسب ،
ذلك لأن الصحف والمجلات تتناول موضوعات مختلفة ، ومنها قصص

اخبارية ، ومنها موضوعات أدبية ونقدية وفنية الى غير ذلك فليس معنى أن لغة الصحافة هي النثر العملي أن الصحف لا تهتم الا بهذا اللون من النثر ، فاذا كان الموضوع موضوعا أدبيا صرفا فان مجال النقد أو التعليق ينبغي أن يكون بلغة أدبية لا صحفية — طبيعة النثر العملي طبيعة سهلة للغاية تنساب في غير تكليف ولا تعقيد ، ولكنها في الوقت نفسه تسمو على الأسلوب الدارج فهي تتخذ لنفسها طريقا وسطا بين الأسلوب الأدبي الرفيع وبين الأسلوب الدارج من الناس « (٧) »

•• وبعد أن يعدد أسباب ذلك وأهمها سرعة إيقاع العصر وما يترتب عليها ، راح الباحث نفسه يعدد مميزات الأسلوب الصحفي على النحو الذي ذكره كثيرون قبله ، وكانت هي : « السهولة والعذوبة والجمال القصيرة والألفاظ المعربة والأكثر استعمالا من الألفاظ العربية — لنا تحفظ على ذلك — واستخدام الألفاظ المستحدثة والابتعاد عن الجمل الاعتراضية » (٨) •

● •• وقد تناولت باحثة أخرى الموضوع من أكثر من زاوية غلب عليها الطابع غير المباشر ، كما جاء حديثها عن الأسلوب الصحفي عرضا ، أكثر من مرة ، وكان من بين ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

— ففي تعريفها لفن التحرير الصحفي نقرأ قولها : « انه فن تحويل الأحداث والافكار والخبرات والقضايا الانسانية ومظاهر الكون والحياة ، الى مادة صحفية مطبوعة ومفهومة سواء عند صاحب الثقافة العالية والذكاء الخارج ، وصاحب الثقافة المتوسطة والذكاء العادي ، وعند رجل الشارع الذي يقرأ ليفهم ويعرف » (٩) •

— وفي مكان آخر ، ولو أن الحديث يتناول الصحافة المدرسية في المرحلة الثانوية ، وقارئها يمثل قطاعا هاما من قراء الصحف والمجلات عامة ، تقول الباحثة نفسها : « واذا أردنا أن نحدد أسلوب التحرير هنا فانه يكون مباشرا وفي صيغة سهلة وطبيعية بلا ارتكازه على رموز بالمررة — استخدام الأسلوب الصحفي الذي يتضمن لغة سهلة مفهومة مزاج بين لغة التخاطب بين الجماهير ولغة العلماء والمتفنيين ، وتختار الكلمة التي تعبر عن المعنى المقصود بلا ازدواج في المعنى ، والتقليل بقدر الامكان من التورية في المعنى واللفظ » (١٠) •

— ٢٠٤ —

● ٠٠ وبالمثل يتحدث ياحث وناقد أدبي وصحفي آخر ، بأسلوب مباشر أحيانا وغير مباشر في أحيان أخرى ، مما يزيد من اقترابنا من الموضوع نفسه ، انه يقول مثلا ضمن أقوال عديدة بعد أن توفر على دراسة هذا الجانب المهم :

— ٠٠ « وإذا كانت لغة الصحافة تحرص على مراعاة القواعد اللغوية المصطلح عليها ، فانها تحاول كذلك أن تحرص على خصائص أخرى للاسلوب لم ينكرها المجمعون وحراس اللغة من بساطة وإيجاز ووضوح ونفاذ مباشر وتأكيد وأصالة وجلاء واختصار » (١١) .

— ٠٠٠ « ذلك أن لغة الفن الصحفي لا تهدف الى افساد حاسة الجمال لدى القراء ، بل العكس من ذلك تتضمن اتصالا ناجحا أساسه الوضوح والسهولة » (١٢) .

— ٠٠٠٠ « ذلك أن لغة الصحافة هي لغة الوضوح والدقة والبيان والسرعة ، يصطلح عليها العلماء والأدباء والصحفيون فتكون فاسما مشتركا بين لغة العلم ولغة الأدب ، وتكون عاملا من عوامل التقريب بين مستويات التعبير المختلفة — لم تحرمهم المجمع حق وضع المصطلح ، ولم تعترض سبيلهم وانما ذهبت هذه المجمع الى أن استعمال لغة الصحافة أقرب الى أصول اللغة وأشيعة بين الباحثين ، وأن يتخذ منه لغة موحدة في العالم العربي بأسره » (١٣) .

ويطول بنا المجال ، ويمتد حبل الكلام ، ان نحن استغرقنا فيه لأكثر من ذلك فحسبنا ما ذكرنا ليتبقى من هذه الأقوال وغيرها تلك العناصر العديدة التي يتميز بها الأسلوب الصحفي بصفة عامة ، والتي نجل أهمها أو أبرزها فقط في الآتي .

١ — صحة اللغة وسلامتها نحوا .

٢ — الاثارة الحثيثة والفكرية والتفكيرية (تدعو الى التفكير) في اغلب الأحوال دون اغفال كامل وتام للاثارة العاطفية أحيانا لاسيما في الموضوعات الانسانية وبعض أنواع المقالات والمقدمات والنهايات .

٢٠١٥ - ٢٠١٥

- ٣ - الوصف الحى والواقعى واختيار الألفاظ الأكثر تعبيراً عنه .
- ٤ - الألفاظ الواضحة ، السهلة ، المشرقة .
- ٥ - الاهتمام بالمعنى واللفظ معا ، مع عناية خاصة بالمعنى .
- ٦ - استخدام بعض المفردات الشائعة التى يتداولها الناس والتى تجرى على الألسن ، مولدة أو مترجمة أو اصطلاحية ، مما يعكس التطور نفسه .
- ٧ - البعد عن الرمز والألفاظ الوحشية والغريبة .
- ٨ - الموضوعية أولاً ، وبعض أنماطه تجمع بين الموضوعية والذاتية .
- ٩ - اهتمام قليل جداً بالمحسنات البديعية واللفظية ، وإنما جوانب الجمال هنا تأتى من البساطة والوضوح ودقة وصدق واقعية التعبير .
- ١٠ - الجمل والعبارات والفقر القصيرة المتماكة بشكل عام وفى أغلب الأحوال .
- ١١ - البعد عن التكرار والاطالة واستخدام المترادفات ، الا لضرورة ، ومع اختلاف فى الألفاظ .
- ١٢ - الترجمة الصادقة للمضمون الثرى بالوقائع والتفصيلات والمعلومات والعمل على توصيله للجمهور كاملاً ومفهوماً .
- ١٣ - دعم الرؤية الموضوعية للواقع وصناعه وإبطاله وصوره ونتائجه، باستثناء القليل الذى يدخل ضمن دائرة « الأدب الصحفى » .
- ١٤ - عدم تضمينه الشعر بأنواعه أو الحكم أو الأمثال ، الا لضرورة، أو بالنسبة لبعض الفنون - بعض المقالات هنا - ودون أسراف فى ذلك .
- ١٥ - استخدام التراكييب الحديثة المستساغة للجمهور القارئ ، والتى أضيفت الى القاموس الصحفى .

- ٢٠٦ -

١٦ - استخدام اللغة المناسبة والأسلوب المناسب ، للمادة المناسبة ،
التي تتوجه بدورها الى القارئ المناسب ، ومن هنا اختلفت الأساليب من
صحيفة الى مجلة ومن صحيفة الى صحيفة ، ومن صفحة الى صفحة ، ومن
محرر الى محرر ، بل قد يختلف الأسلوب بالنسبة لصفحة واحدة من ركن
الى آخر ، بل وبالنسبة للمحرر الواحد عندما يتعرض - مثل بعضهم -
لكتابة أكثر من موضوع أو مادة مختلفة ، على الرغم من أنها - جميعها -
تعتبر من الأنماط الصحفية .

١٧ - الشخصيات التي يتناولها لا يمكن أن تكون خيالا ، الا في القليل
النادر من مادة مقالية ، وليست كل المقالات أيضا .

١٨ - لا يهدف الى تأثير جمالى أو معنوى ، وانما الى الفهم
والاستيعاب وتوصيل ما يريد المحرر ، والتأثير هنا يكون فى الرأى العام ،
من أجل التعريف والتثقيف والتعليم والتنمية والقيادة نحو صالح الفرد
والمجتمع والانسانية .

١٩ - التوصيل الى جميع الأفراد والأعمار والأجناس والمستويات
القارئة وغير القارئة أحيانا .

٢٠ - الأمانة فى تسجيل الواقع ، والدقة فى نقل مشاهدته وصوره ،
والمسئولية الاجتماعية الكاملة فى تفسيره وتحليله والخروج من ذلك بالنتائج
المهمة .

ثالثا : الجاحظ والأسلوب الصحفى

كانت هذه هى بعض المعالم البارزة ، والعناصر المهمة ، فى هذا النوع
من أنواع الأساليب التعبيرية العربية ، ولا أقول انها كلها أو جميعها .
لنتبقى بعد ذلك ، هذه الوقفة من جانبنا ، لنرى أين يقف الجاحظ من هذه
المعالم والعناصر وغيرها وما هو موقع « الأسلوب الجاحظى » ، بل والبلاغة
الجاحظية بصفة عامة ، من هذا الذى نعتبره جزءا أساسيا من معالم
الصحافة الحديثة ؟

لننا قبل الحديث عن ذلك كله ، انما ننهي الى عدد من الأمور الأساسية المتصلة بهذا الجانب - جانب الأسلوب الصحفي - من ناحية ، وبالرجل نفسه من ناحية أخرى ، ومن هنا نقول :

الأمر الأول : أن هناك كما شهدنا خلال هذه القائمة ، وكذا خلال بعض التناولات السابقة أيضا ، أن هذا الأسلوب الصحفي يأخذ كثيرا من معالم المستوى الأدبي نفسه ، فليس معنى فصلنا - نحن وغيرنا - بينهما ، أن هذا الفصل يكون تاما وكاملا ودقيقا وأن الصحفي يقف في جزيرة معزولة ، وبعيدة كل البعد عن جميع معالم ومواطن الجمال في الأول ، ان المستوى الأدبي هو الأصل والأساس ، وأن المستوى الصحفي قد تولد عنه ، وتقرع منه ، ومن ثم فقد تربى بحجره ونشأ بين أحضانته حتى انفصل على صفحات بعض ألوان النتاج الفكري في طريق النتاج الصحفي ، ولكن حتى هذا الانفصال لم يكن مرة واحدة ، ولا كان كاملا ، بل انني أرى أنه لم يكتمل تماما حتى اليوم ٠٠ ومثل ذلك يقال عن « بلاغة الاعلام » وصلتها بالبلاغة بمعناها الشامل .

وإذا كان من حق الرجل القول بأن صفحات كتبه ورسائله ، كانت هي من أول ما شهد هذا الامتزاج العضوي بين الأسلوبين ، على الرغم من عدم معرفة الصحافة بمعناها الحديث أو المطبوعة فائنا نقول أن بعض المصاحف والعناصر ، ما تزال شاهدة على هذا التواء ، وعلى هذا الشبه القائم بين الأسلوبين ، خاصة عند بعض كتاب عدد من أنواع المقالات (الخواطر والتأملات - الأعمدة الإنسانية - المقالات الوصفية والنقدية - اليوميات - المقالات الكاريكاتيرية) ٠٠ وكذا بالنسبة لبعض الوحدات التحريرية للتحقيقات والتقارير والقصص والمجريات . خاصة العنوانات والمقدمات والنهايات ٠٠ حتى الصور المصاحبة لهذه ، فقد قيل عنها أيضا أنها « أدب بصرى » ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، وفي عدد من مؤلفاتنا السابقة .

الأمر الثاني : ويستتبع ذلك - بالضرورة - أن تكون هناك بعض المعالم والعناصر المشتركة بين المستويين والأسلوبين معا ، وهي تتصل أولا بعدد من معالم الواقعية ، ومواطن الجمال الملائمة واستخدام التعبير المناسب للمادة المناسبة وهو « المثلث » الذي أعتقد أن « الجاحظ » قد نفذ من بينه بكتابته ، الى الاقتراب من جانب الأسلوب الصحفي ، وكانت هذه العناصر

الثلاثة ، وما يتصل بها أو يتفرع عنها- هي المجال الذي شهد وقوع هذه العلاقة بين لغة الرجل وبين أسلوبه. وبين ما نطالعه اليوم على الصفحات ، خاصة صفحات المجلات والمادة « المجلدية » قبل-غيرها. وذلك التي جانب خصائص أخرى عديدة شهدت اقترابا من نوع آخر ٠٠ بين الأسلوبين الصحفي العام ، وأسلوب الجاحظ .

الأمر الثالث : أنه حتى بالنسبة للمستوى الصحفي أو العملي ، فإن هناك الجديد الذي قلناه بشئنه ، إذ ليس من المعقول وقد تعددت الفنون والاطر والأساليب بل وتعددت الوسائل الصحفية نفسها والقراء أيضا ، أن يكون هناك ذلك المستوى التعبيري الصحفي الواحد ٠٠ وإنما اتضح لنا من خلال دراسة سابقة ، تعتمد النظرية والتطبيق فوق الصفحات المطبوعة ، أن هذا الأسلوب الصحفي نفسه يتفرع الى :

● **المستوى الصحفي الاخباري البحث :** للاخبار الصغيرة والمتوسطة والكبيرة .

● **المستوى الصحفي التسجيلي :** بكل دقته وموضوعيته وكون الفاظه على قدر معانيه - مثل المستوى السابق - وذلك للقصص والموضوعات والتقارير الاخبارية وما يتفرع عنها .

● **المستوى الصحفي التفسيري :** لبعض أساليب تحرير بعض المقالات والتقارير الحديثة والمقالات الافتتاحية ومقالات التعليق والتفسيرية والقائدة الموقعة .

● **المستوى الصحفي الوصفي :** لاسيما في بعض القصص والتقارير والتحقيقات والمقالات وهو يأخذ كثيرا من جانب المستوى الأدبي .

● **المستوى الصحفي التأديب :** للفنون والأنماط والوجدات التحريرية التي تحتاج الى قدر من الجمال والذوق الأدبي ، وقد أشرنا اليها أكثر من مرة .

● **المستوى الصحفي العلمي :** لبعض جوانب « التخصص العام » بمقالاته ودراساته .

● **المستوى الصحفي العام :** وهو يجمع بين أكثر من معلم من المعالم

السابقة ونراه فى ألوان الكتابات القياسية كبيرة الحجم فى الغالب كالتحقيقات والدراسات والحمولات والمقالات العامة والموضوعية والتحليلية (١٤) ٠٠٠

ترى ٠٠ أين يقف الرجل من هذه المستويات الفرعية كلها ؟ وقبلها ، وأكثر منها : أين يقف من هذه الطائفة من خصائص الأسلوب الصحفى نفسه ؟ اننا نتناول ذلك كله ، من خلال النقاط التالية ، ومن أكثر من زاوية أيضا :

١ - فبداية نقول ، أنه لم يكن من المعقول أن تأخذ كتابات الرجل كلها هذا الطابع ، وأن تتصف بمثل هذا الأسلوب ، ولا نستطيع أن نزع ذلك ، لأننا - على الأقل - لم نحصرها وندرسها كلها ، ولأنها أيضا تقع ضمن الدائرة الأدبية وتتضح صلاتها الكبيرة بها من جميع الزوايا ، وبإستخدام مختلف المقاييس ٠٠ انما الذى نستطيع أن نقوله ، أنه وكما توجد هذه الكتابات ذات المستوى والأسلوب الأدبى البحث أو الكامل ، توجد أيضا هذه التى تقف - بلغتها وأسلوب كتابتها - بالمقرب من لغة وأساليب الصحافة الحديثة ، وبعضها يقترب منها اقترابا شديدا ، لغة وأسلوبا أيضا .

٢ - ولسنا هنا فى مجال تصنيف وفهرسة وتقسيم لكتابات الرجل ، لكننا نقول ، من واقع مادته الموجودة فوق الصفحات نفسها أن الاقتراب من لغة الصحافة عند الجاحظ ، وأن الابتعاد عنها ، كان يفرضه الموضوع نفسه - ككل كاتب صحفى آخر - وكان هو الذى يوجهه نحو تلك العناصر والملاحق التى عدت أدبية كاملة أحيانا ، ولكنها فى أحيان أخرى مما يمكن اعتباره ضربا من الكتابة الصحفية ٠٠ وعموما - وقد كان الرجل موسوعيا ويمك أن يكتب ويغير ويجدد وينوع - فنحن نستطيع أن نقول ، مما تظهره الصفحات نفسها أن أكثر ألوان كتاباته التى شهدت مثل هذا الأسلوب القريب من الأسلوب الصحفى كانت هى الكتابات الاخبارية والاجتماعية الواقعية والفكاهية والنقدية أولا ، وكانت هى الكتابات التاريخية ثانيا ، وكانت هى الكتابات السياسية ثالثا ، وكانت هى الكتابات العلمية فى المحل الرابع ٠٠ بحيث نستطيع توزيع هذه كلها على مختلف ألوان الأسلوب الصحفى أو نوعياته التى أشرنا إليها فى السطور القليلة السابقة .

٣ - فاذا نظرنا الى القائمة السابقة نفسها ، وحاولنا التقريب بينها (الجاحظ)

وبين جوانب الأسلوب الجاحظي التي كانت نسيج هذه الموضوعات ،
وانكشافات لوجدنا أن أكثر ما تأخذه من هذه الخصائص ، أو تكون أقربها
اليها :

● صحة اللغة وسلامتها نحواً ، ومن الذى يمكنه أن يقول بغير
ذلك ؟ بل لعل مثلى ، وغيرى ممن هم أكثر منى قدرة ومعرفة بهذا الجانب ،
لا يستطيع - أيهم - أن يقول بغيره ، ومن ثم فهذا الجانب قد يكون مجال
أخذ ورد عند كبار علماء اللغة ، ولكن - على الأقل - ليس عندي ، أو ليس
بالنسبة لتوجهات وامكانيات هذا البحث نفسه ، بل انه ليعتبر من قبيل
البديهيات .

● الوصف الحى الواقعى لما شهده أو سمعه أو قيل أو روى له
خاصة عندما كان يصف أحوال الناس والفئات والطبقات الاجتماعية الموجودة
فى مجتمعه ، وما يتصل بها من صور ومشاهد بعضها ايجابى ، وبعضها
الآخر سلبى ، جميعها واقعية لا خيالية وليست كذلك من بنات أفكاره .

● الاختيار الصحيح والكامل لنوعية اللغة ومستوى الأسلوب
وما يتصل بهما من ألفاظ ومفردات ، تصلح قبل غيرها للتعبير عن مادة معينة
أو مضمون دون آخر وكأنه بذلك كله كان يعرف أو يتوقع أو يستشف من هم
الذين سيقبلون على قراءة المادة ، أو الأخرى ، أو الثالثة .

● وقد ترتب على ذلك أن يكون لكل كتابة ما يتصل بها اتصالاً
وثيقاً ، ولكل موضوع ما يرتبط به قبل ارتباطه بغيره ، وفى سبيل ذلك ، فإن
الرجل قد توصل الى نوع من المعرفة والادراك ليس لمستويات التعبير الأدبى
فقط ، وانما لمستويات التعبير الموضوعى ، أو الاجتماعى ، أو العملى تلك
التي تساوى عندها وتعبّر عن مستويات التعبير الصحفى نفسها ، والسابقة
الإشارة اليها .

ان كتاباته الاخبارية ، غير اللغوية ، غير التاريخية ، غير الفكاهية ،
لكل منها ملامحها المتصلة بمادتها ، دون أن تترك تماماً « الساحة الجاحظية »
وانما كانت ترتبط بالخصائص الجاحظية عامة ، أو يشدها الرجل اليها بحبل
متين من هذه الخصائص نفسها .

- ٢١١ -

أى أننا - فى واقع الأمر - نجد أن للرجل طريقتين لا طريقة واحدة ، وأسلوبين لا أسلوبا واحدا ، فهناك الخصائص العامة الشائعة للكتابات الجاحظية فى مجموعها ، تلك التى نتناولها الآن ، وهناك أيضا تلك التى تتفرع عنها ، والتى تتصل برؤيته لكل فن من الفنون على حدة ، والتى ترتبط بهذا الفن ارتباطا شديدا وقد ألمحنا الى هذه الخصائص وتوقفنا عندها خلال الصفحات السابقة ٠٠

● أن تكون كتابته محلاة أو مزدانة بذلك القدر البسيط والسهل ، غير المبالغ فيه ٠ أو المعقد من أساليب الجمال ، أو ما يطلق عليه رجال البلاغة ٠٠ من « الصنعة الزخرفية » ٠٠ فهو لم يسرف فى تقديم المحسنات البديعية أو اللفظية ، ولم يحاول - مثل من سبقه - أن يجهد نفسه من ورائها ، أو أن يكون الشكل هنا فى المحل الأول تماما ٠٠ شأنه فى ذلك شأن كل كاتب ومحرر يحرص على أن يقدم ما يفهم ، وما هو سهل الوصول الى فكر القارئ

● الحرص على جوانب الاثارة الحديثة والفكرية ، وذلك انطلاقا من أنه كان رجل الاعتزال والفكر والجدل ، ومن هنا فان القارئ لبعض كتاباته الدينية والفلسفية والجدلية ليلمح فيها تلك الملامح العديدة التى يعرفها كتاب المقالات التحليلية ، من تلك التى تثير قضايا ومناقشات عديدة وهامة ٠٠ أن أسلوبه هو أسلوب ذلك الرجل الباحث عن الحقيقة ، الساعى وراء الفكر وله ٠

● وكثير من كتابات الرجل - ولا أقول كلها - يمكن لتلميذ الثانوى من المستوى العادى أن يطالعها ، وباستثناء بعض الكتابات الفلسفية والجدلية ، فانه تسهل قراءة ومتابعة وتفهم معظم هذه الكتابات ، وما ذلك الا لأنه أحسن اختيار اللفظ السهل والمفرد الواضح ، وبعد - قدر الطاقة - عن الغريب الوحشى ، وهاجمه وتندر به ، ومن العجيب أن يثير ذلك حفيظة نقاده وضغينة حاسديه ، حيث عدوا ذلك عليه لا له ، وما علموا أن الرجل قد سبقهم بعدة مراحل ، حيث توصل الى معرفة ما يقبل عليه الناس ، ويظل هكذا حتى اليوم ٠٠ ليكون الأقرب الى لغة الصحافة ، ونثرها ٠

● وبالمثل ، وفى أكثر الأحوال ، فان الرجل راح يبعد عن الرمز ،

- ٢١٢ -

ولم يستبد به الاغراق فيه قدر طاقته ، فمادته كتاب مفتوح ، ويبدو أنه فهم أن خير الأساليب هو ما يوصل الى المعنى من أقصر الطرق وأسهلها أيضا ، وأقربها الى الأفهام والأسماع ، فكان له ما أراد ٠٠ أوليس ذلك كله ، من معالم أسلوب صحافة اليوم ؟

● مساعدة القارئ على المتابعة ، وتسهيل عملية القراءة عليه .
فعندما يحس أن مادته من النوع الجاف يعمد الى تبسيطها ، أو يعرج على بعض الطرائف المتصلة بها ، وعندما يحس أن الموضوع بات طويلا دلف الى جانب آخر وحاول اللجوء الى فكرة مماثلة ، أو قدم بعض ما يعتبر «محطات» للقارئ ، أو عمد الى خفة الظل ٠٠ أو الى غير ذلك مما يمكن أن يعيبه عليه المؤلفون ، أو الباحثون ، لكن ذلك كان لهدف عنده ، وكان الهدف هو الترويج عن القارئ ليدفعه الى مزيد من القراءة ٠٠ والا فلماذا كان يكتب ؟

٤ - وأما عن هذه المستويات الفرعية للأسلوب الصحفي نفسه ، والتي أشرنا اليها ، فأننا نقول أن الرجل فهمها تماما ، ضمن فهمه أن لكل مقام مقال ، ولكل موضوع تفكيره الخاص وتعبيره الخاص أيضا ، ومن هنا كان بعض الاختلاف الوارد في كتابته ، من موضوع الى موضوع ، ومن مادة الى مادة ، ومن فكرة الى فكرة ٠٠ حتى أنه راح يعمد أحيانا الى بعض الألفاظ غير العربية ، من تلك التي ترجمت وبدأ الناس استخدامها وأصبحت شائعة تجرى على ألسنتهم ، كما استخدم أحيانا بعض الألفاظ العامية ٠٠ وإذا كان رجال اللغة والأدب يقولون عن ذلك أنه استخدمها لأنها «يفت لحظتها» أو «مراعاة لمقتضى الحال» فأننا نقول هنا ، أن ذلك مما يساعد على الاقتراب بين أسلوبه من جانب ، وبين الأسلوب الصحفي من جانب آخر ٠٠

٥ - وإذا كنا في مجال ودروس فن التحرير الصحفي ، نركز ضمن ما نركز عليه على أربعة جوانب أو عناصر أساسية ، نفصل القول فيها تفصيلا ، ونعتمد الى الاهتمام بزواياها ، وأبعادها المختلفة ٠٠ عند دراستنا التطبيقية لها كما تبدو خلال أسلوب تحريرى لفن من الفنون ، أو نمط من الأنماط ، أو لمحرر هذا الفن أو كاتبه ، فأننا نفعل الطريقة نفسها مع هذه العناصر عند الرجل ومن هنا نقول ٠٠

● أما عن العنصر الأول فهو : الحرف : وباستقراء عدد من كتابات

- ٢١٣ -

الجاحظ مما قدمنا خلال السطور السابقة أو لم نقدم ، فاننا نجد أن الطابع الغالب على حروف كلمات الجاحظ والفاظه ، كثيرا ما يقترب به من هذا الأسلوب الصحفي ، ومن بينها على سبيل المثال :

— أن حروفه كانت فى كثير من الأحوال تتميز بتعبيرها الصادق عن المعنى الذى تشير اليه الكلمة التى تتكون منها .

— أن أثرها النفسى كان يعمل عمله ، وكان من السهل على القارئ الفاهم والتمكن أن يضع يمه عليه .

— أن مجمل حروف كلماته فى معظمها كان يقع بين الثلاثة حروف والخمسة حروف ، وهى النسبة الأنموذجية لعدد حروف الكلمة « الاتصالية » السليمة التى تتسلل الى الأسماع والأفهام فى سهولة ويسر ، بل وكلما كان عدد حروفها أقل — وهو ما رأيناه عنده — كان ذلك أقرب الى قراءتها وفهمها

— أنه لم يشق على الأذان والاقهام بتلك الحروف الفخمة الضخمة التى تكررت عند آخرين من الكتاب — الا لغرض واضح — وحتى فى حالة ذلك فقد كان الرجل يبتعد عنها قدر الطاقة .

— أنه كان يحافظ على الجرس الموسيقى للحرف ، دون اسراف فى ذلك ، ودون تعمد له ، وكانت الموسيقى هذه من النوع الهادئ لا الصاخب ، من النوع الذى يذكر بالقطع المتميزة من السيمفونيات التى تحكى مسرى النسيم وخريف المياه وتغريد البلابل ، وليست موسيقى « الجاز » الصاخبة ذات الجلبة والضجيج . وقد ظهر ذلك واضحا فى مقالاته ذات الصلة الوثيقة بالأدب الصحفى . وقد يسأل سائل هنا . هل يدخل هذا الجرس ضمن الأسلوب الصحفى ، وأقول فى أحوال قليلة ، عندما يوجد من يقدر عليه ، خاصة فى مجالات الأعمدة الانسانية واليوميات ، وعنوانات ومقدمات ونهايات بعض فنون التحرير . أقول فى أحوال قليلة ، وبالنسبة لبعض الفنانين ، وبعض الوحدات التحريرية .

ثم ان هذه الجرس هنا لم يك « صناعيا » أو « مفتعلا » بحيث يحرص

الرجل عليه كل الحرص ، وإنما كانت موسيقى حروفه ومن ثم كلماته تأتي من فورها ، وبدون افتعال أو « فبركة » كما نقول نحن أرباب مهنة الصحافة

— أن حروفه المكونة لكلماته كانت فى كثير من الأحوال خالية من التكرار على مستوى الكلمة الواحدة ، والعبارة ، والفقرة أيضا ، فالحروف لا تتكرر الا قليلا ، وبالمثل كان الحال بالنسبة للحروف القريبة منها ، أو الشبيهة بها باستثناء ما يتكرر لغرض من الأغراض .

— وبالمثل فقد خلت الكلمات والجمل كثيرا من الحروف المتضادة ، التى تشق على القارئ والمستمع ، والتى نحذر طلاب التحرير الصحفى منها ، خاصة عند كتابة العناوانات والمقدمات بأنواعها .

● وأما عن العنصر الثانى وتمثله هنا « الكلمات » أو « الألفاظ » ، تلك التى تبنى على العنصر السابق — الحروف — بحيث تمثل كل كلمة « مركبا » من عدد من الحروف ، فأننا نلاحظ على « اللفظ الجاحظى » اقترابه من « اللفظ الصحفى » فى وجوه كثيرة ، تضاف الى ما سبق أن أشرنا اليه منها ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر : « بدون ترتيب » .

« الوضوح والبساطة — حسن اختيار اللفظ المعبر عن المادة أو الموضوع — وضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب — عدم تكرار حرف واحد ، أو حروف متشابهة أو متضادة فى الكلمة الواحدة ومن ثم فى العبارة الواحدة — الثراء الكبير والمتعدد للمعجم اللفظى الجاحظى والذى يندر أن تجد مثله عند كاتب آخر — التفاعل والتجاوب الكامل بين الكلمة وغيرها من الكلمات المكونة للجملة — دقة اللفظ المنتقى بعناية للتعبير عن المعنى المقصود — عدم الحاجة الى الاستعانة بالقواميس والمعاجم من أجل التعرف على معنى لفظ أو آخر — القدرة على التمييز بين المترادفات — الاهتمام بدلالة اللفظ أولا — عدم استخدام الكلمات القلقة أو غير محددة المعنى تماما — استخدام الكلمات الشائعة على الألسن وعلى الصفحات أولا — استخدام بعض الألفاظ الأعجمية أو المترجمة أو العامية فى أحوال قليلة ، اذا كانت متداولة بين الناس — البعد عن الكلمات غير المحددة المعانى تماما أو تلك التى تمثل رموزا غير محددة المعانى أو تختلف معانيها من شخص لآخر — استخدام الألفاظ صحيحة الاشتقاق » .

الى غير ذلك كله ، واذا كان البعض قد أخذ عليه عسدا من هذه الخصائص وعدها دخيلة على الطابع السائد فى عصره ، وبعبارة عما اصطلح عليه الفصحاء فى كتبهم ومؤلفاتهم ، بل ومما أنكره عرب البادية أحيانا ، وذلك على الرغم من اعتراف البعض بقدرته ٠٠ أنظر مثلا الى قول أحدهم : « قال أبو حيان ، قلت لأبى محمد الأندلسى ، يعنى عبد الله بن حمود الزيدى ، ما قولك فى الجاحظ والدينورى ٠٠ قال : أبو حنيفة الدينورى أكثر ندرة وأبى عثمان أكثر حلاوة ، ومعانى أبى عثمان لاثقة بالنفس سهلة فى السمع ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب » (١٥) .

إذا كان ذلك هو ما يتصل بالفاظ كلمات الرجل ، فانه هو نفسه كان له رأيه فى ذلك ، نعرضه فى نهاية هذا الفصل وعلى أثر تقديم عدد من الأقوال التى تتصل بهذا الموضوع نفسه ٠٠ لقدماء معاصرين له ، أو لحاليين من الأساتذة :

— ان أحد من تناولوه يذكر قول بديع الزمان الهمذانى فى وصف كلامه : « بديع الاشارات ، قريب العبارات قليل الاستعارات منقاد لعريان الكلام — يقصد واضحه — يستعمله ، نفور من معتاصه — يقصد غامضه وغريبه — يهمله فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ، أو لفظة غير مصنوعة » (١٦) ٠٠ ويضيف المؤلف قائلا ومما يقترب به أكثر من الأسلوب الصحفى : « كان همه أن يعبر بوضوح وعفوية بلغة مرنة غنية بالمفردات والمرادفات ، وكان يعنى عناية خاصة باختيار الكلمة التى تستوفى التعبير عن المعنى المقصود ، ولا يستنكف عن استكمال التعابير الواقعية واللهجات العامية وخصوصا فى سرد الحوار ، وما قصده الا احياء صورة تامة عن موصوفاته فى أجوائها المختلفة » (١٧) ٠٠

— ومثل ذلك يقول أحد رواد الدراسات الأدبية : « ٠٠٠ تدقيقه فى الفاظه وانتخابها بحيث تلائم ما يصنعه أو يصوره حتى أنه ليحكى كلام المولدين والعوام بما فيه من لحن وخطأ لينقل اليك الواقع بكل ما فيه ، فهو يحكى دائما أخباره وحوادثه بلغتها الدقيقة ، وأكبر الظن أن هذه النزعة فيه هى التى حملته على أن يلهج فى كتبه ورسائله بفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال » (١٨) .

- ٢١٦ -

٠٠ وماذا يفعل المحررون غير ذلك ؟
ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن « اللفظ الجاحظى » وننتقل الى
عنصر آخر هو :

● **العنصر الثالث وتمثله هنا « العبارة »** تلك التى تمثل هذا المركب
العضوى من عدة كلمات ، أو تمثل تلك المجموعة من الكلمات المترابطة ،
الموجودة الى جوار بعضها ، والتى يكتمل بها التعبير المفيد ، المؤدى الى
الفهم ، والتى يطلق عليها أيضا : « الجملة » ٠٠ ترى ، ما الذى يمكن أن
نقوله عن « العبارة الجاحظية » ؟ وعن الصلة بينها وبين الأسلوب الصحفى ؟

اننا فى الصحافة - وكما قلت فى مؤلفات عديدة - نكتب لنقرأ ،
ليطالعنا الناس. ليفهم هؤلاء ، لكى نصل اليهم ، ويتم التواصل - بدرجته -
بيننا وبين القراء ، وحتى تتم القراءة ، والمتابعة ، ويتم التواصل ونؤدى
دورنا فاننا نصل الى هؤلاء على جسور الحروف المكونة لكلمات ، والكلمات
المكونة للعبارات . والعبارات المكونة للفقار والفقار المكونة للنصوص
التحريرية الصحفية ، أو للرسائل الاتصالية الصحفية التى تأتى فى شكل
خبر أو موضوع أو قصة أو تحقيق أو حديث أو مقال ٠٠ حتى نصل الى
القراء ، وبالتركيز هنا على العبارة فانها لا بد وأن تكون :

- واضحة تماما .
- قصيرة بقدر الامكان .
- ذات نسيج قوى ومتماسك من الكلمات والحروف .
- تنتهى اليها العبارة السابقة عليها ، وتؤدى الى العبارة
التالية لها فى سهولة ويسر .

- لا تتكرر فيها الكلمات والحروف بدون داع .
- كل كلمة من كلماتها تقع فى مكانها الصحيح .
- لا تكون محسوة بالمتراقات .
- ولا الروابط الكثيرة .
- ولا الجمل الاعتراضية ٠٠٠
- التى تقدم معنى مقيدا ، محددا ، وغير قلق .

- ٢١٧ -

- الصادقة والدقيقة التعبير عن المعنى المقصود وتصوير المشهد أو الموقف أو الشخصية .
- القوية التأثير وحدها ، والتي يزداد تأثيرها قوة مع اخواتها من العبارات الأرى .
- غير المقطعة ، أو الممزقة الأوصال .
- ذات الجرس البسيط والمعنوى .
- الخالية من الزخرف ، الا ما ورد عفو خاطر .
- الى غير ذلك كله .

٠٠ تلك هي عباراتنا الصحفية عامة أو التي تصلح للاستخدام على مستوى التحرير الصحفى .٠٠ فهل للعبارات الجاحظية صلة بها ؟ وما هو نوعها ؟

الحق ان استقراء التراث الجاحظى . ليضع يدنا على حقيقة تقول ، أن عباراته أو جملة ، قد تميزت بعدد كبير من هذه الخصائص الصحفية وكان من أبرزها — ونحن نتحدث هنا عن بلاغة صحفية اذا صح التعبير — أقول كان أبرزها خمسا على وجه التحديد ألا وهى :

١ — قصر العبارة وإيجازها خاصة بالنسبة لسادته التى اقتربت من الصحافة ، والتي أشرنا إليها من قبل ، وليس فى جميع الأحوال انطلاقا من أنه « لكل مقام مقال » .

٢ — وقد ترتب على ذلك ، وبمراعاة ثروته اللغوية ومعجم مفرداته الكبير أن جاءت العبارة « قوية الحبك شديدة التماسك » (١٩) .٠٠ لا يسهل اختراقها ، ولا تسقط منها كلمة ما .

٣ — الوضوح الكامل للكلمات أو الحروف ومن ثم للتركيب العبارى كله .

٤ — الخلو من الزخرف الصناعى قدر الاستطاعة . وعدم الحرص عليه وتركه يأتى عفو خاطر .٠٠ ولعل ذلك هو ما عناه د . شوقى ضيف بقوله . « فالكتابة عنده ليست زخرفا خالصا يراد به الوشى والحلى ، وما يندمج فى ذلك من صور وتشبيهات واستعارات ، بل هى معان تؤدى فى دقة تفسر الوقائع والأحداث تفسيراً لا تسترهُ أسجاف الاستعارات والأخيلة » (٢٠) .

— ٢١٨ —

٥ — العناية بأن تكون كل عبارة وحدة واحدة تقدم معنى مفيدا يثير القارئ ويشجعه على المتابعة والانتقال نحو العبارات الأخرى التي تتكون منها الفقرة .

٠٠ وليست هذه فقط هي ما تميزت به العبارة الجاحظية من خصائص فقد كانت هناك المعالم الأخرى التي تأخذ بنصيب من البلاغة بمعناها الأدبي، ومعناها الصحفي معا ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر :

• حسن الربط بين العبارة والعبارة الأخرى — الترتيب المنطقي الجيد للعبارات في مجموعها — التقديم والتأخير للاسماء والأفعال بما يعمل على تقوية العبارة — عدم التكلف أو التحقيد — طرافة التعبير واستخدامها الذكي لكسر حدة جفاف عبارة أو أخرى ٠٠٠ وغيرها ، ٠٠ وهي مالا تقتصر معرفته على الأدباء فقط وإنما الأديب والصحفي معا ، وبالنسبة لأكثر فنون وأنماط التحرير الصحفي .

● وأما عن العنصر الرابع الذي تمثله « الفقرة » ٠٠ فمن الطبيعي، وقد جاءت كل هذه المقدمات ، دقيقة ، وصادقة ، ومختصرة ، ومتماسكة ، وصحيحة ، أن تكون النتيجة من جنس هذه الخصائص كلها ، وإذا كانت النتيجة النهائية تتمثل في « النص » كله ، أو المادة أو الموضوع من أوله الى آخره ، فإن النتيجة الأولية تظهر ضمن إطار الفقرة ، تلك التي ينتهي إليها نسيج العبارات ، وتجمع هي بين أكثر من عبارة ٠٠ وحيث يمكننا أن نضع أيدينا على أكثر من خصيصة واحدة للفقر الجاحظية ، تقترب كثيرا من تلك التي تشترط في « الفقر الصحفي » ٠٠ ومن بينها ، أو من أهمها :

— الطول المناسب للفقرة المناسبة للمادة المناسبة ، فهي تختلف من مادة خبرية الى قصصية الى مقالية مثلا ، مع غلبة طابع الفقرات القصيرة .

— كون كل فقرة عبارة عن وحدة واحدة متماسكة وقائمة بذاتها .

— كون كل فقرة مما تتضمن فكرة واحدة رئيسية ، أو فرعية ، تتناول من زاوية جديدة أو مختلفة .

- ٢١٩ -

— كون فقرات البداية عنده أشد قصرا وتماسكا من فقرات الوسط
فى أغلب الأحوال . .

— وضوح الفقرة فى مجموعها ، وبساطتها وسهولة توجيهها الى
الأذهان .

— أن يكون ارتباطها بالفقرة السابقة عليها أو انفصالها عنها يعود
الى الفكرة ذاتها ، والى المادة نفسها وطبيعتها ، فهى على المستوى الاخبارى ،
غيرها على مستوى القصص والتحقيقات غيرها على مستوى المقالات . كما
أن ذلك راجع الى أهمية المادة نفسها . وضرورة هذه الفقرة بالنسبة للنص
كله .

— كذلك فقد حفلت هذه الفقرات الجاحظية بفضيلة أخرى ، تلك هى
عدم التردد بين الجمل القصيرة جدا والطويلة جدا ، داخل اطار الفقرة
الواحدة ، بحيث يحدث نوع من الاقتراب والتماثل والتشابه بين طول
العبارات المكونة للفقرة .

— وهى لم تزخر بالروابط ، والجمل الاعتراضية والاسماء الكثيرة
والطويلة والمركبة . .

— وجود نوع من التسلسل المنطقى للأفكار الرئيسة والفرعية ،
بحيث تقود هذه الى تلك ، والى الثانية والثالثة ، حتى الفقرة
الآخيرة . . وهكذا .

لا نترك ذلك كله . دون الإشارة الى عدد من الأمثلة الدالة عليه ، من
المعين الجاحظى الكبير ، ومما سبق أن قدمنا عدة سطور منه ، أو من سطور
جديدة لم نقدمها خلال الصفحات السابقة .

فالحاحظ كان يعنى بانتخاب العاظه التى تؤدى الغرض وتوصل الى
المعنى وتكون أكثر ملاءمة له . واتفاقا مع الفهم والذوق ، ومع صدق التعبير
واقعيته وديقته ، فى نفس الوقت الذى يكون فيه اللفظ عاديا سهلا بسيطا ،
وليس ضخما غريبا وحشيا حتى أنه استخدم أحيانا بعض الألفاظ العامية .

- ٢٢٠ -

والترجمة القريبة من الأذهان ، كما كان عدد حروفها قليلا ، وكانت هي غير متنافرة ، ولم يحدث الصراع أو التنافس بينها حرفا ولفظا ٠٠

● ● انظر مثلا الى هذه الألفاظ كلها التي لم يستخدمها غيره إلا قليلا ، أو كان يخاف استخدامها أو لا يقدر عليه بينما تبدو عادية جدا في ثنايا بيانه ٠

« الدماغ - الخيشوم - الشحم - الاقتصاد - المسلمات - البشم -
التخمة - الوعاء - النشرة - التشنيع - الاخبار - المعاش - الكرة
المحامي - المزاح - الدمائية - الضاحك - المضحك - التركيب - المادة -
العلة - الآلة - الفلاحة - المعارضة - السلامة - النمو - قط - النزهة -
العدة - الخفى - الشاهد - الواقف - الرئاسة - النتاج - التقويم - الآثار -
الخطر - الفرقة - المسلوق - المالح - السمن - الشواء - التعرف -
الدليل - الوقاح - المناضلة - الحيارى - الاداعة - الجماد - الأفلاك » ٠

● ● وانظر كذلك الى هذه الطائفة من الكلمات والتعابير الشعبية وروح الفكاهة التي تسرى في هذه الاوصاف :

« سقط على أنفه الذباب - من غير أن يحرك أرنبتة - مفرط القصر
ويدعى أنه مفرط الطول - عدوت منه شوطا لم أتكلف متله منذ كنت صبيا -
وكان مربعا - وعليك لهم اذا اضطجعت مسائل - وتحسبه مدورا - ان شئت
فأكله وموتة وان شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة - اللهم العن هذه
الصلعة ١ - كان اماما فى البخل - ينهشها طولا وعرضا ورقعا وخفضا -
كان أسخى الناس على طعام غيره وأبخل الناس على طعام نفسه - يأكل
بعشرة - الكظيظ - شق قميصه من الطرب - النشال - اللكام - النباش -
النشاف - المصاص - الثهاش » ٠

الى غير ذلك من الكلمات والتعابير الشعبية والعامية والفكاهة ٠٠

● ● وانظر كذلك الى هذه التراكيب العديدة والسهلة التي وردت ضمن كتابات الرجل مما يذكرنا بتعابير وتراكيب كبار كتاب المقال فى صحف
اليوم :

- ٢٢١ -

« كاد الشاعر يخرج من جلده - شاهد عيان - الحمسد المركب -
أعجزتهم الحيلة - دارت بهم الحال - أرباب الوديعه - أخبر الخلق - تعظيم
البيان - صاحب الخير - صاحب الشر - نوات الاقتصاد - وقعت بين نابى
أسد ... الخ » ٠٠

● ● كذلك ، فقد كان من معالم أسلوبه - كما نكرنا - الذى يقترب
من الأسلوب الصحفى كثيرا أن عباراته كانت قصيرة متماسكة ، بحيث لم
يزد طولها عن عشر كلمات الا فى القليل النادر ، بينما دارت معظمها حول
نصف هذا العدد من الكلمات ، وفى أحيان كانت تقل عن خمس أيضا ، بل
وكانت عنده المقدرة على أن يقدم لنا عبارات عديدة تدور حول كلمتين أو
ثلاث فقط ، اقرأ معنا على سبيل المثال لا الحصر ٠٠ هذه الفقرة من بيانه :

« ٠٠ ومن لك بطبيب أعرابى ، ومن لك برومى هندى ، ويفارسى يونانى ؛
ويقدم مولد ويميت ممتع ؛ ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر ، والناقص
والوافر ، والخفى والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرقيع والوضيع ، والغث
والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده » (الحيوان ج١ من المقدمة) ٠٠

الى غير ذلك كله ، من هذه الكلمات السهلة ، السلسلة المناسبة ، ومن
العبارات القصيرة والفقرات أيضا ٠

والخلاصة ، أن الجاحظ فى هذا الجانب الصحفى من جوانبه ، عرف
ككل صحفى آخر ، كيف يبحث عما يريد أن يقول ، وكيف يختاره من بين
ما تجمع لديه من محصولة ؟ ثم كيف يعبر عن ذلك ، بالطريقة التى يفهمها
أكثر القراء ؟ ٠ لقد عرف ماذا يقول ؟ وكيف يقول ؟ وبأى أسلوب أيضا ؟

وكما قلنا ٠٠ لا نترك هذا المجال ، دون اشارة الى أقوال الرجل نفسها
التي تتصل بهذه الأمور من ألفاظ وتعبيرات وأساليب أزعم عن يقين أنها تصلح
تماما ، لتعطى فى قاعات الدرس الصحفى ، وفى معامل التحرير على وجه
الخصوص ٠٠ ان من بينها على سبيل المثال ، هذه الأقوال :

● « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى

- ٢٢٢ -

نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل .
والافصاح فى موضع الافصاح والكناية فى موضع الكناية والاسترسال فى
موضع الاسترسال « (٢١) » .

● « ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت بعد امتحان سواها - ولكل مقام
مقال ولكل صناعة شكل » (٢٢) .

● « ... وانما الألفاظ على اقدار المعانى فكثيرها لكثيرها ، وقليلها
لقليلها وشریفها لشریفها وسخيفها لسخيفها ... » (٢٣) .

● « ... وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى
ظاهر لفظه » (٢٤) .

● « ... ومتى كان اللفظ أيضا كريما فى نفسه ، متخيلا فى جنسه ،
وكان سليما من الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبيب اليه النفوس ، واتصل
بالأذهان ، والتحم بالعقول وهشت اليه الأسماع وارتاحت القلوب » (٢٥) .

.. ويعود ..

- فهذا رجل أخذ من كل بستان زهرة .
- وروى الأخبار التى كانت حالية ساخنة وقت روايتها .
- وسعى وانتقل من مكان لمكان ورحل طلبا لها وللعلم والثقافة .
- وكانت له مصادره العديدة المسموعة والمقروءة معا .
- وصور عصره أبلغ تصوير بما فيه ومن فيه .
- بدقة ، وموضوعية ، وفى اختصار .
- ولم يهتم كثيرا بالصنعة أو الزخرف أو الوسائل البيانية .
- ولم يهتم كثيرا بالخيال .. بل هو الواقع .
- وهو المعنى قبل اللفظ ..

فضلا عن انه قرأ كل فن معروف ، ومارس كل علم معروف ، وسعى
وراء كل فكر معروف ..

- ٢٢٢ -

واقترح كل الآفاق الجديدة التي أنتجها عصره ، وسبق غيره باقتحامها ،
بل كان من المبشرين بها ..

وكان بكل ذلك ، أكثر الكاتبيين في عصره الذين أقبل القراء عليهم بكل
شغف وعجب أيضا .

وما يزال أكثر كتاب عصره الذين يقبل عليهم القارئ .. حتى اليوم ،
بعد أن نجحت كتاباته بكل هذا الذي توافر لها من أن تعبر القرون ، وتصل
إلينا وبعضها كأنه كتب بالأمس القريب فقط ، وبعضها الآخر كأنه كتب اليوم ..

ولو عاش الرجل بين ظهرانينا ، لكان أحد الأقداد من كتاب عصرنا
أيضا ولسعت من ورائه نوعيات كثيرة من الصحف والمجلات ، ولاحتل بين
محرريها مكانا بارزا ومرموقا ، وما كان أجدره بذلك .. وهو الأديب
الصحفي .. معا .. أو هكذا أردت أن أقول .

هوامش هذا الفصل :

- (١ - ٢) أحمد الشايب : « الأسلوب » ص ٤٥ .
- (٣) عبد اللطيف حمزة : « المدخل في فن التحرير الصحفي » ص ٢٢٢
- (٤ - ٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .
- (٦) من بينهم الأساتذة الدكاترة المرحوم عبد اللطيف حمزة ، والمرحوم حسنين عبد القادر ، و د. إبراهيم امام ، وغيرهم .
- (٧ - ٨) محمود فهمي : « فن تحرير الصحف الكبرى » ص ٣٠ ، وما بعدها .
- (٩) اجلال خليفة : « اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي » ص ١٣
- (١١ - ١٢ - ١٣) عبد العزيز شرف : « اللغة الاعلامية » ص ١٩٧ ، ١٩٩
- (١٤) محمود أدهم : « المقال الصحفي » ص ٢٤٣ وما بعدها .
- (١٥) الجاحظ : « البخل » ص ٤٥٢ نقلا عن د. طه الحاجري .
- (١٦ - ١٧) جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » ص ١٤٩ ، ١٤٥ .
- (١٨) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٣ .
- (١٩) الأب فيكتور شلحت اليسوعي : « النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ » ص ٥٥ .
- (٢٠) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١٦٤ .
- (٢١) الجاحظ : « كتاب الحيوان » ج ٣ ص ٣٩ .
- (٢٢) المصدر السابق ص ٣٦٨ .
- (٢٣) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٧ ، ٨ .
- (٢٤) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٢ ص ٧٣ .
- (٢٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٨ .

أهم مراجع الكتاب ومصادره

أولا - معاجم وقواميس

- ١ - ابراهيم أنيس وآخرون : « المعجم الوسيط » مجمع اللغة العربية ، القاهرة .
- ٢ - أحمد محمد على القرى الفيومي : « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » المطبعة الأميرية ، مصر .
- ٢ - محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى : « مختار الصحاح » وزارة المعارف ، مصر .
- ٤ - ياقوت الحموى : « معجم الأدباء » دار المأمون .

ثانيا - مصادر جاحظية

- ٤ - البخلاء : تحقيق طه الحاجرى ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٤٨
- البخلاء + ضبط وشرح أحمد العوامرى وعلى الجارم ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٣٩ .
- ٦ - الحيوان : تحقيق عبد السلام هارون ، م الحلبي ، القاهرة ١٩٢٨ .
- ١ - البيان والتبيين : تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٧ - رسائل الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ، م الخانجى ، القاهرة ١٩٤٢ .
- ٩ - الترييع والتدوير : تحقيق فوزى عطوى ، الشركة اللبنانية ، بيروت .
- ١٠ - البرصان والعرجان ٠٠٠ الخ : تحقيق محمد مرسى الخولى ، د . الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٢ .

ثالثا - كتب مختلفة

- ١١ - أبى الحسن على بن اسماعيل بن سيدة : « المختصص » وزارة المعارف القاهرة .
- ١٢ - اجلال خليفة : « اتجاهات حديثة فى فن التحرير الصحفى » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ٧٢/٧٢ .
- ١٢ - اجلال خليفة : « الصحافة » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ١٤ - اجلال خليفة . « علم التحرير الصحفى » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ .

(الجاحظ)

- ١٥ - أحمد الاسكندري وزميله : « الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، المطبعة
الرحمانية ، القاهرة .
- ١٦ - أحمد الشايب : « الأسلوب » م . النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ،
١٩٧٦ .
- ١٧ - أحمد فريد الرفاعي : « عصر المأمون » دار الكتب ، القاهرة .
- ١٨ - أحمد كمال زكي : « الجاحظ » هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ١٩ - أحمد عبد الغفار عبيد : « أديب الفكاهة عند الجاحظ » القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٢٠ - أحمد يوسف محمد خليفة : « نشأة النقد الأدبي حتى نهاية القرن
الأول الهجري » م . الثقافة القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٢١ - السباعي بيومي : « تاريخ الأدب العربي » مطبعة الرسالة ، القاهرة
١٩٥٨ .
- ٢٢ - بدوى طبانة : « البيان العربي » م . الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، القاهرة .
- ٢٣ - بدوى طبانة : « علم البيان » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٢٤ - توفيق الحكيم : « فن الأدب » مكتبة الآداب ، القاهرة .
- ٢٥ - جميل جبر : « الجاحظ في حياته وأدبه وفكره » دار الكتاب اللبناني ،
بيروت .
- ٢٦ - حسن السندوي : « أديب الجاحظ » المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٣١ .
- ٢٧ - حسنين غنيم القادر : « الصحافة كمصدر للتاريخ » م . الأنجلو
المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٢٨ - حنا الفاخوري : « الجاحظ » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .
- ٢٩ - خليل صبايات : « الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم » دار المعارف ،
القاهرة ١٩٦٨ .
- ٣٠ - خليل صبايات : « وسائل الاتصال : نشأتها وتطورها » م . الأنجلو
المصرية القاهرة ١٩٨٤ .
- ٣١ - راجى صهيون : « مدخل الى علم الصحافة » مترجم عن ف . فريزر
بوند . مؤسسة بدران ، بيروت .
- ٣٢ - زكى مبارك : « أديب القرن الرابع » دار الكتب المصرية ، القاهرة
١٩٣٤ .
- ٣٣ - شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ط ٦ دار المعارف ،
القاهرة .
- ٣٤ - شوقي ضيف : « النقد » دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٣٥ - طه الحاجر : « الجاحظ : حياته وأثاره » دار المعارف ، القاهرة .
- ٣٦ - طه حسين : « حديث الأربعاء » م . التجارية ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ٣٧ - طه ندا : « الأدب المقارن » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

- ٢٢٧ -

- ٢٨ - عبد العزيز الغنام : « مدخل الى علم الصحافة » ج ١ . م . الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٢٩ - عبد العزيز شرف : « فن المقال الصحفي » دار المعارف . القاهرة ١٩٨١ .
- ٤٠ - عبد العزيز شرف : « اللغة الاعلامية » المركز الثقافى الجامعى . القاهرة ١٩٨٠ .
- ٤١ - عبد اللطيف حمزة : « مستقبل الصحافة فى مصر » دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٥٧ .
- ٤٢ - عبد اللطيف حمزة : « المدخل فى فن التحرير الصحفى » دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٤٣ - محمد أحمد خلف الله : « دراسات فى الأدب الإسلامى » لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٧٤ .
- ٤٤ - محمد زغلول سلام : « دراسات فى الأدب العربى » منشأة المعارف ، الاسكندرية .
- ٤٥ - محمد غنيمى هلال : « الأدب المقارن » دار النهضة مصر ، القاهرة .
- ٤٦ - محمد مصطفى غنيم : « مخبرو الصحف » مترجم عن د . يوتر . دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ٤٧ - محمود أدهم : « فن الخبر » دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٤٨ - محمود أدهم : « فن تحرير التحقيق الصحفى » دار الشعب . القاهرة ١٩٧٩ .
- ٤٩ - محمود أدهم : « الفكرة الاعلامية » دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٣ .
- ٥٠ - محمود أدهم : « المقال الصحفى » م . الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ٥١ - محمود أدهم : « التعريف بالمجلة » م . الثقافة . القاهرة ١٩٨٥ .
- ٥٢ - محمود أدهم : « الأسس الفنية للتحرير الصحفى العام » القاهرة ١٩٨٥ .
- ٥٣ - محمود فهمى : « فن تحرير الصحف الكبرى » هيئة الكتاب . القاهرة
- ٥٤ - نبيل راغب : « دليل الناقد الأدبى » م . غريب . القاهرة ١٩٨١ .

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
● تقديم	٥
● الفصل الأول : عن الصحافة والصحافيين والأدب الصحفي	٩ - ١٠ - ١١
عن الأدب وعن الصحافة	١٤
عن الأدب الصحفي	٢٣
هوامش	٣١
● الفصل الثاني : معالم جاحظية	٢٢ - ٢٤ - ٢٥
نتاج عصره	٢٥
مكوناته	٤٢
التثقيف الذاتى	٥١
هوامش	٥٨
● الفصل الثالث : شواهد صحفية	٥٩ - ٦٠
الرجل ومصادره	٦١
معايشة .. وحضور	٦٦
(١) فى المجال الدينى العقائدى	٦٩
(ب) فى المجال الفكرى والعلمى والثقافى	٦٩
(ح) فى المجال اللغوى والأدبى	٧٠
(د) فى المجال الاجتماعى	٧١
(هـ) فى مجال الامتاع الفكاهى	٧٢
شاهد على العصر	٧٤
٠٠٠ وأكثر من حاسة	٨٠
(١) الحاسة الاخبارية	٨١
(٢) الحاسة السياسية	٨٢
(٣) الحاسة الاتصالية	٨٥
(٤) الحاسة الجماهيرية	٨٨
(٥) الحاسة الفكاهية	٩٠
هوامش	٩٣

الموضوع	الصفحة
● الفصل الرابع : الحاسة الصحفية عند الجاحظ	٩٥ - ٩٦
أولا : اشارات ودلالات سريعة	١٠٢
ثانيا : شواهد صحفية مختلفة	١٠٤
(١) الأفكار الصحفية الجديدة	١٠٥
(٢) حول الأخبار الجاحظية	١١١
(٣) . . . وشواهد أخرى	١٦
(٤) يؤلف فقط أم يجمع أيضا ؟	١٢٥
هوامش	١٣١

● الفصل الخامس : جذور الفنون الصحفية في	
أدب الجاحظ	١٣٣ - ١٣٤

(أ) كتاباته وجذور الحديث الصحفي . .	١٣٨
(ب) كتاباته وفن التحقيق الصحفي . .	١٥١
(ج) كتاباته وفن المقال الصحفي	١٥١
المقال المختصر	١٥٧
مقال المناسبات	١٥٨
المقال الاعلاني	١٥٩
المقال الصحفي العام	١٥٩
المقال العرضي	١٦١
المقال التحليلي	١٦٢
المقال النقدي	١٦٦
مقال التخصص العام	
المقال الفكاهي الكاريكاتيري	١٧٦
المقال الافتتاحي	١٨٧
هوامش	١٩٣

● الفصل السادس : عن الأسلوب الجاحظي	
-------------------------------------	--

« الجاحظ والأسلوب الصحفي »	١٩٥ - ١٩٦
أولا - الأسلوب : ماذا يعني ؟	١٩٧
ثانيا - عن الأسلوب الصحفي	٢٠٢
ثالثا - الجاحظ والأسلوب الصحفي	٢٠٦
الجاحظ ومستويات التعبير	٢٠٩

- ٢٢١ -

الصفحة	الموضوع
٢١٣	حول الحروف التي استخدمها
٢١٤	الكلمات الجاحظية
٢١٦	العبارات الجاحظية
٢١٨	الفقرة عند الجاحظ
٢٢٤	هوامش
٢٢٥	أهم مراجع الكتاب ●

تم بحمد الله
ويليه بوعونه تعالى كتاب جديد
فى سلسلة
فنون التحرير الصحفى
بين الأصالة والمعاصرة

(الجاحظ)

هذا الكتاب وغيره من الآثار العلمية للمؤلف

الدكتور محمود أدهم تطلب من :

- ❶ وكالة الأهرام للتوزيع . شارع الجلاء بالقاهرة .
- ❷ مكتبة الانجلو المصرية : ١٦٥ ش محمد فريد بالقاهرة .
- ❸ دار الفكر العربى : ١٦ ، ١١ ش جواد حسنى بالقاهرة .
- ❹ دار الشعب : ش قصر العينى بالقاهرة .
- ❺ دار الثقافة للطباعة والنشر : ش كامل صدقى بالفجالة بالقاهرة
- ❻ المركز العربى للمصحافة : ٢٢ ش قصر النيل بالقاهرة .
- ❼ عالم الكتب : ٢٨ ش عبد الخالق ثروت بالقاهرة .
- ❽ دار الفكر الحديث : ١٥ ش شريف بالقاهرة .
- ❾ دار النهضة المصرية : شارع عدلى بالقاهرة .
- ❿ ومن المؤلف :

ص ب ٥٠٤٦ هليوبوليس غرب / القاهرة

او ٢٥ ش محمد فريد / مصر الجديدة / شقة ٤١ .

ب ٢٤٢٣٤٢٨

رقم الايداع ٢٤٦١ / ٨٦

● ● مؤلفات الدكتور : محمود أدهم فى الاعلام الصحفى

- ١ - فى الخبر .
- ٢ - التحقيق الصحفى .
- ٣ - مقدمة فى التحرير الاخبارى .
- ٤ - هم والصحافة .
- ٥ - فن تحرير التحقيق الصحفى .
- ٦ - المدخل فى فن الحديث الصحفى
- ٧ - دراسات فى التحرير الاخبارى .
- ٨ - الفكرة الاعلامية .
- ٩ - ماجريات الصحف .
- ١٠ - دراسات فى فن الحديث الصحفى .
- ١١ - المقال الصحفى .
- ١٢ - الأسس الفنية للتحرير الصحفى العام .
- ١٣ - المقابلات الاعلامية .
- ١٤ - التحقيق الأنموذجى وصحافة الغد .
- ١٥ - التعريف بالمجلة .
- ١٦ - جريدة الأهرام وفن التحقيق الصحفى .
- ١٧ - فى عالم المجلة .
- ١٨ - دراسات فى صحافة المجلة .
- ١٩ - أدب الجاحظ . من زاوية صحفية .

● ● تحت الطبع للمؤلف :

- ١ - دراسات فى فن التحقيق الصحفى .
- ٢ - عروش وأقلام .